سمير النفس وأنيس المحبين

مجموعة مقالات

قضايا فكرية - اجتماعية - تربوية

للدكتورة صفية الودعيني



دار المازري

للنشر والتوزيع

سمير النفس وأنيس المحبين

مجموعة مقالات

قضايا فكرية - اجتماعية - تربوية

بسم الله الرحمن الرحيم

سمير النفس وأنيس المحبين

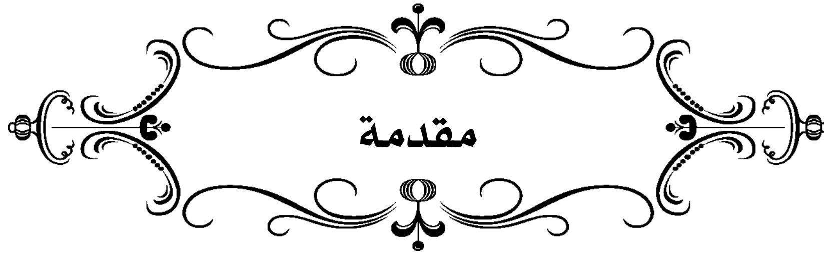
مجموعة مقالات

قضايا فكرية - اجتماعية - تربوية

دار المازري

الطبعة الأولى
1438هـ - 2017م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



مقدمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم وعَلَّم الإنسان ما لم يَعْلم، وكَرَّم بني آدم بالعِلْم أوَّل ما كرَّم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿31﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿32﴾﴾[1]. .

وأَشْهد أنْ لا إله إلا الله وأشْهَد أنَّ محمَّدًا عبْدُه ورَسولُه، الذي جُعِلَت له الأرض مَسْجِدًا وترابُها طَهورًا، وصلَّى الله عليه وسلّم وعلى آله وأَصْحابه الكِرام والتَّابِعين لهم بإِحْسان. .

أما بعد:

إنَّ مِنْ أَوْلى ما تَدبَّجَت به الصَّحائِف، ونَطقَتْ به الأَلْسِنَة والأَقْلام، ما أَصْدَرته الأَذْهانُ السَّليمَة، وانْتَسبَت إليه الأَفْكار

(1) سورة البقرة.

والآراءُ السَّديدَة، وما خَلَّفَتْه العُلوم والآداب مِنَ الآثارِ الطيِّبَة الكريمَة. .

فهي الإِرْثُ الخالِد، والفَرْع المُمْتدُّ عن الأَصْلِ الثَّابِت، يصِلُ القلوبَ كما الأَقْلام بصِلاتِ الصِّدْق والإِخْلاص. .

قال الأخطل التغلبي:

والناسُ همُّهمُ الحياةُ وما أرى
طولَ الحياة يزيدُ غيرَ خَبالِ
وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجدْ
ذخراً يكونُ كصالحِ الأعمالِ

فلا صَلاح لأمَّةٍ بلا ضَميرٍ إِنْساني ولا فضيلة، ولا أُصول ولا ثَوابِت مُتَجذِّرَة في ثقافَة المجتمعات وتُراثِها وتاريخِ وُجودِها، تُحَتِّم على أَبْنائِها أنْ يَتجشَّموا الصِّعاب، ويُواجِهوا مَصارِع الفِتن، ويَدْأَبوا على السَّعْي والجِدِّ في العمَل الشَّريف. .

ولا صَلاح لأمَّةٍ لا يَحْمِل كُتَّابها رسالَة الثَّقافَة والأَدَب، لتَنْشِئَة جيلٍ مَتينِ الخُلق والدِّين، يَحْمِل رسالَةً ذَوْقِيَّة وفَنِّية، تُشْعِرُه بقيمَة الأدَب كأَخْلاق ومَبادئ، قبل أن تُلْزِمَه بشُروطِها وقَواعدِها في الأَداء. . . .

فكيف يمكن للأدب والثَّقافة أنْ تُنْشِئ جيلاً يَخْدُم أمَّته، ويَرْقى بالفَرْد والمُجْتمع وهو غارِقٌ في الوَحْل؟!!

وكيف يَسْتحِقُّ الأدَب أنْ يكون أدبًا إنْسانِيًّا سامِيًا وهو مُحايِد لكلِّ ما له ارْتِباطٌ بالأخلاق والفِطَر السَّليمة؟!!

وكيف يَسْتحِقُّ الأدَب أنْ يَحْيا ويَنْمو خارجَ بُؤْرَة الفساد، والانْحِلال، والضَّياع، وتَجاذُبات النَّفس التي تُحْرِقها الرَّغَبات وتُذيبُها سَكراتُ الأَهْواء؟!!

وكيف يَسْتحِقُّ الأدَب أنْ يَبْني ويؤَسِّس داخِل نَسيج العُقول الهائِمَة، التي تُدَغْدِغ مَشاعِر من تُشارِكهم تَصْوير بُؤْسهِم الأَسْود، لاسْتِجداء عاطِفَتهم، أو لتَفْريغ مَكْبوتاتهِم الخالِيَة من كلِّ قيمَة أو جَوْهر؟!!

وقد اعْتَنى الأستاذ الأديب عبدالله كنون برسالة الأدَب العربي فقال: «ورسالة الأدب العربي، رسالةٌ مُقَدَّسَة يجِب ألا تَقْتصِر على الأَغْراض اللَّفْظِيَّة، ولا على المُتْعَة الذِّهنية، ولا على المعاني الذَّاتيَّة التي لا يشعر بها إلا الأديب المُتَكلِّم نفسه، إنَّها رسالةٌ ! ومفهومُ هذا اللَّفظ ممَّا ينبغي ألا يَعْزُب عن البال، فهو مُهِمَّةٌ تَقْتضي الهَدْم والبِناء، والعَمَل الجَماعي المُؤَدِّي إلى الغاية التي أدَّت إليها رسالةُ النَّبيئين من قبل، غايَتُه فَتْحُ الآذان الصُّم، والأَعْيُن العُمْي، والقُلوبِ الغُلْف، على دَعْوة الحَق التي تُنْقِذ البَشريَّة من ضَلالها الحديث، كما أَنْقذَتْها بالأمس من ضَلالها القديم، وإنَّها مقدَّسةٌ، وليس المراد بهذا الوَصْف مَعْناه الخَيالي الذي يَبْتَذِلُه به الحالمون، وإنَّما المراد به الإِكْبار من شَأْن هذه الرِّسالة، ذات المَسْؤولِيَّة العُظْمى، التي لا يَتحَمَّلُها إلا أَبْطالُ الكِفاح من أَجْلِ القِيَم الإِنْسانِيَّة العُلْيا، فهم والمُجاهِدون

الذين يَزْرى مِدادُ أقلامهِم بدَمِ الشُّهَداء»[1]. .

لهذا اخْتَرتُ أنْ يكونَ هذا الكِتاب فيه النَّفْحَة الأولى من نَفحاتِ هذا الأدَب وأَنْفاسِه، والنَّبْضَة الأولى من نَبضاتِ هذا القَلم وقَلْبَه الخافِق بتَغاريدِ الرُّوح، الشَّادِيَة على غُصونِ الفِكْر والوِجْدان، والوَمْضَة الأولى البارِقَة بالمَعْنى الرَّائِق والإلْمام بالحديثِ الشَّائِق، الذي يَتَغَلْغَل في وَصْفِ أَسْرار النَّفسِ البَشريَّة، ويَغوص في بَواطِن القلوب ليَسْتَخْلِص مَكْنوناتِها الدَّفينَة، وليَجْلو عن العواطِف والأفْكار الصَّدَأ والرَّان، ويُطَهِّرَها من العِلَل والأسْقام، ولتَثْقيف الفِكْر وتَغْذِيَة العاطِفَة، وبَعْثِ الرُّوح الوَثَّابَة في الشَّبابِ الطَّموح. .

فتَصيرُ اللُّغَة والأدَب، والثَّقافَة والمَعْرفَة، ناديه وفَنَنه الذي يَسْتظِلُّ بوارفِه، ومَحجَّتَه التي لا يضِلُّ في سُلوكِ طَريقِها والنُّزولِ بواديها، وذَريعَته التي يَتوصَّل بها إلى إِصْلاح ذاته ثم الانْتِقال إلى إِصْلاح الفَرْد والمجتمع. .

ذلك لأنَّ لكلِّ فَضيلةٍ أُسًّا ولكلِّ أدَبٍ يَنْبوعًا، وأُسُّ الكتابة ويَنْبوعُها التَّحَلِّي بالآداب والفَضائِل، فمَنْ لا يَتحلَّى بهِما في تَبْليغ الفِكْرَة وتَوْصيلِ المَعْنى، كان كصورَةٍ مُمَثلة في الحُسْنِ والجَمال، ولكنْ يَنْقصُها تمامُ العَقْل الذي هو: «أُسُّ الفَضائِل ويَنْبوع الآداب، والذي جعَله الله تعالى للدِّين أَصْلاً وللدُّنْيا عِمادًا، فأَوْجَب الدِّين بكَمالِه وجَعَل الدُّنْيا مُدَبَّرةً بأَحْكامِه،

---

(1) خل وبقل، مجموعة مقالات أدبية ونقدية/لعبدالله كنون ـ المطبعة المهدية، تطوان (المغرب): ص 155.

وألَّف به بين خَلْقِه مع اخْتِلاف هِمَمِهِم ومَآربهِم، وتَبايُن أَغْراضهِم ومَقاصِدهِم»[1]..

ومَنْ لم يَنْتهج له خَطًّا مُسْتقيمًا في الكتابة، ولم يَبْتَغ في مَقاصدِه وغاياتِه التَّغْيير والإصلاح ونَشْر الخَيْر والنَّفْع العام، لم يَنْظُر إلى العَواقِب حيث وضَعَ الكلامَ في غَيْرِ ما يَليقُ به، وسَلبَه السَّلامَة وأَوْرثَه النَّدامَة، وحادَ به عن شَرفِ المَطْلوب والغايَة: «فإنَّ شرفَ المَطْلوب بشَرفِ نَتائِجه، وعِظَم خَطَرِه بعِظَم مَنافعِه، وبحسَب مَنافعِه تجب العِنايَة به، وعلى قَدْر العِنايَة به يكون اجْتِناء ثمرَتِه، وأَعْظم الأمور خَطرًا وقَدْرًا، وأَهمُّها نَفْعًا ما اسْتَقام به الدِّين والدُّنْيا، وانْتظَم به صَلاح الآخِرَة والأولى، لأنَّه باسْتِقامَة الدِّين تَصِحُّ العِبادَة وبصَلاحِ الدُّنْيا تتِمُّ السَّعادة»[2]..

وقد قيل: العقل بلا أدَب فَقْر، والأدَب بلا عقلٍ حَتْف[3].

فمَنْ تَكلَّم بجَهْل تَكلَّس عَقْلُه وعَمِيَ بصَرُه، فكَثُرَ لغَطُه وتفَشَّى غَلطُه فأَبْدى عُجَره وبُجَره، وضاقَ قَلمُه بفِكْرته فنَفشَ ريشَه، وسَلَّ لسانَ سُخْطِه فأذاعَ في الناس شَرَّه ولم يَرْتدِع، «فالنَّاس أَعْداء ما جَهِلوا»..

(1) أدب الدنيا والدين/أبي الحسن الماوردي ـ شرح وتعليق: محمد كريم راجح ـ دار اقرأ، الطبعة الرابعة 1405هـ ـ 1985م: ص 6.

(2) المصدر نفسه: ص5.

(3) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء/لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني ـ منشورات دار مكتبة الحياة : 13/1.

أما مَنْ لَزِم حِياضَ العِلْم وتَقيَّد بشُروطِه، كان ذا عَقْلٍ مَفْتوح ورَأْيٍ سَديد واسْتِنتاجٍ سَليم..

قال صالح بن عبدالقدوس:

إذا تـمَّ عَـقْـلُ الـمَـرْء تـمَّـت أُمـوره
وتـمَّـت أَمـانـيـه وتـمَّ بِـنـاؤُه

والكِتاب كما يوحي إليه عُنْوانه: «سَميرُ النَّفس وأَنيسُ المُحِبِّين» هو مجموعة مقالات مِنْ وَحْيِ الفِكْرة ورَفيفِ الخاطِرَة، وفَيْضِ القَلْبِ المُحِبِّ للكتابَة، التي ما حَلَّ قَلمٌ بواديها إلا وعمَرتْ بَواديه بسَجاياها وفَضائِلها، ولا ورَدَ مَوارِدَها إلا واسْتَعْذَب سِقاءَها وشَرابَها، ولا نزَل بمَنازِلها إلا وبسَطت له سِجَّادَها واتَّسعَت له رِحابُها..

وبما أنَّ القُلوبَ لا تَرْتاح إلا إذا اشْتَغلت بالفُنون المُتَبايِنَة، تَوخَّيْت أنْ يكونَ مَسْلَكي ومَنْهَجي في إخْراج هذا الكتاب، هو التَّنَقُّل بين مَواضيع مُتَنوِّعَة، ضِمْن مجموعة من المقالات والأبحاث المُتَعدِّدَة المَشارِب والرَّوافِد، في قَضايا تَتعلَّق بالفِكْر والثَّقافة، واللُّغَة وفَنِّ الكتابة، وتَقْويم اللِّسان العَربي، ورَبْطِه بالانْسِجام الإيقاعي في اللُّغة كما في التَّعْبير المُنْسَجِم مع الفِعْل، وبَثِّ صَحْوة في الأقلام النُّورانِيَّة لتَدْعو إلى مَذْهب الحَق وتَجْهر به، وإيقاظِ الضَّمير الإنساني لدى الكُتَّاب، ومَنْ يَمْتلِكون الذِّهْن الوَقَّاد والبصيرَة النَّافِذَة، والقابلِيَّة لتَحْقيق التَّغْيير والإِصْلاح، والانْتِفاض على جاهِلِيَّة الأَقْلام وإِلْجامِ مَنْ

يَحْمِلُها بلِجام الحَقِّ والإِنْصاف، بعد أنْ سَقط نُخَبٌ من الكُتَّاب في مَراتع الانْحِراف والفَسادِ الأَخْلاقي والدِّيني..

كما يتناول الكِتاب قَضايا أُخْرى في مجال التَّربية، وتَهْذيبِ النَّفس وتَزْكِيَتِها، وإرْشادِها إلى كَوامِن الحُبِّ الصَّادِق الخالِص، والتَّعالي عن الرَّذائل والأَحْقاد والمَساوِئ، وبناء عَقائِدها ومَناهِجها ومَذاهِبها على اليَقين والإيمان الصَّحيح..

وبَعْثِ الهِمَم العالِيَة لتَرْتقى بطاقَتِها الإيمانيَّة الهائِلَة، التي لا تَعْرِف الوُقوف ولا التَّخَلُّف ولا الرُّجوع القَهْقَرى، بل تصْعَد القمَّة وتتحدَّى الطريق الضيِّق، وتَنْهَض بالقِوى المُنْكَسِرة لتَنْشَط وتَعْمَل، وتَبْني الصَّرح الشَّامِخ، في تَكامُلٍ وتَمازُج يَرْبِط بين الرَّجل والمرأة برِباط الوَفاء، ويَصِلهُما بعُهودِ الصِّدْق والإِخْلاص للرِّسالة النَّبيلة التي يَحْمِلانها، وتَحْقيق التَّعايُش المُنْسَجِم مع تمَثُّلهما لمَعاني العُبودِيَّة في أَسْمى مَراتبِها..

كما يتناول الكتاب الحديث عن أطفال الشَّوارع الذين يُكابِدون الأَحْزان ويَتجَرَّعون الآلام، ولا بَيْتَ يَأْويهم ولا أُسَر تَكْفلهُم..

والحديث عن حَقيقة الإنسان السَّوي والإنسان المعاق، والميزان العادِل للتَّقْييم والتَّصْنيف بين الناس..

والدَّعوة إلى مُحاربَة التَّرف باعْتِباره داء القلوب الضَّعيفة، والدَّعوة إلى تَحْقيق التَّكافُل الاجتماعي باعتباره بناءً فِكْريًّا مُتَكاملاً، وشامِلاً لمَنْظومَة أَخْلاقِيَّة تُلَبِّي حاجاتِ الفَرْد بالمُجْتمَع، وتُؤَلِّف بينهم بصِلاتِ المَودَّة والرَّحمة..

ثم الانْتِقال إلى إِظْهار أهمِّية مؤسَّسة الوقف التي تُساهِم في تَحْقيق التَّنمية الشامِلَة في المجتمع الإسلامي..

كما يتناول الكتاب الحديث عن حياة الفاتِحين التي تَنْبني على قَواعِد الإيمان الصَّادِق، الذي يدْفَعهُم إلى بُلوغِ الغايَة الأسْمى في الحياة، ومُجاهدَة النَّفس للفَوْز بالجنَّة في سِباق الطَّاعات، والحديث عن حياة الغُزاة التي تَسيرُ في اتِّجاه نَشْر الهَيْمنَة، والسَّيْطرة بالقُوَّة والقَهْر، ونَشْرِ النِّزاع والشِّقاق..

والحديث عن الطَّريق الضيِّق، لأنّ طريقَ الهِداية تَحُفُّه الشَّدائد والمِحن، ويولَج بابُه من شِقِّه الضَّيق، أما طريق الضَّلال والانْحِراف فهو رَحيبٌ فَسيحُ الجنَبات، يولَج بابُه من شِقِّه الواسِع المَطْروق..

وقد خَتمْتُ هذا الكتاب بتلك البسَمات النازفة، لأنَّنا صِرْنا في زمنٍ اشْتَدَّ فيه سُعار الحُروب التي مَلأَت الأرض من أَدْناها إلى أَقْصاها، فتَجافَت القُلوب عن المَضاجِع وتَصدَّعَت حَناياها من الأَهْوال، وصارَتْ تَرْتدي لباسَ الحِداد تِلْوَ الحِداد، وتَتَجرَّع السُّمومَ والمَوْتُ يَعْتام الأَرْواح، وأَحْلامُها مَنْصوبة على أَعْمِدَة الخُطوب والأَرْزاء..

وقد كُتِبَت هذه المقالات في أَوْقات مُخْتَلِفة وظُروف مُتَباينَة، وهي تَحْمِل دروسًا مُرْتَبِطَة بالمُجْتَمع والواقِع المُعاش، أَمْلَتها التَّجارِب التي هي مِرْآة الضَّمير والعَقْل والفِكْر، ومادَّةً الأدَب والمَعْرفة، والثَّقافة المُلْتَزِمة الرّشيدَة، التي تَنْشُد أنْ تكونَ صَيْقَلاً للفَهْم والذَّاكِرَة، وتَنْويرًا للقلبِ والبصيرَة، وهِدايَةً وعِظَة،

وسَميرًا للنَّفْس وللمُحبِّين أنيسًا، وحادِيًا للأَرْواح إلى نَشْرِ الوَرْد في رياضِ السَّعْد للاسْتِجْمام والانْبِساط..

۞ وفي الختام..

أعوذ بالله أنْ أكونَ ممَّن مدَح نفْسَه فزَكَّاها، فعابَها بذلك وهَجاها، أو ممَّن أَزْرى بعقْلِه لإعْجابِه بفِعْلِه..

فقد قيل: «لا يزالُ المَرْء في فُسْحَةٍ من عقْلِه، ما لم يقُلْ شِعْرًا، أو يُصَنِّف كتابًا.. فكم من أديبٍ تتقاعَد به بداهَةُ المَقال، في كثيرٍ من الأَحْوال، فلا يَجِد من فَهْمِه مُساعفَة، ولا من عِلْمِه مُكانفَة، فيرى في العي مثل باقِل، وإنْ كان من الغَزارَة سُحْبان وائل، وقد قيل: خيْرُ الفِقْه ما حاضَرْتَ به»[1].

وقيل: لا شَيْء أَضَرَّ بالإنسان من رِضاه عن نفْسِه، فإنَّه إذا رضِيَ عَنْها اكْتَفى باليَسير، فعابَه كلُّ خَطير[2].

وقال المتنبي:

ومَــن جــهِــلَــت نــفــســه قَــدْرَه
رأى غــيْــرُه مــنْــه مــا لا يَــرى

فلا يسْلَم إنسانٌ من خُلقٍ ذَميم، أو سَقْطةٍ من سَقطاتِ اللِّسان والأَقْلام، ولا يَتنزَّه عن زَلَّةٍ أو نِسْيان، ولا يَسْلم من غَفْلةٍ تَعْتريه، أو ذَنْبٍ بثَوْبِه لَصيق، كما لا يَسْلم الرَّوْض

(1) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: 1/7 ـ 8.
(2) المصدر نفسه: 1/19.

المِعْطار، من انْتِشار الذُّباب والرَّوائح الكريهَة..

ولكنَّ الإقْدام بعد اتِّضاحِ المَسالِك، وحُسْنِ الغايات والمَقاصِد هو واجِب، والصَّدْع بالحقِّ مع فضيلَة العَقْل والأدَب هو خَيْر المَواهِب، والأَخْذُ بالعَزيمة مع الحَزْمِ والرُّشْد رجاحَةُ عَقْلٍ، وسَدادُ رَأْي..

قال الشاعر:

ليست تكون عَزيمة ما لم يَكُن
معها من الرَّأي المشيد رافِع

ومن اسْتخار ربَّه في أَمْرِه، وأَجْهدَ رأْيَه واسْتَقْبَل وُجوهَ الآراء، فقد قَضى ما عليه وأَمِن المَلامَة، ولَزِمَه الإقْدام والمُناجَزَة، لا الإبْطاء والإحْجام والمُحاجَزَة..

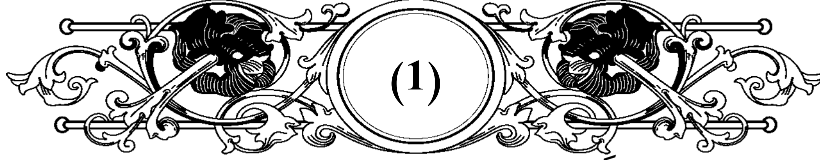
فقد قيل: من لم يُقَدِّمه حَزْمُه أَخَّرَه عَجْزُه[1].

وقد قيل: أَحْزَم الناس من إذا وضَح له الأَمْر صدَع فيه[2].

وقيل: انْتهِزْ الفُرْصَة قبل أن تعودَ غصَّة الافْتِراص اقْتِناص[3].



(1) المصدر نفسه: 1/ 21.
(2) المصدر نفسه: 1/ 24.
(3) المصدر نفسه: 1/ 27.



لذَّة الإيمان وشَهْدُ الحياة

إنَّ الحياة بلا أَهْداف نبيلة وغاياتٍ عَظيمة هي أَشْبَه بالمَوْت، وإنَّ الثَّباتَ على الجُمود وانْحِسار ذاك الدَّبيب والحَركَة الباعِثَة لفَوْرَة النَّشاط والجِد هي أَشْبَه بالإصابَة بالشَّلَل الحَركي، وإنَّ الإنسان الذي لا يَحْمِل بداخِله رِسالَةً نَبيلة، يَحْيا لأَجْلِ تَحْقيق أَهْدافِها، ويوقِف أَنْفَس ساعاتِه لخِدْمَتها، هو إنسانٌ أَشْبَه بالميِّت من الأَحْياء، وهو إنسانٌ هَمَلٌ مَتْروك وليس له أَثرٌ يُذْكَر، ولا بَصْمَةٌ تُخَلِّد وَشْمَه على الذَّاكرة وتاريخِ الأمَّة الحافِل بالأَمْجاد، وهو إنسانٌ مَغْمورٌ في مُحيطِه الضيِّق وواقعِه المُظْلِم، وخامِلٌ في عَطائِه وإِنْتاجِه الثَّقافي والمِهَني، تَتجاذَبُه النَّزَعات والإِغْراءات والمَطامِع، فتَسْلَخُه عن فِطْرتِه وطَبيعَتِه، وتُحَوِّلُه إلى مَسْخٍ إنساني..

أما الإنسانُ المؤمن فيَصْنَع بَريقَ سَعادتِه حين يوقِد بداخِله فَتيلَ النُّور الإيماني، ويُثْبِت وُجودَه بالكلمَة التي يَنْطِقُها ويُبَلِّغُها، وبالعَمل الذي يُسَخِّر له جَوارِحَه، فيَسْعى في الأرض بفِكْرَةٍ رائِدَة، تَشُقُّ طريقَها لتُخَلِّد أَثرَها الطيِّب وامْتِدادَ فُروعِها..

إيمانُك هو مِصْباح قَلْبِك..

فمتى انْطَفأ نورُ إيمانِك السَّاطِع بداخِلك، صارَت روحُك مُعتَّمَة تَعيشُ الضَّنَك والشدَّة، مِصْداقًا لقَوْل الحَقِّ سُبْحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1]..

فليس العَمى هو ذاك السَّواد الذي يُحيط بمَنْ حُجِب عنهم الإبْصار، فالقلوبُ تُبْصِر النُّور وإنْ اخْتَبأ في سُرجِ الظَّلام، إنَّما العَمى الحَقيقي هو ذاك السَّواد الذي يَغْشى القُلوبَ حين تجِفُّ مَجاريها من مَصبَّات الإيمان، ويَنْطَفِئ في مَآقيها أنْوارُه السَّاطِعات، وتَخْرَس تَغاريدُه الصَّادِحات، وقد أَرْشَدنا الحَقُّ سُبْحانَه إلى هذه العِبَر والعِظات فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾[2]..



إيمانُك يَدْفَعُك إلى غايةٍ أَسْمى ..

فأنتَ لا تَسْتمِدُّ قيمتَك الحَقيقِيَّة ممَّن حَوْلَك من العَبيد

(1) سورة طه: الآية 124.

(2) سورة الحج: الآية 46.

الفُقَراء، لأنَّهم لا يَمْلِكون أَكْثَر ممَّا تَمْلِكُه، وما جُمِع بين أَيْديهم هي هِباتٌ من الله، ونِعَمٌ مُهْداةٌ إليهم من المُنْعِم عليهم بذاك النَّوال والعَطاء، وما أَدْركوه من الدُّنْيا الفانِيَة لا يَتعَدَّى نُقْطَةً من بَحْرِ عِلْمِه الواسِع..

فاجْعَل إيمانَك يَرْفعُك إلى القمَّة، ويَدْفَعُك إلى طَلبِ المَعالي، وبُلوغِ الغاياتِ الأسْمى، واجْعَل إيمانَك يَحُثُّك على المُجاهدَة في سباقِ الطَّاعات، وفي رِحْلَة الفَلاح والفَوْز بالجنَّة مع الزُّمْرَة الأولى، التي تَوحَّدَت قُلوبها وغاياتُها بوَحْدةِ الإيمان، واشْتَدَّ وِثاقُها برِباطِه المَتين، وتدَثَّرَت بدِثارِ نورِه وجَلاله..

واجْعَلْ إيمانَك يَسْمو بك عن سَفاسِف الأُمور، وأَوْشالِ الحُظوظ وأَخَسِّ الرَّغَبات، ويَرْفعُك عن كلِّ خَصْلَةٍ مَذْمُومَة، تَخْلعُ عنك هَيْبَتَك ووَقارك..

واجْعَلْ إيمانَك يَرْتَقي بك قِمَم المَجْد والرِّفْعَة، فيَصْغُر العالَم بأَجْزائِه الكثيفَة في مُحيطِ بصَرِك وقَلْبِك العامِر بالإيمان، ويتَلاشى كبُقْعَةٍ صغيرة قد جَرفَت إلى القاع ما اسْودَّ وانْحَطَّ من الغايات، وغَرسَتْ في أَرْضِها القاحِلَة الجَرْداء أَدْنِياءَ العَبيد، فتَلوَّنوا بأَلْوانِها الجافَّة فتصَحَّرت مَشاعِرهُم وتَيبَّسَت، وأَطاحَت بهم الأَفْكار والمَذاهِب المُنْحَرِفَة فتَجَرَّدوا عن صِفاتهِم البَشريَّة، وخَلعوا عنهم جِلْد إِنْسانِيَّتهم النَّاعِم ولَبِسوا للحياةِ المادِّية لِباسَ أَهْلِ الصَّوْلَة والخلاعَة، بعد أَنْ شَبُّوا عن الطَّوْق وصار الحُكْم فيهم فريسَة القَويِّ المُسْتَأْسِد..



إيمانُك يهَبُك الحُرِّية والحياةَ المُضاعفَة..

فالإنْسانُ المؤمن يجِد سعادَته في لذَّة العُبودِيَّة، تَسْري إلى قَلْبِه سريانَ الدِّفْء المُنْبَعِث من الشَّمْس أَوَّل ظُهورِها، بذاك الصَّفاء والنَّقاء والإِشْراق الإيماني، فيُصْبِح له كَيانٌ شامِخ ووُجودٌ يَتمثَّل الحُرِّية المُرْتبِطَة بقُوَّة التَّوحيد، في أَنْفاسِه وخَلجاتِه، وفي تلك العَيْن التي تَتأمَّل وتَتدبَّر، وفي تلك البَصيرة التي تَكْشِف له حَقيقة الأَشْياء ومعانيها، وتلك الحَواس التي تَحَرَّرت من كلِّ عُبودِيَّةٍ لغَيْر الله، فصارَ التَّوحيد لها مَنْهجًا وطَريقًا ومَعالم مُضيئَة تُحَدِّد غاياتها..

أما الإِنْسان الذي يجِد سعادتَه في الحياة المُنَعَّمة بنَعيم المَلذَّات الفانِيَة فهي سعادَةٌ مُؤَقَّتَة، تُلَبِّي نِداءَ الرَّغَبات ومَطامِح النَّفس التي لا تَقْنَع إلا ببُلوغ ما لا يسَعُ العُمْرَ بُلوغَه، وتُلْقي بالإِنْسان في مَراتِع الشَّقاء، وتُغْرِقُه في بَحْر الشَّهَوات، لتَتجاذَبه أَمْواجُ الفِتَن من كلِّ اتِّجاه، ويُرْهِقه الإِشْباعُ الزَّائِد عن حَدِّ الاحْتِياج، فتَنْصَرِف روحُه عن السُّمُو والارْتِقاء..

فما أَجْمَل أن يَمْتلِك الإِنْسان حَياةً مُضاعفَة، يُنيرها سِراجُ المَعْرِفَة والإيمان، فلا تَبْرُد جَذْوَة المعاني العزيزَة في قَلْبِه، ولا يَنْقطِع رِباطُه بالقِيَم الإِنْسانِيَّة والفِكْرِيَّة العَظيمة، ولا تَضْعف قيمَتُها النَّفيسَة في ميزان الإيمان، وإنْ كانت خامِلَة الذِّكْر في ميزان المادَّة والحِساب.



إيمانُك يَغْمرُك بالنَّعيم ما دُمْتَ مَوْصولاً بقُرْبِه وكفايَتِه

فحين تكون بمَعِيَّةِ الله تَأْنَس وتسْعَد، وحين تكون بصُحْبَتِه تَشُقُّ دُروبَ الطَّاعَة حتى تَرْضى وتنالَ ما شِئْتَ وأَكْثَر، ويَغْمرُك النَّعيم ما دُمْتَ مَوْصولاً بقُرْبِه، ومُسْتَغْنِيًا برعايَتِه وكفايَتِه، فلا يَحْلو لك مَجْلِسٌ إلا مَجْلِسُه، ولا تَتَلذَّذ إلا بأُنْسِه وقُرْبِه، ولا يَفْتَر لسانُك يلْهَج نَشْوانًا بذِكْر مَنْ ملَكَ قلبَك وفُؤادَك، واسْتَحْوَذ على خَلجاتِك وأَنْفاسِك، فتتمثَّل قَوْله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[1].

وقَوْله عَزَّ وجَل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]..

وهذا الشُّعور الفَريد يَدْعوكَ لسُلوكِ سبُل الاهْتِداء بمَعِيَّةِ الله، والاسْتِغْناء عن سُلوكِ سبُلِ الأَهْواء، أو الانْجِراف وراءَ ما يُغْريك فتضَلَّ وتشْقى، وهذه المَعْرِفَة تَرْفَعُك إلى بُلوغ مَقاماتِ الذَّاكِرين الله كثيرًا، ممَّن اسْتَحقُّوا أنْ يكونوا في زُمْرَة أهل الله وخاصَّتِه، كما جاء في الحديث القُدْسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ**

(1) سورة البقرة: الآية 115.

(2) سورة الحديد: الآية 4.

بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»..

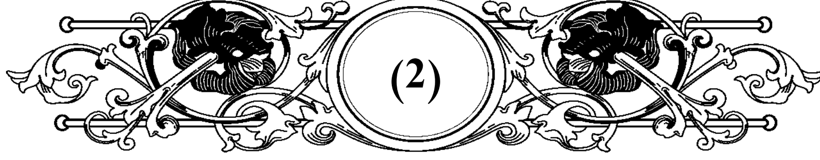
وهذه المَعْرِفَة تَرْفَعُك إلى مَقاماتٍ عُلْيا في الاهْتِداء، وتَصْعَد بك إلى مَدارِج السَّالكين طريقَ الاقْتِداء، واتِّباع ما كان عليه حالُ الرُّسُل والأَنْبياء، فهذا نبيُّ الله موسى عليه السَّلام يقول لبَني إسرائيل: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾[1] وهذا حال خاتِم الأَنْبياء والمُرْسَلين محمد ﷺ، لمَّا كان في الغار مع أبي بكر رضي الله عنه قال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[2]..

وهذه المَعْرِفَة تَجْعَل وُجودَك يَكْتَمِل بوُجودِ مَنْ معَك، ولو كان وُجـودًا كئيبًا يصيبُك بسِهام الضَّجَـر، فتُطْلِق قُيودَك كي تَتنفَّسَ الحياة على رَحابَتِها واتِّساعِها، ولا تخْتَنِق في مُحيطٍ ضَيِّق، ورُكنٍ قَصِي يَجْعلُك تَشْعُر بالاغْتِراب، فأَنْفاسُك شَهيقٌ وزَفيرٌ ومَزيجٌ مُتَناغِمُ الإِطْراب، وتَغْريدٌ صادِحُ النَّبَضات في شِرْيانِ قلبِك الهزَّاز..



(1) سورة الشعراء: الآية 62.

(2) سورة التوبة: الآية 40.



(2)

لساننا العربي

لقد تفرَّد اللِّسان العَربي بخِلالٍ كثيرة، فسَبَر أَغْوارَ النَّفس والخَبايا، وما انْطَوت عليه أَسْرارُها على اتِّساع نَزعاتِها وحاجاتِها، فصَوَّر إِحْساسَها بلُغَةٍ غَزيرة الأَلْوان، تَلِج بَواطِن الأَشْياء وتَتعمَّق في دفائِنِها، وتَكْشِف عن أَدَقِّ مَعانيها بإِرادَةٍ دَؤوبَة، لتَحْصيل المَعْرِفَة التي تُمَهِّد السَّبيل للترقِّي بالفَضائِل، امْتِثالاً للمَشيئة الإلهِيَّة التي تهيبُ بالإِنْسانِيَّة لتعَلُّم البَيان، وتَقْويم اللِّسان لاسْتِنباط خَصائِص الإِعْجاز القرآني، والتَّدَبُّر في مَعانيه العَظيمة، ولتَسْتَضيئ النَّفْس بأَنْوارِ كَمالِه وجَلالِه، وجاذِبيَّة بَلاغَتِه، وبراعَة تَفْصيلِه، وقُوَّة إيضاحِه..

وقد أَثْنى القرآن الكريم على هذا اللِّسان العَربي، وعلى إِتْقان البَيان في آياتٍ كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿16﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿17﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿18﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿19﴾﴾[1]

---

(1) سورة القيامة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾[6]. . .

ففي هذه الآيات دَلالةٌ جَلِيَّة على ما يتحَلَّى به الِّلسان العَربي مِنْ حَلاوة، يَتذَوَّقُها الحِس فيَهْتَزُّ لها الوِجْدان، ويَتذوَّقُها العَقْل فيَتفكَّر ويَتدبَّر، وتَتذوَّقُها الرُّوح فتَتَحرَّر مِنْ قُيود الشَّك والحَيْرة، وطَلاسِم الإِبْهام. .

(1) سورة يوسف: الآية 2.
(2) سورة النحل: الآية 103.
(3) سورة طه: الآية 113.
(4) سورة الشعراء.
(5) سورة الزمر.
(6) سورة الأحقاف: الاية 12.

1 ـ الفصاحَة والبلاغَة مَوْصولة بحُسْن المَقْصِد

إنَّ الكلمَة العَربيَّة الفَصيحة كالقَطْرة النَّدِيَّة، تَسْقي العُقولَ كما الزُّهور فتَتفتَّح وتَنْثُر شَذاها، والفَصاحَة وبَلاغَة المَنْطِق قد أَنْعَم الله بهما على من اصْطَفاهُم بخَلابةِ اللِّسان، والقُدْرَة الفائِقَة على الفَهْم والإِفْهام، ومَنْ مَلكوا صَفاءَ السَّريرَة ونورَ البَصيرة، فدانَت لهم أَسْبابُ الكَشْف عن المعنى، وإِظْهار المَقْصود بأَبْلَغ لَفْظٍ، وأَجْزَل عِبارَة، وأَقْوَم حُجَّة، مِصْداقًا لقَوْله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[1].

وما روى ابنُ عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنّ من البيان لسِحْراً وإنّ من الشِّعر لحكماً**»[2]. .

والبَيان إذا حَسُنَ مَقْصِدُه أَجْلى الحِجاب عن البَصيرة، فامْتَدَّ نورُها صافِيًا وأماطَ اللِّثام عن البصَر واسْتَمالَ القَلْب، وكشفَ الحقيقة تِبْيانًا ودَليلاً. .

(1) سورة الرحمن.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (5146) و(5767) بلفظ: «**إن مِنَ البيانِ لسِحرًا**» برواية عبدالله بن عمر، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (5787) بلفظ: «**إنَّ مِن البيانِ سِحرًا وإنَّ مِن الشِّعرِ حُكْمًا**» برواية عبدالله بن عباس، وأخرجه أبو داود في سننه (5012) عن بريدة بن حصيب الأسلمي بلفظ: «**إن من البيان سحراً وإن من العلم جهلاً وإن من الشعر حكماً وإن من القول عيالاً**».

والبَيان صِنْفان اثْنان، كما ذكَر الإمام العَلَّامَة والحافِظ اللُّغَوي أبو سليمان حمد الخطابي: «أحدهما: ما تقَعُ به الإبانَة عن المُراد بأيِّ وجهٍ كان، والآخر: ما دخَلته الصَّنعة بحيث يروقُ للسَّامِعين ويستميل قلوبهم، وهو الذي يشبَّه بالسِّحر إذا خَلَب القلب، وغَلب على النَّفس حتى يحول الشَّيء عن حقيقتِه ويصْرِفَه عن جِهَتِه، فيلوح للنَّاظِر في معرض غيره، وهذا إذا صرف إلى الحقِّ يُمْدَح، وإذا صرف إلى الباطِل يُذَم»[1].

كما قال المناوي في شرحه لحديث «**وإنّ من الشِّعر لحكماً**»[2]: «وإنما أكَّد بـ(أن واللام) ردًّا على من أَطْلق كراهَةَ الشِّعر، فأشار إلى أنَّ حَسَنه حَسَن وقَبيحَه قَبيح، وكل كلام ذي وجهين يختلِف باختلافِ المقاصِد»[3].



(1) صحيح البخاري، كتاب الطب: «باب إن من البيان سحراً».

(2) قال المناوي في شرح الجامع الصغير في قوله ﷺ: «**إن من الشعر لحكمة**»: «وعند أبي داود حكماً بضم الحاء المهملة وسكون الكاف، وفي بعض الروايات باللام لحكماً، وجوز في حكماً كسر الحاء المهملة وفتح الكاف جمع حكمة «نقلاً عن غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب» لمحمد بن أحمد السفراييني: ص 186.

(3) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب/لمحمد بن أحمد السفراييني ـ مؤسسة قرطبة: ط. الثانية (1414هـ ـ 1993م): ص 186.

2 ـ البَيان.. لا يَسْتقيم في كلِّ حال

كما أنَّ الثُّرَيَّا لا يُظْفَر بها في الثَّرى، كذلك الفَصاحَة والبَلاغَة لا تُؤْخَذ قَسْرًا، والسَّالكون في طَريقِها لا يَكْفيهِم أنْ يُؤْمِنوا بأَهْدافهِم، ويُقَصِّروا في الجِدِّ والتَّحْصيل، والمُداومَة على الطَّلَب، بل لا بدَّ لهم من تَعْبيدِ الطَّريق الموصِل إلى تَحْقيقِ غاياتهِم النَّبيلَة، وشَحْذِ هِمَّتهِم العالِيَة وبَعْثِ نَشاطهِم، والسَّيْر الدَّؤوب على هُدى وبَصيرة، لأنَّ نورَ البصَر مَحْدود ولا يَثْبُت على حالِ القُوَّة، فقد يوهِم الرَّائي والسَّالِك بإيحاءاتٍ هي من ضَرْب الخَيال..

۞ أ ـ لا يملك لسان الكاتب ناصِيَةَ الأدَب في كلِّ حالاته:

فهو يَتقلَّب بين المِنْحَة والمِحْنة، ويَتلوَّن بأَلْوانِ الفَرح والحُزْن، وله ظُهورٌ وأُفول، ونُبوغٌ وفُتور، ونَشاطٌ وخُمول، وإِشْراقٌ وغُروب..

وله هُطولٌ تُشيع الخَيْر والنَّفْع، فيكون صيِّبًا نافِعًا ومُنْهَمِرًا مُتَدَفِّقاً، يَحْمِل معَه السِّقاءَ العذْب، فيَرْوي القُلوبَ الكالِحَة، ويُرَطِّب النُّفوسَ العَليلة، ويُسَكِّن الآلامَ والأَوْجاع، ويُشيع الطُّمَأْنينَة، ويَنْشُر الأمانَ والسَّلام..

وله هُطولٌ تَفْتَلِع كلَّ غَضٍّ رَطْب، وتجْتَث كلَّ أَخْضرٍ ويابِس، وتُغْرِق النَّفس في غَيباتِ الجَهالة، فيُصيبها الجُمود

والكسَل، حتى توشِك أنْ تنامَ نَوْمةَ أَهْلِ الكَهْف، ويصير بينها وبين واقعِها حجُبٌ كِثاف تُقْعِدُها، وتَخالُها قد سَرى إليها المَوْت حَثيثًا فأَقْبرَها..

۞ ب ـ اللِّسان له سرعةٌ وأناة..

فاللِّسان إمَّا أن يَنْطِق بالكلمَة فيُرْسِلَها إرْسالاً، أو يُطْلِقَها إطْلاقَ السَّهْم يُصيب الهَدف، فتَنْجَلي المَعْرِفَة انْجِلاءَ الصُّبْح البَهيج، وتَميلُ القُلوب إلى مقالَتِه مَيْلةً واحِدَة، وتُصَدِّق حِكْمتَه البليغَة تمامَ التَّصْديق، وتتَلقَّى خِطابَه بالبِشْر والتَّرْحيب، توَدُّ لو أنَّ بينَها وبينَه أمَدًا بعيدًا حتى يطولَ الحديث، وتَسْتوْفي منه الحجَّة والدَّليل، والمَزيد مِنَ الكَشْفِ والتَّحْليل..

وإمَّا أنْ يَنْطِق اللِّسان بالكلمَة فلا يُظْهِرَها، لحُبْسَةٍ أو عُقْدَةٍ تُصيبه، أو لتَلجْلُجٍ يَلْحَقُه عند التَّعْبير والإفْصاح، فتَضيق به النَّفْس ولا يتَّسِع له الصَّدْر، ويصُدُّ عنه السَّمْع والفَهْم لغُموضِ المَعْنى وانْغِلاقه..

فالنُّطْقُ بالكلمَة فَنٌّ عَزيزُ المَذْهب، جَمُّ الفَوائِد وغَزيرُ المَنافِع، وشَريفُ الغاياتِ والمَقاصِد، لهذا يَسْتحِقّ الحِذْقَ في فَنِّه والإجادَة في أدائِه، وأنْ يُصانَ بلِجام الرَّوِيَّة والأَناة..



3 - خوارِمُ البَيان . .

إنّ اللِّسان له خَوارِم، فقد يَناله العَوَرُ في مَوْطِن ما تَشْتهيه النَّفس من مَليحِ الكَلام، لأنَّ غايتَه زَرْعُ الشِّقاق والنِّفاق، أو يُخالِطَه التَّكَلُّف والتَّزَيُّد، أو يُمازِجَه الإِسْهاب، فيَتعذَّر عليه الإِبانَة والإِفْصاح، كباكٍ بأَجْفانِ شادِنٍ أو ناطِقٍ مِكْثار، يَطْلُب تَمامَ الحُسْنِ فيُدْرِكه النِّسْيان والنُّقْصان، وقد نبَّه إلى هذا العَوَر حديث أَبي أُمامة الباهلي الذي رواه عن النبي ﷺ فقال: «**الحياءُ والعِيُّ شُعْبتان من الإيمانِ، والبَذاءُ والبيان شُعْبتانِ من النِّفاق**»[1] . .

ويكونُ البَيان مَذْمومًا إذا خالطَه العُجْب والكِبْر، وأَخذَتْه هالَةُ الجَلال والعَظَمة، فانْجَرف صاحِبُه خَلْف مَوْجَةِ التَّنافُس المَقيت، وأَغْرَق في إِظْهار البراعَة والإِتْقان، فصارَ يَنْشُد التقَدُّم والتمَيُّز على لِدَّاتِه والنُّظَراء، حتى لا يُدْرِكوا مَقامَه ولا يَبْلغوا شَأْوَه ومَرامَه، ويُغالي في التَّرْصيع والصِّناعَة البَديعِيَّة، مُتَكلِّفًا في تَحْسينِ الكَلام وتَحْبير الأَلْفاظ، ومُتَعَلِّقًا برِتاج الأدَب كتَعلُّقِ العاشِق الوَلْهان، مَنْ سلبَه سِحْرُ الجَمال فهامَ على وَجْهِه ومال،

(1) أخرجه الترمذي في سننه (2027) وخلاصة حكمه: حسن غريب/وقال عنه محمد المناوي في كشف المناهج والتناقيح في تخريج أحاديث المصابيح (4/227) في خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيحين، وقال عنه الشيخ الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (4725) في خلاصة حكم المحدث: صحيح على شرط الشيخان...

وأَناخَ براحِلَتِه حيثُ الهَوى أَناخ، فصَرفَه ذاك الانْجِذابُ عن مَعْرِفة الحقِّ والعَملِ به، وصَدَّه عن إِظْهار المعنى على حَقيقتِه..

يُحاكي الغَرابة تَعسُّفًا كمُحاكاتِه للتَّقْليد في كلِّ حالاتِه، ويُلْقى الكَلام على عجَل، فلا يكادُ يَسْتقِرُّ في الصَّدْر حتى يَلْفِظَه ويَزْدَريه، ولا تَرِفُّ له المَشاعِر إلا بقَدْرِ ما يُخالِطُها من شِرْبِه النَّتِن، الذي أَفْسَد أَلْسُنًا ما لهنَّ أَفْواه، وأَفْواهًا ما لهنَّ أَلْسُن..

ويكونُ البَيان مَذْمومًا إذا تَلوَّن بغَيْر أَلْوانِ الطَّبيعَة، أو تَوَشَّح بغير وِشاحِها المُزْهِر، أو كان مَطِيَّةً لبُلوغِ مَطْمع زائِل، أو كان الاشْتِغال به سَببًا للمَجْد والشُّهْرَة..

ويكونُ البَيان مَذْمومًا إذا تَحكَّمت فيه الغَرابة والعُجْمَة، كما تَحكَّمت في حياتنا مَظاهِرُ المَدنِيَّة المُنْحَرِفَة والحَضارة الأَجْنبيَّة، فلازمَنا الشُّعور بالإِخْفاق والانْحِطاط، والوَلَع والتِّيه بما لدى الغالِب من أَسْباب القُوَّة والتَّقدم، حتى صارت أَقْلامُنا مَمْدودَةً نحو الغَرْب تَنْشُد مَدائِحَه، انْبِهارًا بجاذِبيَّة قُوَّتِه الغالِبَة والظَّافِرَة، التي لَوَّثَتْ اللِّسان العَربي بالشَّوائِب، وأصابَتْه بسِهامِها المَسْمومَة، كما أصابَت كفَّ الإسلام وما هو من صَميمِ الثَّقافة والعُروبَة..



4 ـ اللِّسان العَربي الأَصيل وواجِب التَّكليف

لا يَمْلِك اللِّسان العَربي أنْ يُعيدَ أَمْجادَه ويُدْرِك غاياته الجَليلة، إلا بامْتِلاك الحُرِّية المُلْتَزِمَة في التَّعْبير، الذي يَنْفُذ إلى قَلْبِ الحَقيقة، ويَمْتَزِج بجَوْهرِها الصَّافي، وأنْ يكونَ أَبِيًّا فَخورًا بأَصْلِه الأَصيل ومَعْدنِه النَّفيس، فلا يَسْتعين بقبَسٍ مُسْتعار لتَأَلُّقِه وإبْداعِه، ولا يَسْتَجْدي فَتيلاً موقَدًا من بَريقِ حَضارةٍ أجنَبِيَّة، أو ثَقافةٍ غربيَّة أو دَخيلَة. .

فالقَلْب إذا كان أَجْوفًا خَلاءً من مُحْتَواه اللَّطيف، شَغَلَتْه الأَهْواء عن الجِدِّ في السَّيْر ومُواصَلة التَّحْصيل، فاسْتَعْصى على اللِّسان البَيان، واتَّسَع لدَيْه الرَّقْع والخَلَل والغُموض والإبْهام، وأَفْسَدته رِياحُ الغَرْب والاسْتِلاب. .

فالعُقول إذا صَدَّت عن ثَقافَتِها، يَنْدُر أنْ تُقْبِل على ما يوقِظ فيها النَّخْوَة، أو الانْجِذاب إلى أَفْكارِها ونَوادرِها، ولَطائِفِها وطَرائفِها، ويَواقيتِ مَعانيها. .

والنفس إذا لم تَكُن ذات كرامة وإباء، واعْتِزاز وافْتِخار بهُويَّتِها وجُذورِها، أَنْجبَت أَقْلامًا تَنْشَأ على الاعْوِجاج، وأَنْتجَت مَواهِب لا تَسْتقِيم على عودِها البان، ولا تَتجلَّى فيها المَلكات العِظام. .

والطُّموح إذا لم يُحَرِّك فَتيل المعاني، طَأْطَأت الأَقْلام رُؤوَسها في خُنوع وامْتِهان، وأَهابَت بسُلْطانِها عن خَوْضِ مَعارِك

الإِبْداع، وتَخلَّفت عن ميادين الأدَب والاجْتِماع، وناءَت عن قيادَةِ كَتائِب الفِكْرِ والبَيان...



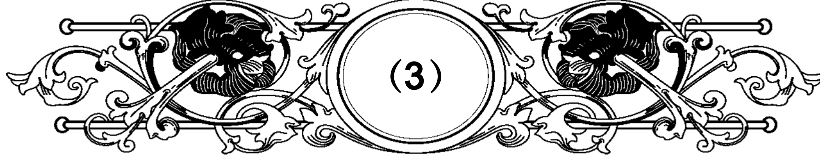
5 ـ اللِّسان العربي الأصيل له رِسالةٌ نبيلة

يَنْبَغي أن يَتحرَّك اللِّسان العَربي بفِكْرةٍ رائِدَة، لها قُوَّة لا تَضْعُف أمام بَطْشِ الباطِل، ويَسْتَبْصِر بمَعْرفة لا تَنْطَفِئ ولا تَسْتَكين، ويَحْمِل إيمانًا لا تَكْسِرُه شَوْكة التَّعَصُّب والخِذْلان، وله رِفْعَةٌ ووَقارٌ يَسْمو به عن السُّقوط والابْتِذال، ويَنْدَفِع بعَقْلٍ رَشيد، وشُعورٍ يُداعِب الأَماني والأَشْواق، ويَجْذِب إلى بَريقِه العُيونَ والأَنْظار، وتُصْغي الآذانُ إلى حُسْنِ مَنْطقِه في انْدِهاشٍ وانْبِهار..

كما يَنْبَغي تَوْحيد الأَقْلام العَربِيَّة والنُّهوض برِسالَتِها، فهذا من شَأْنِه أنْ يُساهِم في الارْتِقاء بالأدَب والثَّقافة، والاضْطِلاع بواجبِه في إيقاظِ الضَّمير الإِنْساني، وَبَعْثِ صَحْوة التَّجْديد في الدِّين، ومَجالاتِ الحياة على اخْتِلاف فُروعِها، بما يَنْسجِم مع الواقِع واحْتِياجات العَصْر، ويُساهِم في تَخْريجِ أَجْيالِ المُسْتقبل، وتَقْويم سُلوكِ النَّشْء، وتَثْقيف أبناء أمَّة «إقرأ» بثَقافةٍ عَربيَّة وإِسْلامِيَّة، تَتحدَّى كلَّ مَنْ يَتطفَّل على أُصولِها أو يَتسلَّق على فُروعِها، أو يُحاوِل أن يَجْتثَّ هُوِيَّتها من الجِذْر والمَنْبت..

وطَريقُ الارْتِقاء باللِّسان العَربي، لا تُعَبِّدُه كَثْرةُ الخُطى ولا مَدُّ الأَرْجُل، بل تُعَبِّده القُلوب المؤمِنَة برسالتها، والهِمَم العامِلَة التي تَبُثُّ النَّشاط في المَفاصِل المُفَكَّكة، وتُحَرِّك في الشِّرْيان نَبْضَ الهَدف، وتَسْمو بالتَّفْكير والفَهْم، وتُعَبِّده الإرادَة القَويَّة التي تَعْرِف ما تُريده، فلا يُثْنيها العَجْز ولا الكسَل، حتى تَسير برَكْبِ الإِنْسانِيَّة المُتَجدِّدَة نحْوَ الرُّقِي، بعَزْم لا الْتِواءَ فيه ولا انْحِراف، وتَسْتمِر دَوْرة الإِبْداع في التَّأْثير في الحاضِر والمُسْتقبل..





(3) مصابيح الأقلام

إنَّ القَلم مَنارَةُ الأُمَم وسِلاحُها، وصَمّامُ الأَمان وعُنْوان وَحْدتِها، ولمَكانتِه العَظيمة أَقْسَم الله به فقال تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾[1]، تشريفًا لحامِله وإِلْزامًا بحِفْظِ أمانَتِه، وتَكْليفًا بالصِّدْق في تَبْليغ رِسالَتِه، والاضْطِلاع بدَعْوة الإسلام الشَّريفَة والنُّهوضِ بواجِب الاسْتِخلاف، وتَمْكينًا لشَريعة الله في الأرض..



1 ـ الأقلام هي روح الصِّدْق والأَمانة

إنَّ أقلامَ الأَمْجاد هي روحُ الصِّدْق والإِخْلاص، ولها رِسالَةٌ نَبيلة وقيمَة وفَضيلة، وتاريخٌ مَنْقوش على جَبينِ الحياة،

(1) سورة القلم.

يُخَلِّد ما تَحْمِلُه من مَعانٍ حِسان وألفاظٍ عِذاب، وأُسْلوبٍ رشيق لا يَغيبُ عن سُطورِ الذَّاكرة والتاريخ..

ولا تكون الأَقْلام صانِعَةً للأَمْجاد، إلا إذا جاهدَت في الله حَقَّ الجِهاد، اقْتِداءً بمَنْحى النبي ﷺ في الدَّعْوَة والتَّبْليغ، وحِفْظ الأَمانة العُظْمى، وأَخْلصَت في أَداءِ الحَقِّ والواجِب المَنوطِ بها..

ولا يَتحَقَّق الإِخْلاص إلا إذا تَحَرَّى الكاتِب الصِّدْق في كتاباتِه، والأَمانَة في نَشْرِ أَفْكارِه على مَنْهجٍ واضِح المَعالِم، وقَواعِد بَيِّنَة الآثار والرَّواسِم، وبذَل أَقْصى جُهْده في أَداءِ واجِب التَّكْليف والرِّعايَة، الْتِزامًا بأَمانة الكلمَة التي أَخذَها على عاتِقه وحَملها طاعَةً لخالقِه، مِصْداقًا لقَوْل الحَقِّ سُبْحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1]..

ولا يَتحقَّق الإِخْلاص إلا إذا تَحَرَّى الكاتِب النَّزاهَة في تَبْليغ أَفْكارِه، ووَجَّهَها لخِدْمَة الغاياتِ العظيمَة، والارْتِقاء بالعَقْل والفِكْر والحِس والوِجْدان، وجَدَّ واجْتهَد في إِثارَة الدَّعْوَة المُسْتَنيرة، ودَفَع الباطِل بالدَّليل القاطِع، وقُوَّة المَنْطِق ونُفوذِ الحُجَّة، وأَخَذ بالبَيِّنات والنَّظَريات العِلْميَّة السَّديدَة، ورَدَّ الشُّبُهات والمُحَرَّمات طاعَةً لله ورَسولِه ﷺ، وإِذْعانًا لقَوْل الحَقِّ سُبْحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ

(1) سورة الأحزاب: الآية 72.

لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[1] . .



2 ـ الأقلام.. قناديل نورانِيَّة

إنَّ أَقْلام الأَمْجاد هي قَناديل نورانِيَّة تَنْشُر السَّلام والعَدْل، وتَصونُ العِرْض والشَّرَف، وتَسْمو بالقِيَم والأَخْلاق، وتُشِيع العُلومَ والمَعارِف، وتَمْلأ القُلوب والعُقول بمَشارِق الأَنْوار، وتُلْبِس النُّفوسَ حُلَلاً قَشيبَة من الحُسْن والجَمال. .

ولو تَدبَّر الكاتِب معاني ومَقاصِد وُجودِه في هذه الحياة، لأَدْرَك بفَهْمِه العَميق مَعْنى الالْتِزام بمَسْؤولِيَّة رِعايَة القَلم، وأنَّ هذا الالْتِزام ليس قَيْدًا لحُرِّيتِه في التَّعْبير، بل هو تَنْظيمٌ لمَنْهجِه في الكتابة النَّاجِحَة، وَفْق الحُدود التي تَضْمَن له شُروطَ السَّلامة والصِّيانَة، والالْتِزام بمَنْهَج الاتِّباع والاقْتِداء في تَبْليغ الحَقِّ والإِبانَة، لتَبْليغ دَعْوَتِه بتجَرُّد ونَزاهَة، وفَهْم أصيل لرسالَتِه وعِظَم مَسْؤوليَّتِها، فيَتزَوَّد لها بطاقَةٍ تَحُثُّ قلمَه على المُضِي في طَريقِ الاسْتِقامَة، والسَّعْي لامْتِلاك زِمام أَمْرِه، والانْتِصار على هَواه وغَيِّه، لتَخْليد كلمَةٍ طَيِّبَة وعِلْم نافِع، يُذْكَرُ به في عِلِّيين وبين الخَلائِق. .

(1) سورة الأحزاب.

وهذا الشُّعور بالطَّاقَة المُحَرِّكَة للدَّعْوة والالْتِزام بالمَسْؤولِيَّة اتِّجاه الكلمة، هو سِرُّ نَجاح الدَّعْوة المُحَمَّدِيَّة في مُدَّةٍ قليلة «ذلك أنَّ قِلَّةً من المُشْركين أَدْركَت ما كانت تَحْمِلُه هذه الدَّعْوة في أَحْشائِها من الطَّاقَة الهائِلَة، ولم يَفْطِن إليها إلا الذين كانوا على رَصيدٍ كبير من الذَّكاء والفِطْنَة واللَّباقَة، وكانوا من أَصْحاب الذِّهْن الوَقَّاد والبَصيرة النَّافِذَة، وكانوا يَتمتَّعون بالقابِلِيَّة التي اسْتَطاعوا معها أن يَسْمُو بأَنْفُسهِم عن حمَأَة العَصبيَّات الجاهِلِيَّة، ليَعْرِفوا الحَقَّ فيُؤْمِنوا به ـ لكَوْنِه حَقًّا وصِدْقًا ـ ويتَّبِعوه في حَياتهِم الواقعِيَّة، ويقوموا برَفْع لوائِه ونَشْرِه في العالَم مَهْما غَلا الثَّمَن وعَظُمَت التَّضْحِيَّة، ولَمَّا برزَت إلى حَيِّز الوُجود جماعَة هذه سِماتُها وتلك عَزائِمُها، شَرع النَّبي ﷺ على سَواعدِها ببِناء مُجْتَمع إسلامي مَنْشود، وبعد أن تَولَّى زِمامَ دَوْلتِه الإِسْلامِيَّة المُسْتقِلَّة أخَذ يُطَبِّق على هذا المُجْتَمع ما أَوْحاه الله إليه من خُطَّةٍ إِصْلاحِيَّة للحياة الإِنْسانِيَّة، وما كان للأَوْضاع القائِمَة والظُّروف السَّائِدَة آنذاك إِزاءَ هذه الخُطَّة إلا أن تَتبدَّد بين عَشِيَّةٍ وضُحاها»(1)..

وهذا هو السَّبب الحقيقي لحُدوث تلك الثَّوْرَة الكُبْرى، التي مَلأَتْ الدُّنْيا ضِياءً وسَعادة: «فشاهَدت الدُّنْيا بأُمِّ أَعْيُنِها نَتائِجَ هذه الجُهود وصاحَتْ قائِلَة: ما أَتمَّ السَّلام في هذا المجتمع! وما أَرْسخَ قَواعِد الصَّلاح وخَشْيَة الله في قُلوبِ أَهْلِه

---

(1) بين يدي الشباب/أبو الأعلى المودودي ـ الدار السعودية للنشر، ط 1407 هـ ـ 1987م: ص 18 ـ 19.

! وما أَعمَّ ظَواهِر الصِّدْق والإيمان فيه ! وما أَطْهَر الحياة الاقْتِصادِيَّة فيه من المُعْضِلات والتَّعْقيدات والنَّقائِص ! وما أَجْمَل الحياة الاجْتِماعِيَّة فيه وأَطْهَرها من الأَوْساخ الخُلقِيَّة ! وما اسْتَطاع إزاءَ ذلك من وهَبهُم عُيونًا مُبْصِرَة أن يُنْكِروا ذلك النُّورَ السَّاطِع الذي كانوا يَرَوْنَه يَمْلأ الدُّنْيا ضِياءً وسَعادة، ولاسِيَّما أنَّهم كانوا قد خَبروا عَصْر الجاهِليَّة وجَنوْا ثِمارَها المُرَّة»[1].

ونحن اليوم في حاجَةٍ ماسَّة وضَرورةٍ مُلِحَّة إلى بَعْثِ تلك الأَقْلام النُّورانِيَّة، لتُجَدِّد المِياهَ الرَّاكِدَة في العُروق الضَّيِّقَة، وتَبْعَث ثَوْرَة على جاهِلِيَّة الأَقْلام، وتُلْجِم من يَحْمِلها بلِجام الحَقِّ والإِنْصاف، بعد أن سَقط نُخَب من الكُتَّاب في مَراتِع الفَساد الأَخْلاقي والدِّيني، وسَلكوا الدُّروبَ المُعَتَّمَة، ومالوا إلى المُنْعَطفات والمُنْعَرجات المُهْلِكَة، دون احْتِرام لعَلاماتِ التَّحْذير الحَمْراء، ولا إِشارات الانْتِباه والأَخْطار، فانْحَرف سُلوكهم في الظَّاهِر والباطِن، وغَيَّروا عاداتِهم وتَخلَّوْا عن تَقاليدهِم، وتَعَكَّرت أَقْلامهم بأَخْلاطِ الشَّوائِب والأَوْهام، وغالوا في التَّعَصُّب والخِلاف، وانْتَهجوا نمَطًا جَديدًا في السُّلوك والاتِّباع، وأَخَذوا بأَساليب جديدة في التَّفْكير والتَّحْليل كما في النَّقْد والتَّقْويم، تَخْدُم دَعْوةً جَوْفاء وغايات مُنْحَطَّة، لا تُؤْتِي ثِمارَها الحُلْوَة في الواقِع المُعاش. .

ولن يَتحَقَّق التَّغْيير والإِصْلاح المَنْشود إلا بصَحْوة الأَقْلام النورانيَّة، التي تَدْعو إلى مَذْهب الحَق وتَجْهَر به، وهذا يتأَتَّى

(1) بين يدي الشباب/أبو الأعلى المودودي: ص 19.

لمن كان من الكُتَّاب يَمْتلِك ذِهْنًا وَقَّادًا وبَصيرة نافِذَة، وقُدْرَة على التَّقدم وتَحْقيق التَّغْيير، وكان يَتمسَّك بالعُرْوَة الوُثْقى والطَّاقَة الهائِلَة، التي لا تَعْرِف الوُقوفَ ولا الرُّجوع إلى الخَلْف ولا المَشْي القَهْقَرى، وكانت غايَتُه ذاك المُرْتَقى، الذي يُحَرِّك السَّواعِد ويَنْهَض بالقِوى فتَنْشَط وتَعْمَل، وتَبْني وتُؤَسِّس عَقائِدَها ومَناهِجَها ومَذاهِبَها على اليَقين والإيمان الصَّحيح، وتَهْتَدي بالكِتاب النَّاطِق بالحَق والسُّنة المُبَيِّنة لأَحْكامِه، لأنَّهما مُعْتمَد الدَّعْوة ومُسْتَندها الصَّحيح، وهما قِوامُ الدُّنْيا والدِّين، وباعْتِمادهِما تَطيبُ الحياة وتَسْعَد المجتمعات، وتَسيرُ إلى الذِّرْوَة والسَّنام..



3 ـ الأقلام.. تُحاكي العَقْل والوِجْدان

إنَّ القلَم الصَّادِق كالبُلْبُل الشَّادي يُغَرِّد في كلِّ الفُصول، ولا تُحاصِرُه جُغْرافِيَّة المكَان ولا حُدود الزَّمان، فتارَةً يَحُطُّ على غُصْنٍ رَطيب، وتارَةً يَحُطُّ على غُصْنٍ جاف، وحيْثُما حَلَّ أو ارْتحَلَ هزَّه التَّغْريد فصدَح، وأَطْرَب بشَدْوِ تَغْريدِه الأَرْواح، وإن اسْتبِدَّ به الأَسى لا يَخْرَس صَوْتُه الشَّادي، بل تظلُّ أغاريدُه تَشْتكي وتَنوح..

والقلَم الصَّادِق ليس تِمْثالًا صَخْرِيًّا ثابِتًا في مكانه، على صورَةٍ واحِدَة لا شَيْء فيها يَتغَيَّر أو يَتبدَّل، بل هو نَسيجُ الحياة

الإِنْسانِيَّة، بأَلْوانِها المُخْتَلِفَة ومَشاعِرها المُتَقلِّبَة، وقِصَصِها وحِكاياتِها باللَّوْنَيْن الأَبْيَض والأَسْوَد، وأَلْوان الطَّبيعَة الجَميلة والكئيبَة، وهو نَسيجُ الكلمات المَنْقوشَة على بساطِ الذَّاكرة، تَضُمُّ فُصولاً تَنْمو كسَنابلِ الزَّرْع، وتَقْتاتُ منها الأَفْكار شَوارِد الخَواطِر، لتَبْعَث صَدى الحَقيقة الخامِلَة، وصَوْت المَعْرِفَة في الوجود..

والقلَم الصَّادِق يُحاكي إِشْراقَ العَقْل، ودَفْق الشُّعور وانْدِفاعَه، سابِحًا في الآفاق كما تَسْبحُ الطَّيور وتُصَفِّق، ولا يُثْنيه عن بُلوغِ غاياتِه الصُّدود ولا الخمُول، بل يَهُبُّ نَشِطًا ليَصِل الأَرْواح على امْتِداد الزَّمان واخْتِلاف المَكان، تَوَّاقًا إلى حَياةٍ طَيِّبَة كريمَة، وحَياةٍ مَليئة بالآثار الفِكْريَّة اليانِعَة، والأَدَب الأَصيل المُوَجَّه لتَنْوير الأَذْهان وتَهْذيب النُّفوس، وتَطْهيرها من الدَّنايا والخَطايا، حتى تصِل إلى أَوج الارْتِقاء في أَجْلى مَظاهِره الإِنْسانِيَّة..

والقلَم الصَّادِق يُلامِس الشُّعور، ويُحَرِّك خفقانَ النّبْض ويَطْرُق الصَّدْر، ويَضمُّه عِقْدُ الكِتابة مُرَصَّعًا بالمعاني الساطِعَة، ولا شَيءَ يُدانيه حين يُمْطِر القُلوبَ أَفْراحًا، فتَلْتَذُّ بدِفْئِها وتَسْكُن إليها، مُنعَّمَةً برَشْفِ الشَّهْد من عَناقيدِ الحُروفِ والكَلمات، وتَغْمُرها نَشْوَةٌ تَرِفُّ لأَفْكارها ومعانيها الآسِرَة، وتَكْتحِل زَخْرفة الخَط والرَّسْم البَديع، وطِرازَ الحِبْرِ على الوَرق الشَّفيف، فتَرْحل الأَرْواح خارِجَ حصارِ السُّطور، وتَنْتقِل بها من عالَم الضِّيق إلى عالَم السِّعَة والانْعِتاق..

والقلَم الصَّادِق يُنْتِج المعاني المُرْتَبِطَة بالمَشاعِر، والأَفْكار التي تَنْسجِم مع الواقِع الإنْساني، وتَخْدُم مَقاصِد الشَّريعة ومَصالِح العِباد، فيَكونُ لظُهورِه قُوَّةٌ وانْتِشارٌ وامْتِدادٌ، يَنْفُذ إلى حَدَّ الجِذْر الغائِر في أَعْماق النَّفس، ويكونُ لبُزوغِه إِشْعاعٌ لا يَنْطَفِئ، وخُلودٌ في الذَّاكرة وفي سِجلِّ التاريخ..

فلا عجَب أنْ يَحْمِل عُظَماء التَّاريخ تلك الرِّسالَة، وأنْ يَبْلُغوا بها مَبالِغَ الرِّفْعَة والسُّؤْدد، كما حمَلها المُهَلَّب بن أبي صفرة فأَتى جَوابُه عن سُؤالِ سائِلِه بما يلي: كيف نَجحْتَ وبَلَغْتَ ما بَلغْت من مَرْكزٍ رفيع؟ فردَّ عليه بهذا الجَواب البليغ الحكيم: إنَّما أَدْركتُ ذلك بالعِلْم وَحْدَه، فقال الرَّجُل: ولكن غَيْرُك لم يَصِل إلى ما وَصَلْتَ إليه، وقد تَعلَّم أَكْثَر ممَّا تَعلَّمْت؟ فقال المهلب: ذلك لأنَّني اسْتَعْمَلْتُ عِلْمي ولم أَحْمِلْه، بينما حمَله غيري ولم يَسْتَعْمِلْه..

وقال محمد بن كناسة:

ما من روى أدبًا ولم يعمل به
ويكف عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بنا تعلم عاملا
من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغني إصابة قائل
أفعاله أفعال غير مصيب



4 ـ الأقلام.. لها بَصْمةٌ ورِسالة

إنَّ من البصَمات ما لها أثرًا خالداً، وإشْراقًا ساطِعًا يَسْري إلى الأَرْواح سَريانَ الأَريجِ الفَوَّاح، فمَنْ رامَ بُلوغَ المعالي خلَّدَ أَثَرًا طَيِّبًا به يُعْرَف بين العالمين ويُذْكَر في عِلِيِّين، فهو الإِرْثُ الخالِد والفَرْعُ الذي يمْتَدُّ امْتِدادَ الأَصْلِ الثَّابِت، ويَصِل القُلوبَ بميثاقِ الصِّدْق والوَفاء..

والكاتِب الصَّادِق له بَصْمةً ووَهَجٌ مُشْرِق، وبَريقٌ ساطِعٌ يَجْذِب إليه القارئ، ولحُروفِه وكَلماتِه قُوَّةٌ ودِفْءٌ يَصْهرُ صَقيع المَشاعِر، ولأُسْلوبِه الفَصيح البَليغ سِحْرٌ وجَمال، وروحٌ تُعَبِّر بصِدْقٍ وعُذوبَة وانْسِياب، وتُحَرِّك مَخاضَ المعاني، وتوقِظ نَبضاتِها في قَلْب القارئ وعَقْلِه، فيَغْمُره إِحْساسٌ فريد، يَرْحَلُ به خارِجَ حُدودِ الزَّمن الضيِّق، والمَكانِ المْحاط بالأَسْوار والجُسور، ويَتذَوَّق لذَّة الانْعِتاق من أَثْقالِ المادَّة، وفُضولِ الكلام وضَجيجِ الأَصْوات..

والكاتِب الصَّادِق تُحَرِّكُه المَقاصِد السَّامِيَة، وتُوَجِّه قلمَه وفِكْرتَه وأُسْلوبَه ورِسالتَه، ومَنْ فقدَ ذاك المَعْنى والجَوْهَر، وتَمسَّك بالقِشْر والمَظْهَر، وتَخلَّى عن اللُّبِّ واللُّباب، فَقدَ هَيْبَةَ القلَم ووَقارَه، وخلَع عنه مَسْحَة الحَياء والاسْتِقامة، وأَراقَ ماء وَجْهِه وارْتَدى لِباسَ الخَلاعة، وصارَ شَماتةً بين أَقْرانِه يُشار إليه بالتَّحَسُّر والنَّدامَة، وانْحَنى بقَلمِه صاغِرًا ذَليلاً مَهيضَ الجَناح، بلا سَمْتٍ حسَن، ولا عِلْم نافِع ذا مَهابةٍ وجَلالة..

فَيَصير كاتِبًا بالإسْم واللَّقَب، والشُّهْرَة والسُّمْعَة، في زمَنٍ اخْتَلَّ فيه ميزانُ الإنْصاف والعَدالة، للتَّمْييز بين مَنْ له حَقُّ الصُّعود إلى القِمَّة عن جَدارة، ومَنْ عليه واجِبُ النُّزول إلى القاع، حِفْظًا لأَمانة الكلمَة من الاسْتِخْفاف والمَهانَة..

فشَتَّان بين مَنْ يكونُ كاتِبًا بالإسْم، ولا يَلْبَث أنْ يَخْبو نَجْمُه وتَغْرُب شَمْسُه، وتُطْوَى صَفْحته فلا يُرْفَع له ذِكْر، وليس له في الأرض من رِكْز..

وبين من يكونُ كاتِبًا بما يَحْمِلُه من دُرَرِ المَعاني المُنْتَظِمَة في عِقْدِها البرَّاق، وقد صالَ وجالَ بأَخْلاقِه الزَّكية الآسِرَة للقلوب، ومَكَّن الله لقَلمِه وكلمتِه وكتب لها القُبول والذُّيوع، لما تَحْتويه مِن الأَفْكار اللَّوامِع، والأدِلَّة القَواطِع، والحِكَم البالِغَة، والمَعارِف السَّامِيَة، والدُّروسِ في الدِّيانَة..

والكاتِب الصَّادِق هو علَمٌ لا يَحْتاج إلى من يُلَوِّح له أو يُصَفِّق، ولا مَنْ يَرْفعُه إلى عَنانِ السَّماء، أو يُذيع صيتَه في الآفاق، لأنَّ كلمتَه الصَّادِقَة هي من تُخَلِّد آثارَه وأَمْجادَه، وهي مَنْ تَحْفَظ تاريخَه فلا يُضام، وبها يَتصَدَّر المكانَة التي تَليقُ به ويَتَربَّع عَرْش القُلوب، تَقْديرًا لفِكْره الرَّصين، ومَنْهجِه القَويم، ومُعْتقَدِه الصَّحيح، واعْتِزازًا بِبَصماتِه الثَّابِتَة على الحَقِّ المُبين..



وفي الختام..

أُوقِد هذه المَصابيح المُنيرَة في طَريق حمَلة الأَقْلام فأقول:

۞ دَعْ قلمــك..

يَكْتبُكَ نَقْشًا على صَفحاتِ العُمْر، ووَشْمًا على الصَّدْرِ يُشْرِق، ونَبْضًا خافِقًا يَهْتِفُ للوجودِ وبالحقِّ يصْدَع..

۞ دَعْ قلمــك..

يَحْضُن الأرض التي سقَتْكَ من وَريدِها حتى ارْتَوَيْت، وغَذَّتْكَ من ثَمْرِها حتى اشْتَدَّ عودُك وأَيْنَع، ووصَلتْكَ بجِذْرها فامْتَدَّ وارْتفَع..

۞ دَعْ قلمــك..

يكونُ أَصْفى من الزُّجاج، وأَنْصَع من الماس، وأَسْلَس من قَطْر النَّدى والماء العَذْبِ الزُّلال..

يَعْكِسُ وجهَك على طبيعتَكِ وفِطْرَتِك، بتلك الخُدوش والنُّدوب، وتَجاعيدِ الزَّمن، وبالشقِّ الأَبْيَض والأَسْوَد، وأَجْزائِك المُكْتَمِلَة والنَّاقِصَة..

فأنتَ أيُّها الكاتِب تُعَبِّر بقَلمِك عن وَجْهِك الإِنْساني، ولستَ تِمْثالاً مَنْصوبًا مِنْ حجَرٍ يَتفتَّت، ولا مَسْخًا بَشريًّا للفُرْجَة والمُشاهَدة..

وأنتَ أيُّها الكاتِب لا تَحْمِل قَلمًا مُسْتَعارًا، يَكْتُب بحِبْرٍ مُزَيَّف بلا مَعْنى ولا جَوْهَر..

۞ **فدَعْ قلمــــك** على سَجِيَّتِه، بلا أَلْوان مُفْرِطَة في التَّأنُّق والتَّجَمُّل، تُفْضي بك إلى الغُرور، وتمَيلُ بك إلى ما هو مَذْموم..

وكُنْ في سائِر أَحْوالِك وسَطًا، فقَليلٌ يَكْفي وهو خَيْرٌ من كَثيرٍ يُطْغي، وكلُّ شيءٍ إذا كَثُر رخص..

فقد قال بعض البُلَغاء: «إنَّ العاقِل مَنْ عَقْلُه في إرْشاد ومَنْ رَأْيُه في إمْداد، فقَوْلُه سَديد وفِعْلُه حَميد، والجاهِل مَنْ جَهْلُه في إغْواء، ومَنْ هَواه في إغْراء فقَوْلُه سَقيم وفِعْلُه ذَميم»[1]..

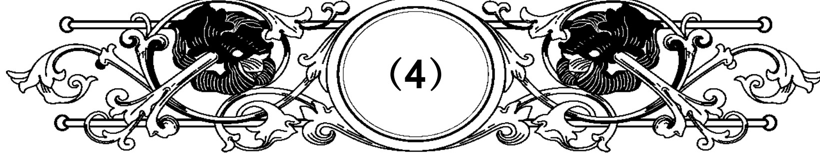
۞ **دَعْ قلمــك**..

حُرًّا طَليقًا، يَصِلُ إلى أَبْعَد من مكانِك وزمانِك، ويَمْتدُّ امْتِدادَ الفُروعِ عن الأُصولِ الطَيِّبَة المُثْمِرَة.

ودَعْ أَفْكارَك تُزْهِر كما النَّباتُ يَهيجُ ويخْضَر، وكما السِّراجُ المُنير يَسْطَع ويَتلألأ وأطْلِق سراحَ الكَلمات، ولا تَصْهَرها في زَمنِ القَيْظ والقَحْط، واكْسِر الطَّوْق لتُبْصِر النُّور حين يتوَهَّج بلا حُجُبٍ ولا ظلال، وبلا مَنْفى خارِج الحُدود، فتَحْيا غَريبًا تَبْحَثُ عن بَقايا إنسانٍ في وَطَنٍ مُخَلَّع..

---

(1) أدب الدنيا والدين/أبي الحسن الماوردي، دار إقرأ ـ بيروت، ط الرابعة 1405هـ ـ 1985م: ص 18.



الكتابة.. رسالةٌ إِنْسانِيَّة

إنَّنا نعاني اليوم من حالةٍ مُغْرقَة في التِّيه، أَشْبَه بما كان في العهود المُظْلِمَة، إلا أَنَّها من نَوْعٍ جديد مُرْتَبِط بحمَلة الأَقْلام، الذين بلَغوا من العظَمة والشُّهْرَةَ شُمَّ الجبال، وخالَط الطَّمَع أَفْئِدَتهم فزادَهُم غُرورًا، وازْدِراءً للعَقْل البشري ووِجْدان الأمَّة، وانْحَرف بهم هذَيانُ التَّرَف الفكري، فغَمَطوا النِّعْمَة المُسْداةَ إليهم، وتَوهَّموا الحقَّ سَفَهاً وجَهْلاً، وصاروا أَشْبَه بمَنْ وصفَهم النَّبي ﷺ من أهل الكِبْر فقال: «**الكِبرُ بَطرُ الحقِّ وغمطُ النَّاسِ**»[1].

يَسْتحِثُّون الخُطى لبُلوغ ما اسْوَدَّ من الرَّغَبات، وقد طَأْطَؤوا أَقْلامَهُم تطَأْطُؤَ الدَّلاة، وانْساقوا خلفَ أَهْوائهِم انْسِياقَ العَبيد، يَلْتَمِسونَ بريقَ الحُرِّية عن كثَب، وقد تَعلَّقوا بأَسْتار المَدنِيَّة المُزيَّفَة، وانْشغَلوا بأَوْهام الحضارة حتى صاروا حَسيري البصَر والبَصِيرة، يسْتَجْدون عَطاءً بخْسًا يَرْتقي بهم مَدارِجَ العِزِّ والكَمال، لعَلَّ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (91) برواية عبدالله بن مسعود.

أَرْواحَهُم تَتضَمَّخ بطيبِها، أو تتجَمَّل بمَحاسِنِ الخِلال..

ولكنَّهم لم يُدْرِكوا بأنَّ ذاك الطِّيب ليس بالخالِص، وأنَّ تلك المَحاسِن لها بريقٌ سُرْعانَ ما سيَخْبو ويَنْطفِئ، وأنَّ الكلمَة إمَّا أنْ تكونَ سَيْفًا يقْطَع رِقابَ العُقَلاء، ونَذير شُؤْم وعَذاب مُسَلَّط على ذَوي الأَلْباب، أو أنْ تكونَ سَلامًا وأمانًا يُوَحِّد الصُّفوف ويُؤَلِّف القُلوب، ويَلُمُّ شعَثَ المَذاهِب والأَفْكار، ويُرْسي القَواعِد والأَرْكان، ويُبَشِّر بالبَقاء والامْتِداد والانْتِشار..

ولم يُدْرِكوا أنَّ أَقْلامَ الغُزاة لا تُحَقِّق مَجْدًا ولا فَخْرًا، بل تَظلُّ تَلْهَث داخِل غِلافِها الأَجْوَف، وقد غاضَت يَنابيعُها الثَّرَّة، فجَفَّتْ مَعانيها الصَّافِيَة كما تَجِفُّ الأَوْراق، وأَمْسَت مَرْتَعًا للنَّتانَة ومَنْبتًا للأَشْواك، وتَفرَّقتْ كلِمَتُها كتَفرُّقِ القُلوبِ بالضَّغينَة والبَغْضاء، ولانَتْ شَكيمَتُها فهانَتْ كرامَتُها، وتَلَطَّخَتْ بالأَوْحال في براثِن التَّنافُسِ والأَحْقاد، وتَعلَّقَت بأَمانيها العِجاف وطموحِها الرَّذْلِ المَهين، فانْحسَر إِنْتاجُها في مجال العُلوم والمَعارِف، وصارَت مَشْدودَة إلى ثَقافات غَريبَّة، لا تَنْتسِب إلى هُوِيَّتِها العَربِيَّة، ولا إلى ثَقافَتِها الإِسْلامِيَّة بأَيَّةِ صِلَة انْتِساب..



1 ـ إنتاج الثَّقافة المَسْؤولة

يجب على الكاتِب خلال هذه المرحلة التاريخِيَّة العصيبَة، أنْ يَتحمَّل مَسْؤولِيَّته اتِّجاه القلَم، فلا يَصْهَره في أتونٍ واحِد،

ولا يُريقَ كرامتَه وكرامَة الكلمَة التي يحملها، وأنْ يَضْطَلِع بشَرفِ الوظيفَة، التي تُحَتِّم عليه تَوْحيد القلوب، وحِمايَة اتِّجاهات الفِكْر المَوْلود، واسْتِثْمارِه لإِنْتاج فِكْر مُوَلِّد، وإِنْتاج الثَّقافة المَسْؤولة التي تَحُثُّ الكاتِب على مُواجهَة تَحدِّيات العَصْر، وشَحْذِ الهِمَم التي أَلْهاها التَّواكُل، وأَقْعدَها الاسْتِسلام والتَّخاذُل، وبَعْث قُوَّة الإرادَة المُلَبِّيَة لنِداء الحِكْمَة، وشَدِّ السَّواعِد للأَخْذِ بأَسْبابِ السَّعْيِ الشَّريف، والاهْتِداء بمَعالم مُضِيئَة على الطَّريق، لتَصْحيح مَساوِئ الأَفْكار، التي لَوَّثَت بخَساسَتِها مَدارجَ الرِّفْعَةِ والكمال، وانْحَرفت بأَشْباهِ العقول عن الاعْتِقادِ الحق، وجَرفت ضِعافَ القلوب إلى الإقْبال على الشَّهَواتِ المُحَرَّمة، فظَلُّوا في سَكْرتِهِم يَنْتَشون ويَثْمَلون ما طابَ لهم من المَلذَّات، وتتَجاذَبهم الأَهْواء فتَميل بهم إلى مُنْعرجاتٍ ضَيِّقة، حيث تَتعثَّر بهم الأَقْدام ودَنادِنُ الثِّياب.

كما أنَّ إنتاج الثَّقافة المَسْؤولة تُحتِّم على الكاتِب أنْ يَتصدَّى لمَنْ يَضْطَهِدون الأَفْكارَ المُعَبِّرَة عن هُموم النَّاس وآلامهِم، وآمالهِم وأَحْلامهِم، وأنْ يُساهِم في رَدْع مَنْ يُجْهِضون العَطاء المُثْمِر في الإِنْتاج، وأنْ يَبْذُل أَنْفَس أَوْقاتِه لأَجْل تَرْسيخ القِيَم الفِكْرِيَّة والإِنْسانِيَّة، وإِرْشادِ العُقول إلى اتِّباعِ المَنْهَجِ القَويم والتديُّن الصَّحيح، والحِفاظ على الهُوِيَّة والثَّوابِت الدينِيَّة . .

ولتَحْقيق هذه الغايات السَّامية، على الكاتِب أنْ يَتمسَّك بمناط التقدُّم في طريق الإصلاح، من خِلال ارْتِباطِه بالثَّقافة الإِسْلامِيَّة، لأنَّ الإيمان هو مَهْد قوَّة القلَم وبه يَقْهَر مَظاهِر

الجهل، ويوقِد شُعْلَة الطُّموح والتَّوْق إلى الجِد، وكَبْح النَّفسِ عن التَّعَلُّق بزَخارِف الأَطْماع..

كما أنَّ ارتباط الكاتِب بثقافَتِه الإسلامِيَّة، تُوَجِّه مسارَ قَلمِه وتَجْعَل له وُجودًا حَقيقيًّا، فيتحَرَّك وَفْقَ عقيدةٍ صحيحة، ومَنْهَج مُسْتقيم يَضْبِط أَقَوالَه وأَفْعالَه بضَوابِط الشَّريعَة الإلهِيَّة وأَحْكامها، ويَلْتَزِم في تَفْسيراتِه وتَعْليلاتِه بالمَنْهجِ الفِكْري والَّثقافي، الذي يَقيسُ الحَقائِق والمعاني والمقاصِد بالمِعْيار الربَّاني، فيُقَدِّم للقُرَّاء أَفْكارًا مُنْسَجِمَة مع الرُّؤْيَة الإسلامِيَّة، التي تَكْسِر الحُدودَ الفاصِلَة بين القارئ والكاتِب، وتُوَثِّق التَّواصُل التَّاريخي والحَضاري بين أَجْيالِ هذه الأمَّة، وتَدْعوهم إلى اتِّباعِ المَنْهجِ العِلْمي الصَّحيح، في دِراسَة وتَحْليل واسْتِنتاج ما يَرْقَى بتاريخِها وأَوْضاعِها، في مُخْتَلف مَجالاتِ الحياة والواقِع..

كما أنَّ الكاتِب هو مُؤَرِّخٌ للفِكْرَة والحَدَث، والمَعْرِفَة والقِيَم الدينِيَّة والإنْسانِيَّة، ولهذا عليه أنْ يكونَ أَمينًا ونَزيهًا في نَقْلِ الحَقيقة، مُتَوازِنًا في طَرْحِ أفكارِه..

وقد نبَّه المؤرِّخ محمد داود للاعْتِناء بهذا المَقْصِد النَّبيل في كتابة التاريخ فقال: «اعْلَم أنَّ كتابة التَّاريخ يَنْبَغي أنْ تَختلف باخْتِلاف الأحْوال، فالمُؤرِّخ لأجْل الأَغْراض الخاصَّة وللدِّعاية، له أنْ يُراعي المَبْدأ الذي أَلَّفَ لأَجْلِه، فيَرْفَع ما يشاء ويضَع ما يُريد، ويَذْكُر ما يَرْضاه أو يُرْضيه، ويَغْفَل ما لا يُوافِق مَبْدَأه ومُرادَه، يُشيدُ بذِكْرِ ما يُؤيِّد رَأْيَه ومَذْهبَه، ويَحُطُّ مِنْ قيمَة كلِّ ما يُخالِف ذلك، أمَّا التَّاريخ الحَقيقي الذي يُكْتَب للاعْتِبار،

ويُسَجِّل مُخْتَلف الحَوادِث والأَخْبار، فيَنْبَغي أنْ يكونَ كالمِرآة أو كالآلَة المُصَوِّرَة، التي تُثْبِت الأَشْياء كما هي، والمُؤَرِّخ الصَّادِق والكاتِب الحُر هو الذي يُثْبِت الحَوادِث كما وقعَت، ويصِف الأَشْخاصَ والأَشْياء بأَوْصافِها الحَقيقِيَّة، بدونِ مُبالغَة ولا بَخْس، فبذلك يعرف مقام المصْلِحين، وفضْل المُحْسنين، وكِفاح العامِلين، وجُهود المخلصين، كما يعرف أيضًا جَبروت الظَّالِمين وطُغْيان المُعْتَدين»[1].



2 ـ المحافظة على وحدة الهوية العربِيَّة والإسلامِيَّة

كما على الكاتِب أنْ يُؤَسِّس قاعِدَة صَلْبَة ومَتينة، وذلك بأن يُحافِظ على وَحْدة الهُوِيَّة العربِيَّة والإسلاميَّة، التي تَرْتَقي بأَفْكارِه مَدارِك جليلة، وتُسَخِّر قلمَه لخِدْمَة المَنْهج الدِّيني والثَّقافي، الذي لا يفْصِل العَقْل عن النَّقْل، ولا الدِّين عن العِلْم، في حياة الأَفْراد والجَماعات وواقِع الأمَّة..

وعلى الكاتِب أنْ يَجْعَل ولاءَه وانْتِماءَه لدينِه ومَبادئه، وأنْ يظلَّ مُسْتَقِلاًّ عن أيِّ انْتِماء، يَسْتبدُّ بقَلمِه أو يَحْتكِر إنْتاجَه العِلْمي، حتى لا يَفْقِد ثِقَة القُرَّاء وتَقْديرَهُم، لمِصْداقيَّة أَفْكارِه

(1) تاريخ تطوان/محمد داود ـ مراجعة وإضافات: حسناء محمد داود، جمعية تطاون أسمير: الطبعة الأولى سنة 2009م بمطبعة الخليج العربي ـ تطوان: 1/33.

ونَزاهَةِ كلمَتِه ونُبْل غاياته، ويتحَوَّل من كاتِب حُرٍّ أصيل إلى تاجِر يُتاجِر بقَلمِه ومَبادئه..

وعلى الكاتِب أنْ يكونَ مَسْؤولاً عن الكلمَة التي يُخاطِب بها جُمْهورَ قُرَّائِه، فلا يُسَخِّرها كسِلْعَةٍ رخيصَة ومُبْتذَلة، تُهَدِّد السِّلْم والأَمْن الوَطني، وتُثِير الفِتَن والنَّعَرات والأَحْقاد والضَّغائِن بين الشُّعوب والقَبائِل وتُهَدِّد مُسْتقبل الأمَّة..

وأنْ يكونَ أمينًا يَهْتَدي في اخْتِيار الكلمة التي يَكْتبُها بهدى الله ويَحْتكِم إلى حُكْمِه، خاضِعًا لجلالَة ذاك الخِطاب الرّباني المُوجِّه لسُلوكِ الفَرْد والجَماعة، في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[1]..

وعلى الكاتِب أنْ يكونَ مُجَدِّدًا، يَجْتهِد في سُلوكِ الطَّريق لبُلوغِ الغايَة، ومَجْد العِلْم وشَرفِ التَّقْوى، آخِذًا بيَدِ الإنسانِيَّة ورَحيمًا بها، ومن الذين تَفْتخِر بهم الأمَّة وأَبْناءُ الوطَن، والذين ارْتَقوا بشَرفِ كلمَتهم مَنابِر العِلْم، وتَزيَّنوا بالآدابِ الرَّفيعة..

وعلى الكاتِب أنْ يكونَ مُعْتزًّا بتاريخِه المجيد، مُنافِحًا عن قِيَمِه العربِيَّة والإسلامِيَّة، حتى لا تَتحوَّل خُطَبه ورسائِله إلى مُوالاة لأفكار مُسْتَعارة ومُسْتَوردَة، لا تَمُتُّ إلى دينِه وثَقافَتِه بصِلَة، ولا تُعَبِّر عن واقعِه، ولا تَخْدُم القَضايا والمُشْكِلات الاجتماعِيَّة والإنسانِيَّة..



(1) سورة المائدة: الآية 50.

3 ـ الكتابة رسالة إنسانيَّة نبيلة

إنَّ الكتابة ذات قيمة عظيمة، تُؤَدِّي مَهامَّها التربويَّة في حياةِ الأَفْراد والمجتمعات، وتَخْدُم رسالةً مقدَّسَة تَنْهَض بالثَّقافَة، التي تَجْمع بين الأصالَة والمُعاصَرة، والتوسُّط والاعْتِدال، والثَّابِت والمُتَحَرِّك في الفَهْم والمُمارسَة، فلا إِفْراطَ في المُحافظَة على الهُوِيَّة إلى حَدِّ الغُلو والجُمود، ولا تَفْريطَ في التقدُّم بحَركة الإِصْلاح، إلى حَدِّ الانْفِلات وضَياعِ الهُويَّة ومُقَوِّمات الشَّخْصِيَّة الإنسانِيَّة..

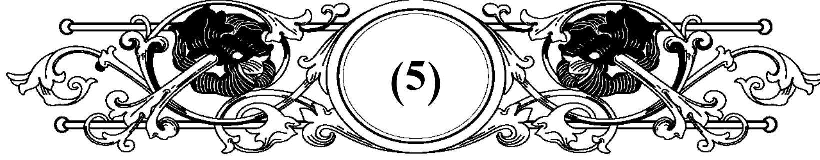
والكتابة لها وظيفة تَربوِيَّة، تَسْعى لتَخْريجِ أَجْيال مُسْلمَة، تَعْرِف حقيقة دينِها وتاريخها الإسلامي، وحضارتِها وأَمْجادها، وتَسْعى إلى إِحْياءِ كلِّ ما يمُتُّ إلى مَصادِر ثَقافَتِها، حتى تتجاوَز فترة الانْحِسار الفِكري والثَّقافي، الذي تحكَّمت فيه جملة من العَوامِل الداخِلِيَّة والخارجِيَّة، جعَلت البَوْن شاسِعًا بين المجتمعات العربيَّة والغربيَّة..

والكتابة تُساهِم كذلك في تَنْمِيَة المَلكات العَقْلِيَّة، وتَنْشيط المَهارات الذهنِيَّة في الاسْتيعاب والوَعْي، وفي اكْتِساب المَعْلومات، عن طريق المعرفة الصَّحيحة، والأَخْذ بأَسْبابِها السَّليمة، ومَناهجِها العِلْمِيَّة الرَّصينَة، والعمَل على تَطْويرِ الذَّات المُفَكِّرة، لخَوْضِ غِمار البَحْث واكْتِشاف المجهول، وأَسْرار الحَقائِق التي لم يَحْجُبها الخالِق عن ذَوي الأَلْباب من العُلَماء العامِلين..

وبالتالي فالكتابة تُساهِم في تَأْهيل الأقلام، حتى لا تَنْقاد خلفَ الأَضْواء انْقِيادَ العُمْيان، لأنَّ كَثْرَة التَّصْفيق والمُغالاة في المَديح، لا تَصْنع كاتبًا مُتَمرِّسًا ولا ترفَع قلمَه إلى القِمَّة، ولا تهَبه التَّقْدير والمكانة العِلْمِيَّة التي يَسْتحِقُّها..

إنَّما الذي يَرْفَع الكاتِب إلى القمَّة، هو قَلمُه المُلْتَزِم بالحَق، وكَلمَتُه الصَّادِقَة الخالِصَة، التي يُسَخِّرُها لنشْر الخَيْر والنَّفع، ولبَعْث جَذْوة الإيمان وإِحْياء العُلوم والمَعارِف، وتَخْليد بصمَة مشرقة ورِسالَة عظيمة في ذاكرةَ الأمَّة..





الإيقاع الفنِّي والوجداني

إنَّ الانْسِجام الإيقاعي في اللُّغة كما في التَّعبير المُنْسَجِم مع الفِعل، له تأثيراتٌ مُوَلِّدة لمَشاعِر الإعجاب الذي قد يتحوَّل إلى ارْتِباط عاطِفيّ وإحساس قوي..

ذلك أنَّ من الغَريزيَّات التي خَلقها الله في الإنسان، مَيْلُه بفِطِرَتِه إلى الموسيقى ذات الإيقاع المُرْتبِط بالدَّهْشَة، باعْتِبارها وسيلَة لسَبْر أَغْوار الذَّات الإنسانِيَّة، لسُلْطانِها القابِض على نَواصي الخَلْق..

ولا عَجب في ذلك، فالانْسِجام الإيقاعي المُرْتَبِط بالحِس والوِجْدان، قد جعَل الله فيه قوَّةً غَريبة تُؤثِّر على الإنسان، من خِلال إيحاءاتِ السِّر البِكْر الذي يَسْطع عند ميلاد عَناصِر الاسْتِغراب..

وإذا كان الإيقاع مُرْتبِطًا باللُّغة والنَّص النَّثْري أو الشِّعْري، فلا غَرْوَ أنْ يَشْحَذ همَّة القارئ ليَبْذُل مَزيدًا من البَحْث، لإِدْراك حَقائِق المَعْرِفة التي يُقَدِّمها الكاتِب أو الشَّاعِر، ولامْتِلاك أَسْباب

الفَهْم للرُّؤى الواسِعَة، التي يُتيحها النَّص من خلال إيقاعِه الخَلَّاب، المُنْسَجِم مع جاذِبيَّة المَعاني في علاقَة تَرْبِط بين الأَصْوات والتَّراكيب ودَلالاتِها، وفي وُجودٍ يُبْرِز التَّناسُب والتَّوافُق ويُحَقِّق التَّوازُن بينها..

كذلك الإيقاع المُرْتَبِط بالفِعْل يُؤَثِّر على الشُّعور، وتَحْصُل بسَببِه المُجاورَة والمُشارَكَة والتَّوافُق والتَّشاكُل بين الأرواح، ويُقَوِّي شَوْق كلِّ نَفْسٍ إلى مَنْ يُماثِلُها ويُشاكِلُها، في الانْجِذاب العاطِفي إلى ذاك الإيقاع والاتِّفاق في القَصْد والفِعْل، والتَّأثير والتأثُّر..

وكلَّما قَوِيَت المُناسبَة في الإيقاع العاطِفي، حَصل المَيْل النَّفْسي وثَبتَت المَحبَّة وتمَكَّنَت، ولم يُزِلْها إلا مانِع المُخالفَة وانْفِصال المُناسَبة، وانْقِطاع الانْسِجام والمُشاكلَة، أو عَرَض عارِضٌ أَوْجَب زَوالَها..



1 ـ إيقاع اللغة

نظرًا لأهَمِّية الرُّؤى الواسِعَة التي يُتيحها مَفْهوم الإيقاع، في اخْتِبار الخَصائص الفنِّية والمَوْضوعِيَّة للنُّصوص، وإِثْرائِها بالصِّفَة الجَماليَّة والذَّوْقِيَّة، فهو وَفْق الأستاذ عباد شكري: «أهَمُّ من الوَزْن، وتارةً أنَّه أخَصُّ منه، والحقيقة أنَّ الإيقاع اسْمُ جِنْس، والوَزْن نوعٌ منه، لذلك يُسْتعمَل أحيانًا للدَّلالَة على

وجود التَّناسُب مُطْلقًا، وأحيانًا أخرى لإِبْراز التَّناسُب وتَحقُّقِ وُجودِه»[1]. .

ويرى د. عز الدين إسماعيل أنَّ: «الإيقاع هو السِّمَة المُشْتركة بين الفُنون جميعًا، وعدَم وُجودِه يُلْغي صِفَة الفنِّ الجميل، مهما كانت المعاني مُتَّصِلة به»[2]، ذلك أنَّ الإيقاع في النُّصوص يَرْتَبِط بما هو مُتَجدِّد ومُبْتكَر، وإِبْداع ما يُضْفي صِفَة الجَمال على مَعانيها المُخْتَلفة، التي تَتشَكَّل في نَسيج التَّوَقُّعات، والإِشْباعات، والاخْتِلافات، والمُفاجآت، التي يُحْدِثُها تَتابُع المَقاطِع بين التَّراكيب، وتَراسُل الاتِّصال بين الحروف والكلمات، المُخْتارَة بعِناية فائِقَة لتَسْتجيب لذائِقَة القرَّاء، في تَناغُم فَريد بين إيقاع الذَّات وإيقاع النَّص، وتَوازُن يَرْتقي إلى الأَخْذ بالاعْتِبارات التَّربوية، والفَنِّية، والوِجْدانِيَّة. .

إضافَةً إلى انْتِظام رُؤْيا الكاتِب لإِنْتاج ما يُلامِس التَّجْربة الانْسانِيَّة ويَتفاعَل معها، بصِياغَة تَتَّسِم بالبراعَة واليقظَة والحِذْق، وتَعْبير يُحقِّق الانْسِجام والتَّوافُق بين الأُسْلوب والمَقْصِد والقِيَم الفَنِّية، حتى يَسْتقبِلها المُتَلقِّي على مِهادٍ وِجْداني وَثير، وتَنْبسِط في رُوعِه المَعاني والمُحْتَويات القيمِيَّة من دون مَشَقَّة أو عَناء. وقد نبَّهت د. بهيجة مصري إدلبي إلى إِبْراز أهَمِّية الإيقاع،

(1) موسيقى الشعر العربي، مشروع تأصيل ـ دار المعرفة، القاهرة ط. 1978م: ص 93.

(2) الأسس الجمالية في النقد العربي ـ دار الفكر العربي، ط الأولى 1992م: ص 125.

وضَرورة تَوْجيه العِناية إلى بلاغَة الإيقاع في مقالها الشَّائِق الماتِع: «بلاغة الإيقاع وشعرية قصيدة الطفل» فقالت: «إنَّ الإيقاع يتسَلَّل بأَصابعِه السِّحْرية الخَفِيَّة إلى الإبداع، الذي هو تَأْويل لإيقاعِنا الدَّاخلي، وبالتَّالي هو الذي يُتيح للقراءة أنْ تَنْتَبِه إلى وَعْي الخَصائص الفنِّية والجَماليَّة في هذا النَّص أو ذاك»[1]. .

لهذا على الكاتب أن يَخْتَصَّ الإيقاع الفَنِّي والوِجْداني بعِنايَتِه الكافِيَة، عند اخْتِياره للأُسْلوب واللُّغة التي يَسْتخدِمُها، وأنْ يُوَجِّه اهْتِمامَه لإِبْراز جَماليَّة النَّص، مُتوخِّيًا اسْتِخدام اللغُّة كعامِل من العَوامِل الأَساسِيَّة في الارْتِقاء بالعاطِفَة والتَّفْكير معًا، والإِسْهام في تَعْميق مَلكَة إِدْراك الذَّات لدى المُتَلقِّي. .

ذلك للعَلاقة التَّواصُلية بين اللغة والذَّاتية، فوَفْق بنفنست: «فإنَّ اللُّغَة هي التي تَسْمح بإمْكان وُجود الذاتيَّة، لأنَّ اللُّغة هي التي تُمَكِّن المُتكَلِّم مِنْ أنْ يَفْتَرِض نفسَه بوَصْفِه «أنا» بوَصْفِه الذَّات الفاعِلَة لجملةٍ ما، ومن خلال اللُّغة يُشَكِّل الناس أَنْفُسَهم كذَوات فاعِلَة، ولا يكون وَعْيُ الذَّات مُمْكِنًا إلا من خلال المُقابلَة والتَّمييز فالـ «أنا» لا يُمْكِن إِدْراكُها من دون تصَوُّر «اللا ـ أنا» أو «الأنت» والحِوار هو الشَّرط الأساسي للُّغة»[2]. .

---

(1) مجلة عالم الفكر ـ العدد 4، المجلد 44: بتاريخ أبريل ـ يونيو 2016م: ص 30.

(2) الممارسة النقدية ـ كاثرين بيلسي/ترجمة: سعيد الغامدي ـ منشورات دار المدى، سورية ـ دمشق، ط. 2001م: ص 80.

كذلك على الكاتِب أنْ يُوَجِّه عِنايتَه إلى تَحْقيق نَقْلة في الوَعْي الحَضاري والثَّقافي لدى المُتَلقِّي، من خِلال رَبْط إيقاع اللُّغة بعمَل الذِّهْن..

ذلك لأنَّ: «اللُّغة لا تَنْفصِل عن عمَلِ الذِّهن، فالتَّفكير عمَلٌ لُغَوي، وحين نُفَكِّر نقوم بعَملٍ من صَميم العَربيَّة، ونِظامُ كلماتِها هو نِظامُ تَفْكيرنا، وربَّما لا يكون هو نِظامُ غَيْرِنا من الذين يكتُبون ويتحَدَّثون بلُغَة أخرى (...) وهكذا ألحَّ الباحِثون على أنَّ اللُّغة وثيقَةُ الصِّلَة بصِناعَة التَّفكير، ذلك يعني أنَّ اللُّغة ليست وسيلَة فحَسْب، وإنَّما هي من بعض الوُجوه صِناعَة تَفْكيرِنا ونظامه»[1].

كذلك على الكاتِب أنْ لا يتجاهَل ما قد يُثيره هذا المُبْتَغى من مُشْكِلات الوَعْي الحَضاري، الذي انْحَرف في العصر الحديث عن غاياتِه، فصار يَلْهَج بالمُطالبَة بالحُرِّية غير المُنَظَّمَة، لاعْتِباراتٍ وَضْعِيَّةٍ أو وَصْفِيَّةٍ لا يُحَرِّكها باعِثٌ عظيم، وصار يَتَغاضي عن مُراقَبة النَّشاط اللُّغوي وتَتَبُّع مَسيرتِه داخِل المجتمع، وقد نبَّه إلى هذا د. مصطفى ناصف عند حديثِه عن «مسؤولية التأويل» فقال: «لقد اجْتَرأ كثيرون على الزَّعْم بتَمَيُّز الحياة المَرْجُوَّة من شُؤونِ النَّاس واللُّغة والبَيان، وكان هذا مَظْهَر سوءِ فَهْم الحياة أيضا، لقد تَمَّ تَوْطيد بعض الفُروض المُسْرِفَة عن تَنْمِيَّة الشُّعور، لا تحتاج إلى الفِقْه الحذر المُسْتمِر لجُزْئيَّات

(1) اللغة والتفسير والتواصل/د. مصطفى ناصف ـ سلسلة عالم المعرفة، الكويت ـ العدد 193 يناير 1995م: ص 117 ـ 118.

العِبارة والكَلمات، كان البحث عن حرِّية الفِكْر يدور ولا يزال في فراغ إهْمال الكلمات، لقد لهجَ الجميع بَطلبِ الحرِّية والحضارة بمَعْزِل عن مراقبَة النَّشاط اللُّغوي ومَسيـرتِه في المجتمع، وخُيِّل إلينا أنَّ أمور الكلمات أَيْسَر من أمور حرِّية الفِكْر ونـهـضَة المجتمع، والْتِماس ما نشاءُ من العِلْم، ولم يَشْعُر الكثيرون بأنَّ الصَّيْد في جَوْف اللُّغة تَلْتهِمُه أو تُنْضِجه، خُيِّل إلينا أنَّ أمور اللُّغة شَكْليَّة ونحن طُلَّاب الجَوْهر أو الأَعْماق، وأَخْطر ظَواهِر النَّهضة الانْفِصال المُذْهِل بين ما نُسَمِّيه الثَّقافَة وما نُسَمِّيه نشاطَ الكلمات»[1] . .

وعلى الكاتِب أنْ يُثيرَ عُنْصرَيْ الدَّهْشَة والاسْتِغراب لدى القارئ، وأنْ يُحَرِّك بداخِله إعْصار الرَّغْبَة المُلِحَّة في البَحْث والتَّساؤُل، وأنْ يَبْعَث في كوامِن نَفْسِه لذَّة الانْتِشاء والرَّغْبَة بالمُتابعَة، والغَوْص في أَعْماق المعاني، للكَشْف عن غَوامضِها وكُنْه إبْداعِها، ومَعْرفة جَليِّها وخَفِيِّها، وما توحي إليه الجُمَل والتَّراكيب والعِبارات في انْتِظام أفكارها، وتَسَلْسلِها وتَناسُبِها . .

فالذِّهْن إذا تَجاهَل فِعْل الكلمات، ولم يَبْذُل جُهْدًا في امْتِلاك فُنون من المَهارة في فَحْص الكلمات، ومُتابعَة إيقاعِها والْتِماس حَقائقِها، فقد يضلُّ السَّبيل ولا يَصِل إلى مَعْرفَة أَثرِها العمَلي في الحياة الواقعِيَّة، لأنَّ: «اللُّغة هي جُهْد الإنسان فـي التَّعَرف أو الإِدْراك والتَّمييز، واللُّغة إذن نشاطُ الإنسان أو رُؤْيَته الخاصَّة»[2] . .

---

(1) المرجع نفسه: ص 30.

(2) المرجع نفسه: ص 118.

والمَقْصِد من وراء هذا الوَعْي بقَضِيَّة الإيقاع في اللُّغة، وما يَنْطَوي عليه النَّص من طاقَة تَواصُلِيَّة مرْتبطَة بعالَم الكاتب والمُتَلقِّي، وفَنِّية النَّص وإيقاعِه، هو الإِسْهام في صِناعَة عالَم خاصّ وفَريد وجَذَّاب، من خِلاله يتِمُّ اسْتِعمال مَجْموعة من التَّفاعُلات بين المُتَكلِّم والمُتَلقِّي، تَسْتجيب لنَشاطٍ ذِهْنيّ وفَنِّيّ ووِجْداني، يَصْنع ذاكِرَة خَلَّاقَة تُضيف وتَحْذِف، وتُكَوِّن وتُرَكِّب..

لأنَّ: «الإنسان بطبيعَتِه مُفَكِّر، أي: أنَّه صاحِب لُغَة تتعامَل مع الأشياء»[1]، ولأنَّ: «عالم اللُّغة عالمٌ نَشيط، لأنَّ العقل لا يمَلُّ من العمَل وتغيير الاسْتِجابات إذا أُتيحَت له الفُرْصة، وحينما نقول إنَّ الإنسان يقوم بالتَّذَكر، نتَناسى أحيانًا طِبْقًا لبعض الأَغْراض، أنَّ الذَّاكرة نفسها خَلَّاقة، ففي كلِّ مجالٍ إذن تَصْنع اللُّغة شيئًا ولا تَعْكِسُه»[2]..

فنحن لا نَسْتطيع أن نُدْرِك كلَّ هذه الأَنْماط العَجيبة، خارج نشاطِ اللُّغة وتَأْثيراتِها الإيقاعِيَّة بين المُتَخاطِبين: «فاللُّغة نمَطُ نَشاطِنا وحصارِنا معًا، ما لا نستطيع أن نقولَه لا نَعْرِفه، فإذا انْفصَل الإِحْساس عن الإِدْراك فأنت لا تَعْرِف، فإذا أَدْركت لَغَوْت أو كوَّنْتَ لُغَة»[3]..



(1) المرجع نفسه: ص 119.
(2) المرجع نفسه: ص 119.
(3) المرجع نفسه: ص 119.

2 ـ إيقاع الدَّهْشَة والمُفاجَأة

إنَّ إيقاعَ الدَّهْشَة والمُفاجَأة في الأدَب كما في الحياة، يتَمَلَّك القَلْب عندما يُواجِه تحَدِّيًا عَسيرًا ومُفاجِئًا..

والمفاجَأة هي: «الحدَث الخارِج عن سِياق التَّوقُّعات، هي خروجُ ثُعْبان من قلبِ إضمامَةِ وَرْد، وضَبْطُ العَيْن التقِيَّةِ الوَرِعَة في حالةِ غزل، وصُدور الفِكْرة العبقَرِيَّة عن ذِهْنٍ ضَعيفِ الرُّؤْيا، وانْشِقاقُ الصَّخرة المُصْمتَة عن الماءِ الزُّلال، وما هو من هذا القبيل»[1]..

وإيقاعُ المُفاجَأة هو الذي يَصْنَع الانْجِذاب في الحياة كما في أيِّ عمَلٍ أدبي، «ففي الحياة كما في العمَل الرِّوائي دائمًا يَبْحث الناس عن عُنْصر المُفاجَأة، ومتى لم يجِدوه في أيٍّ منهما تَبرَّموا بالرِّواية واعْتبَروها فاشِلَة، وبالحياة رَأَوْها مُمِلَّةً إلى حَدِّ القَرَف»[2]..

وما يَحْدُث في العمَل الرِّوائي هو نفْسُ ما يَحْدُث بين ضُروبِ الأَخْيِلَة الفَنِّية، في مُخْتَلف الاتِّجاهات الأَدبِيَّة في لَحْظَة البَحْث عن إيقاعِ الدَّهْشَة والمُفاجَأة، ولذلك كانت المُفاجَأة هي: «لحظة الانْفِجار لدى الفنَّان»[3]..

---

(1) لحظة المفاجأة/عبدالعلي الوزاني: مجلة المناهل، العدد 26 (السنة العاشرة 1403هـ ـ 1983م): ص 89.

(2) المرجع نفسه: ص 89.

(3) المرجع نفسه: ص 94.

خلالَها قد يُسْقِط عُصورًا بكاملِها لأَجْلِ الخُروج من السِّياق المُعْتاد، «فحين تَعْجَز اللُّغة أو اللَّوْن أو النَّغمَة عن إِخْراج الفنَّان من السِّياق المُعْتاد، لتَعْزِله في فَنِّه الواقِع عن المُمْكِن، والحاصِل عن المُنْتَظَر، وحين لا يَضْطَرُّ إلى الشَّك في مَدى قُدْرَة وسائِطِه الفَنِّية على الإشْعاع والرُّؤْيا، يكون واقعًا تحت أنْقاض بنائِه الهَش المُتَداعي»[1]. .

وخِلالَها تكون لَحْظَة المُفاجَأة هي الباعِث على تَوْليد الطَّاقَة داخِل العمَل الفنِّي «فلا بدَّ أن تكون المُفاجَأة من صَميم الرُّؤْيا، ومن قلبِ الحدَث الأدَبي، ومن مَوْقِع اصْطِدام الأديب بأَشْياء كثيرة في هذا الكون، ومن الشَّرارات الذَّكِيَّة النَّاتِجَة عن هذا الاصْطِدام»[2]. .

وقد يكون إيقاع الدَّهْشَة والمُفاجَأة كبيرًا، يَحْظى باهْتِمام كثير من طلُاَّب المُفاجَآت الغَريبة والعَجيبة، المَلْفوفَة في سِتار الغُموض الكَثيف، والغارِقَة وراء تَنقُّلات الإنسان وأَسْفارِه ورحَلاتِه، بَحْثًا عن المُتْعَة والإيناس، وما يُثير خَيالهُم ويَكْسِر رَتابة المُحاكاة والتَّقْليد ويَخْطِف أَبْصارهم. .

ولعلَّ هذا المُنْعطَف الكبير هو الذي تَملَّك رفاعة رافع الطهطاوي (ت 1290هـ/1873م)، حين سافَر خارج مصر لأَوَّل مرة سنة (1242هـ/1826م) مُتَّجِهًا إلى فرنسا، ضِمْن بعثة عِلْمِيَّة

---

(1) المرجع نفسه: ص 95.
(2) المرجع نفسه: ص 103.

أَرْسلَها محمد عليّ لدِراسَة اللُّغات، والعُلوم الأوروبية الحَديثة..

فأمام تلك الحضارة الغَرْبيَّة في تجَلِّياتِها، وفي اسْتيعابِها لمَظاهِر المَدنيَّة المُتفَتِّحَة على النِّظام في الأَكْل والشُّرْب، ومَظاهِر الحياة الغربيَّة المُتَحرِّرَة مِن التَّقاليد العَربيَّة الإسلامِيَّة، التي تَجْمعُها روح الجمَاعة والرَّوابِط المتينَة التي تُؤلِّف بينهم، فتَجدهم يأكلون من صَحْن واحِد، لُقَيْمات تتَشابَك فيها الأَيْدي بالأَيْدي، كما تتَشابَك القلوبُ بالقلوب، وتتَّحِد الأَرْواح بالأَرْواح، ويَضُمُّها الحبُّ والوِئام والمَودَّة والرَّحمة، ومَشاعِر أخرى عميقَة لا يجِدُها الأفراد في ذاك النِّظام الصَّارِم، الذي يَفْصِل الصُّحون وأَكْواب الماء النَّظيفَة، ويُوَزِّعها بحسَب أَعْداد الأفراد ومَجْموعاتهِم المُتفَرِّقة..

وهذه الدَّهْشَة هي التي قادَتْه كذلك إلى الشُّرود خارجَ سِرْبِه، وساقَت عُيونَه المُتطفِّلَة إلى اكْتِشاف كلِّ ما هو جَديد وغَريب، من مَظاهِر وأَنْماط العَيْش المختلفة عن واقعِه وبَيْئتِه، ومُشاهَداتِه اليومِيَّة، من مَتاحِف، ومَعارِض، ومكتبات عامَّة..

وليس من الضَّروري أنْ يَرْتبِط إيقاع الدَّهْشَة والمُفاجَأة بالاكْتِشاف المَوْقوف على المُشاهَدات في الرَّحلات، أو أنْ تكونَ ذات حَجْم كبير وعَظيم، لتُحْدِث أثرَها المَطْلوب في الإِتْحاف، وقوَّة الجَذْب، واسْتِغراق التَّفكير..

بل يَكْفي أنْ تَتوفَّر على تلك التَّنْويعات الثَّائِرَة على الزَّمن المُسْتهلَك، والخارِجَة عن المُعْتاد والمَأْلوف، والمُنْفصِلَة عن

ذاك الصَّف اليومي الطَّويل، والمُنْقطِعَة عن لُزوم ذاك الخَطِّ النَّمَطي المُداوَم عليه عند الشُّروق والغُروب..

فالنّاس غالبًا ما يَطْمَحون إلى دَفْع الرَّتابَة عن حياتهم، عن طريق البَحْث عن ذاك السِّر الكامِن وراء جاذِبيَّة اللَّحظَة الخاطِفَة، وسِحْر المُفاجَأة ذاتِ الوهَج والبَريق الآسِر: «فحين تتشابَه كلُّ ساعات اليوم، وكلُّ أيَّام السَّنَة، تتشابَه أوراقُ اليَومِيَّة المَرْفوعَة إلى الحائِط، أو المَوْضوعَة فوق المكتب، وتتشابَه القُمْصان ذات القُماش الواحِد، ومِقَصُّ التَّفصيل الثَّابِت، تُمْسِك به نفس الأَصابع، تصبح الحياة مجرَّد اسْتِظْهار لدُروس سابِقَة، وإِتْيان في نَفْسِ المَواعيد المَضْبوطَة، ووَضْع الأَقدام على نَفْسِ مَواطِئها المُعْتادَة، لذلك تجِد الناس يَحْفِرون تحت أقدامهم، أو يَنْبُشون وراءَ وسائِدهم، أو يَنْقُبون في جُيوبهِم الخلفِيَّة، أو يَقْرؤون العيون التي يُصادِفونَها في الطَّريق، أو يُقَلِّبون أوراق المجلاَّت، أو يَدُسُّون أُنوفَهم في أَعْمِدَة الصُّحف، بَحْثًا عن عُنْصر المفاجَأة، عن شيءٍ يُشْرِق وَميضًا في عيونهِم، ويَهْتزُّ معنى في أَذْهانهِم، ويَخْتلِج وجيبًا بين أَضْلُعهِم»(1)..

وكذلك الدَّهْشَة في الحُب هي حالَة انْبِهار فريدَة من نَوْعِها، تُحيط المُحِب والمَحْبوب بالكلَف، وتُوَلِّد لديهم جاذِبيَّة في الأَعْماق، مَلْفوفَة في حِجاب الغُموض والإِدْهاش الفَريد، فيَنْقاد القلب إلى ما يَهْوى ويَعْشَق، ويَتجاوَز شُروطَ العقل المُتَطلِّع للنِّظام والتَّرْتيب، ومُوافقَة ما يُناسِب المَنْطِق والإِدْراك..

(1) المرجع نفسه: ص 90 ـ 91.

في مُحاولَة لادِّخار رَوائِع مُدْهِشَة من المعاني، وتَشاكُل مَشاعِر مُتَوهِّجة من غير اسْتِعداد خاص، باسْتِثناء ما يَصْدُر عن تَأْثيرات الدَّهْشَة..

أما الذين لا تَخْتَرِقهُم المُفاجَآت ولا يَجْذِبهُم الإيقاع، ولا تَشْغَلهم لحظَة الدّهْشَة برَوْعتِها وسِحْرها، ولا يَهْتمُّون لمُلاقاتِها بحَفاوة: فقد أَنْهَوْا حسابهم مع الدُّنيا..

فلم يَبْقَ لهم وطَرٌ لا في بَنْك الأَمَل، ولا في بَنْك الحُب، ولا في بَنْك الحِكْمة، ولا في بَنْك الثِّقَة..[1].

أولئك هم المُنْسَحِبون من مَعْركَة الحياة، لوهَنٍ أصابَ نُفوسَهم بالشَّلَل، وعمَد لبُرْج مُراقَبتهِم العَقْلِيَّة ففتَح فيه ثَغَرات، وكادَ لشبَكة جهازهِم العصَبي فأَعْجزَها عن التَّوْصيل، كلُّ البرقيَّات الوارِدَة من الجِهات الأرْبَع، تجِدهُم مُحَصَّنين ضِدَّها بكفاءَة، كلُّ الإشارات اللَّاسِلكِيَّة المُرْسلَة من شتَّى الآفاق تتَلاشى، لدى اصْطِدامِها بلامبالاتِهم المُميتَة، لا كلمة حب تهزُّ وِجْدانهم، ولا فرحَة نَصْر تدفَعُهم إلى الانْخِراط في نشيدٍ جَماعي..[2].

وما دام الإنسان مُسْتعِدًّا للوُقوع تحتَ تَأْثير المُفاجَأة،

(1) لحظة المفاجأة: ص 104.

(2) لحظة المفاجأة: ص 104.

فلْيَحْمَد الله على نِعْمَة لا تُقَدَّر بثمن، نِعْمَة إمْكان أنْ يَنْدَهِش، أنْ يَنْبهِر، أنْ يَنْشَطِر، أنْ يُصاغ من جديد.. لا زالت أمامَه قَضايا مُعَلَّقَة.. ومَواضيع مُرشَّحَة أنْ تُطْرَق، وأُمْنِيات جديرَة بأنْ تُنال، يَمْتدُّ المستقبل أمامَه بمَعْناه الكامِل...[1]



3 ـ إيقاع الكلمة وجاذبية التلقي

إنَّ إيقاع الكلمة هو الذي يُنْتِج النَّص الإبداعي، بالإضافة إلى مُكوِّنات أخرى تَنْسَجِم فيما بينها لتُضْفي صِفَة الجمال، والتَّفَرد في صِياغَة معانيه الفَنِّية والذوقِيَّة، وابْتِكار أساليب الارْتِقاء بموسيقى الكلمات والحروف في تَرابُطِها وتَسَلْسُلِها، وإشْباع معانيها بالتجدُّد والاخْتِلاف، الذي يُثير لدى القُرّاء حِسَّ الانْتِباه سواء على مُسْتوى التَّعبير أو الأُسْلوب، كما يُثير لديهم حِسَّ التَّذَوُّق ونَشْوة التَّلَقِّي المُبْهِر، الذي يوقِع علاقَة تَحالُف وتَمازُج وتَزاوُج مع النُّصوص، التي تَرْتقي بهم إلى إدْراك الغايات والمَقاصِد، لتَبْعَث فيهم الطَّاقَة الكامِنَة للانْجِذاب لوَقْع الكلمات المُنْتخَبَة، واسْتِقبالها كأَنْغام الطَّبيعة وموسيقاها الموحِيَة بالجمال والرَّوْعَة..

لهذا ربطَ الأسترآباذي بين الكلمة والإحْساس في تَأْصيلِه

(1) لحظة المفاجأة: ص 104 ـ 105.

اللُّغَوي «للكلمة» فذكر أنَّ: «اشْتِقاقَ الكلمة والكلام من الكلْم، وهو الجرحُ بتأثيرهِما في النَّفس»[1]. .

حيث جَعلها أَداةً تَعْبيريَّة يَسْتعمِلُها المُتَلفِّظ لبُلوغ جَوانِب موغِلَة في أَعْماق نفسِ المُتَلقِّي، باعْتِبارِها تُبَلِّغ مَعْرفة حَيَّة لا جامِدَة، إذْ من المُسَلَّم به أنَّ مبلغ الإِبْلاغ يَقْتضي آلةً لإِنْجازِه وتَحْقيق وظيفَتِه، التي مَدارُها أن يُخْبِر الكاتِب عمَّا في نَفْسِه من الحِكمْة التي أفادَها والمَعْرفة التي اكْتَسبها، ليُفْسِح المجال للقارئ لإِعادَة الإِنْتاج بدَل تِكْراره. .

فالكتابة سِمَة الوُجود المُرْتَبِط بالحركَة وعدَم الثَّبات، والكتابة هي مُزْدوجَة الطَّابَع من حيث هي تَقْليد أو تَجْويد، نَقْلٌ أو إِبْداع، قَيْدٌ أو تحَرُّر. .

وهذه الحركَة الدَّائِبَة تجعل كلَّ قِراءَة هي كِتابَة، وكلَّ كِتابَة هي قِراءَة، نتيجة تلك العَلاقة المُتلازِمَة بين الألفاظ والمعاني، التي تُقيم بِنْيَة جديدة على أَنْقاض البِنْيَة القديمة، وتَبْتكِر رُؤْيَة ذات آفاق جديدة، لا تَتضَمَّنها الرُّؤْية القديمة للنَّص المَقْروء، لتُقَدِّم دائمًا في الحاضِر والمُسْتقبل إضافَةً جديدة لما هو مُثْبت سابِقًا في الماضي. .

فما دُمْتَ تَقْرأ فأنتَ تُنْتِج فِكْرًا، وما دُمْتَ تُنْتِج فِكْرًا فيَلْزَمُك أنْ تَمْتلِك أَدوات التَّبْليغ، واللُّغة التي تَرْبِط بينك وبين

(1) شرح الرَّضي على كافية ابن الحاجب/للأستراباذي، شرح وتحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة: ط1/2000م.

عالَم الكتابة، التي لها أَبْلغ الأثَر في تَشْكيل خِطابك الثَّقافي والمَعْرِفي، واكْتِساب القُدْرَة على التَّعْبير عن الإبْداع، والصُّدود عن التِّكْرار والتَّقْليد والتَّبَعِيَّة. .

وما دُمْتَ تُنْتِج فِكْرًا فيَلْزَمُك أن تُقَدِّم إضافةً إلى تُراثِ الماضي، وما دُمْتَ تَمْتلِك اللُّغة وأَدواتِ الكتابة فأنتَ مَوْجود، تَحْيا وتَتنفَّس، وتَشْعُر بالواجِب والمَسْؤولِيَّة، ولك طاقةٌ تُزيح العَوائِق وتُسْقِط الحُدود، لتُقَدِّم وثيقة تاريخِيَّة ورِسالةً إنْسانِيَّة تُكْتَب بكلمات من حِبْر المآقي والعُيون، وتَكْتُب شهادة تَضْحِيَّة وفِداء حَدُّها كحَدِّ السَّيْف، يقول ابن سريج: «إنَّ الكلمات إذا رفعَت سَيْفًا فهي السَّيف». .

فالكاتب يموت ويُنْسى، ويَحْيا القارئ بعدَه مُنَعَّمًا بتلك الكلمات الخالدة، وتَغيبُ الأَسْماء والشَّخْصِيَّات والأَبْطال، وتَظلُّ الكلمات تحْمِل معاني وُجودِها وتاريخها الكامِل تتَناقَلُه الأجيال. .

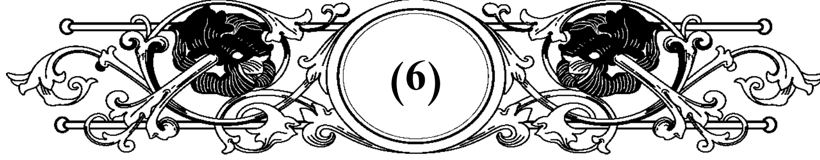
ذلك أنَّ إيقاعَ الكلمات الجميلة أَشْبه بالنَّبضات تَشْعُر بطَرقاتها في الصَّدْر، ودَنْدَنة حُروفِها وهي تَعْزِف على قيثارِ القلب، فلا تَمْلِك أنْ تَخْنق أَنْفاسَها أو تَحْبِس أَنْوارَها خلف الأَسْتار، أو تُخْمِد صَوْتها المُجَلْجِل في الآفاق. .

وإيقاعُ الكلمات الجميلة ذاتُ أَغاريدَ صادِحَة تتنفَّسُها الأقلام، فتَسْبَح بمِجْداف الحُروفِ حيث تشاء، وتُصْغي الأَرْواح إلى خَريرِها وهو ينْساب مع صَفْو المعاني العِذاب في أُفُقٍ بديعِ الخيال، يُرْسِل لجامَ البَوْح فتُشَرَّع نَوافِذُ الكلام البَليغ، ويَنْكسِر

القَيْدُ الشَّديد، ويُرْفَع عن السُّطور سِتارُ الصَّمْتِ الغَريب، فالبَوْح نعمةٌ تُهْدى إلى الأَلْسُن النَّاطِقَة بأَفْراحِ الرُّوح والأتْراح، والبَوْح يَرْسُم البسَمات على تَقاسيم الوجه، كما تَرْسُم الأقلام الكلمات وتَضُمُّها في عِقْدِ الحروف، فتُزيح عن الصَّدْر الجُروح ومَسيل الدُّموع، ويَلْتئِم نزف الأشواق فتَهْدأ ثَوْرة النَّفس وتَصْفو إلى راحَةٍ واسْتِجْمام..

والبَوْح مَرْفأ القَلْبِ الجَموح ومَرْساهُ الآمِن، يهَبُ النَّفس العَليلة سَلامًا وانْعِتاقًا، فتَنْفَكُّ عنها القيود والأَغْلال، وتَنْحَلُّ عُقْدَة الصَّوْتِ الأَخْرَس، فيُجَلْجِل صادِحًا مُغَرِّدًا خارجَ السِّرْب والقُضْبان، وتَطيبُ الرُّوح الظَّمْأى وتَتنفَّس الحياة، كما تَتنفَّس الأرض أَنْفاسَ الرَّبيع..





(6)

رسالة الثقافة

إنَّنا اليوم في مرحلة نحتاج فيها إلى تَكْثيفِ الجهود، لمُواجهَة ما يتعَرَّض له عالمنا الإسلامي من تحَدِّيات خطيرة، وإِنْتاج ثقافة جديدة تُناسِب الواقع والمجتمع، وإِنْتاج ثقافة مُتَحَرِّكة تهَبُ الفِكْر والعَقْل الحُرِّية والتَّقْدير، الكفيلَيْن بإِبْداع ما يُناسِب الحاضِر المُتَقَدِّم، ويُحَقِّق أَهْدافَ الارْتِقاء بالمجتمعات بقيمها الدينِيَّة، والفكرِيَّة، والفلسفِيَّة، والأدبِيَّة، والفَنِّية. . .

وهي الثَّقافة المَسْؤولة عن الحِفاظ على الإيمان، ومُقَوِّمات الدِّين وثَوابتِه، والحِفاظ على الهُوِيَّة والذَّات الإنسانِيَّة، وتَصْحيح الانْحِراف في الاعْتِقاد والفَهْم والممارسة، والتَّصَدي للذين يضْطَهِدون الأفكار المُسْتَنيرة، ويَحْجُرون على كلِّ إِبْداع أو إِنْتاجٍ أصيل .

وهي الثَّقافة الحُرَّة التي لا تَخْلِط باسْمِ الحُرِّية بين المُحافظَة على الأصول والثَّوابت في الدِّين، وبين التقَدُّم والسَّيْر في طريق الإصلاح والتَّغيير، ولا تُفَرِّط في المُحافظَة إلى حَدِّ

الغُلو والجُمود، ولا تُفَرِّط في التقَدُّم بحَركة الإِصْلاح إلى حَدِّ الانْفِلات..

وهي الثَّقافة الخالِيَة من مَظاهِر الانْفِعال والتَّشَنُّج، وشِعارُها الأَخْذ بأَسْباب العِلْم والمَعْرفة، والإِصْغاء إلى صَوْتِ الحِكْمَة، والتَّرَيُّث في إِصْدار الأَحْكام، والتدَبُّر والتَّعَقُّل عند الاخْتِيار واتِّخاذ القَرار، والتَّأَني والصَّبْر وتجَنُّب الانْفِعال الزَّائِد عند النِّقاش والحِوار..



1 ـ إعلاء صوت ثقافة الأمة لا ثقافة النُّخَب..

إنَّ من أهداف الثَّقافة خِدْمَة مصالح الجماعة والأمَّة، وضَمان البَقاء لما هو أَصْلَح للإنسان على اخْتِلاف طَبقاتِه، لا أنْ تكونَ الثَّقافة وَقْفًا على فئة واحِدَة وطبقَة واحِدَة، هي الطَّبقَة الرَّفيعَة داخل المجتمع، لأنَّ الثَّقافة هي مِلْكٌ لكلِّ أبناء المجتمع، ولهم أَهْلِيَّة الإِنْجاز والقُدْرَة على العمَل الجاد، ولهم الحَق الكامِل في مُناقشَة الأَفْكار التي تُدافِع عن حُقوقِهم وتَخْدُم مَصالحهم..

وعلى رجال الثَّقافة والفِكْر المُلْتَزِم أنْ يَتحَمَّلوا مَسْؤوليَّتهُم الكامِلَة في سِياسَة الشُّعوب والمجتمعات نحو التَّرَقِّي والتَّقَدُّم، وأنْ يُحَقِّقوا أَهْداف الثَّقافة وغاياتها النَّبيلة، في بَعْث الدَّوافِع الفِكْرِيَّة والإِنْسانِيَّة، ونَشْر القِيَم الأَخْلاقِيَّة والدينِيَّة، بحيث تتحَرَّك

الثَّقافة وتَنْزِل إلى الشَّارع، وتَشُق الدُّروب والأزِقَّة، ويصير لها وجود حقيقي في الجامِعات كما في المَساجِد، وفي مُخْتَلف المَنابِر العِلْميَّة والاجْتِماعيَّة، وأنْ تكونَ حاضِرَة في صالونات الطَّبقات المُثَقَّفة، ومَجالِس العُلَماء وغَيْرِ العُلَماء، وأنْ تَلِج البُيوتَ والمَنازِل والخِيام، كما تَلِج القُصور والبِنايات الفَخْمة، كي تَحْمِلَها ذاكرة الإنسان المُثَقَّف وغَيْرِ المُثَقَّف، ويَظْهر عَطاؤُها على المُسْتوى الإنساني ككل..

إلا انَّ جُمودَ الثَّقافة عند حُدود تَقْسيم الشُّعوب والمجتمعات إلى طَبقات الضُّعَفاء والأَقْوياء، والمُتَخَلِّفين والمُتَقَدِّمين، والمُتَعَلِّمين والجاهِلين، جَعَلنا غير قادِرين على إنْتاج الأَفْكار التي تَخْدُم مَصالح مجتمعاتنا، وأَصْبحنا أمام تَفْكير مَجْنون، يَتسابق ويَتنافس على إِثْبات حَقيقة غابَوِيَّة وجاهِلِيَّة هي: «إِشاعَة ثقافَة البَقاء للأَقْوى وليس البَقاء للأَصْلح»، فاخْتَفت الأَهْداف النَّبيلة، وحَلَّت مَحَلَّها الأَهْداف المادِّية والمَصالح الشَّخْصِيَّة، وانْتَشرت فِكْرَة التَّفْريق الطَّبَقي، والتَّمْييز العُنْصري والطَّائِفي والمَذْهبي، وتقَلَّصت فِكْرَة التَّكافُل والتَّعاوُن، والاتِّحاد بين طَبقاتِ المجتمع وفِئات الشَّعب، وتَخلَّى أصحاب الأقلام الحُرَّة عن رسالتهم السَّامِيَة، كما تَوارى رجال الفِكْر الأصيل، الذين يَمْتازون بأَصالَة التَّفْكير وبراعَة الفَهْم، والقُدْرَة على إِنْتاج الثَّقافة النَّافِعَة لمُسايرَة العَصْر، والانْسِجام مع تَطَوُّر البَشريَّة..



2 ـ التَّجاوب الثقافي مع لسان اللغة ورابطة الدين والدم

إنَّ الثَّقافة تحتاج إلى تَكْثيف الجُهود لتَخْريج أبناء صالحين، عن طريق تحقيق التَّجاوُب بين لسان اللُّغة ورابطَة الدِّين والدَّم، وإعْداد المُعَلِّمين والمُتَعَلِّمين إعْدادًا سليمًا، للنُّهوض بطَلائِع المُكافحين من المُحافِظين، والغَيورين على اللِّسان العَربي والدَّم العَربي، ودين الإسلام ورسالته، حتى تَتآلف قلوبهم وتَتَّحِد ككُتْلةٍ واحدة، ذات إحْساس واحِد، واتِّجاه واحِد، وغاية واحِدَة، تُنافِح عن تلك الثَّقافة التي تُوَحِّد بينهم برابطَة الدِّين واللُّغة والدَّم، وتَحْميهم من مُخَلَّفات ثقافة الغالِب والمُسْتعمِر . .

وأنْ تتصَدَّى لأولئك الذين يَنْفُثون سُمومَ أَفْكارهم المُنْحَرفة في روح النَّاشِئَة، وأنْ تَنْسِف دَسائِس أولئك الذين يَبثُّون ثقافتهم الضَّالة، عن طريق زَرْع التَّشْكيك في النُّفوس حِيالَ مبادئ الإسلام، لاجْتِثاث أبناء الأمَّة الإسلاميَّة من جُذورِها، وفَصْلِها عن أُصولِ تعاليمِها.

وقد نبَّه قديماً الشيخ محمد المختار السوسي[1] إلى

---

(1) هو الشيخ محمد المختار بن الشيخ علي السوسي الإلغي، وهو عالم ومؤرخ، وكاتب، وشاعر، ومدرس. . .
من مواليد «إِلْغ» وهي قرية بسوس، ازداد في صفر سنة 1318هـ، ودرس أولاً بسوس، ثم أتم دراسته بمراكش وفاس والرباط، اشتغل بالتدريس والتأليف، وأنشأ مدرسة بمراكش، ثم بالبيضاء، وألف عدداً =

خُطورَة الاسْتِعمار ودَسائسِه الخَبيثة، وتَأثيراتِها على النَّاشِئَة حيث قال: «فتح الاستعمار مَغاليق شتَّى عن أصناف شتَّى من مكايِده، ثم حاول بكلِّ ما يملكُه من لباقَة وخَلابة وزَخْرفة وتَمْويه، أن يَنْفُث سُمومَه في الروح التي يرِثُها الابن المسلم عن آبائه، فما ترك من تعاليم الإلحاد ولا من التَّشكيك في مبادئ الإسلام، ولا من مُفْسِدات الأخلاق، إلا عرضَها عَرْضًا أمام النَّشْء بكلِّ مُصابرَة ومُثابرَة، فلم يترك لا مدرسةً ولا مسرحًا ولا زاوية من زوايا الحياة، التي لا بدَّ أن يُلِم بها النَّشْء إلا زرعَ فيها ما يمكن أن يَجْتَث جذورَ تعاليم الإسلام السَّامية من العقول (. . . .) فإنَّ الاستعمار أصناف، فأَدْناها استعمار الأرض، وأَشدُّها استعمار العقول والأفكار، فقد وُفِّقْنا إلى زَحْزحَة استعمار الأرض السَّهل، وبقِيَ أن نُزَحْزِح استعمار العقول والأفكار عن ثُلَّة قليلة من أبنائنا، فيجب أن نعرض أمامهم ما جَهِلوه عن دين الإسلام وعن مبادئ الحق، وعن مغازيه في الحياة، فإنَّ بعض من تأثَّروا بما دُسَّ إليهم حسَنو النِّية، ويدركون بسرعة، وأرى أنَّ هذا من أَوْجَب الواجبات على نُخْبَة

= من الكتب، يأتي في طليعتها كتابه المسمى «المعسول»، ويقع في عشرين جزءاً، وقد تولى وزارة الأحباس ثم وزارة التاج إلى وفاته في زوال يوم الأحد 29 جمادى الثانية سنة 1383هـ، الموافق لـ 17 نونبر 1963م. . .

نقلت ترجمته عن موسوعة أعلام المغرب/تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي ـ ط. الأولى (1417هـ ـ 1996م): 9/3375 ـ 3376.

من شبابنا جمَعوا بين الثَّقافتين ودرَسوا الإسلام حقَّ الدِّراسة، فهم وحدهم الذين يمكن لهم أن يأخذوا بأيدي أولادنا هؤلاء بمُلاطفَة، حتى إذا أدركوا وفهِموا، فإذْ ذاك تسير الأمَّة كلها في صفٍّ واحد في تفكيرها وفي مُثُلِها العُلْيا»[1]..

ولا خلاص لنا من من هذه المحنة، إلا بإِحْياء الدِّين من جديد في أَصْلاب هذا الجيل الجديد، بحيث يكون حاضِرًا في نُظُمِها التَّعليمِيَّة والتَّرْبويَّة، لأنَّ أحكام الشَّريعة هي مِثالٌ للإنسانِيَّة الكامِلَة، وتَسْتمِدُّ قُوَّتها من إِقْرار العدل والحرِّية، والاعْتناء بالمَصالح العامَّة..

كذلك للخروج من هذه المحنة لا بدَّ من مُراعاة ما تُمْليه علينا الظُّروف والأَحْداث الجارِيَة، وما توجِبُه الأَحْوال القائِمَة من تَرقيات في مُخْتَلف مجالات الحياة، مع التوسُّط في الأَخْذ بأسباب التقَدُّم، فلا يتحَوَّل إلى تمَدُّن جامِح، ولا يَسْقُط في التَّخَلُّف الفاضِح..



3 ـ خلق انسجام ثقافي بين أنصار القديم وأنصار الحديث

إنَّ خَلْق الانْسِجام الثَّقافي بين أنصار القديم وأنصار

(1) لنكن مسلمين أولاً/للشيخ محمد المختار السوسي ـ مجلة دعوة الحق: العدد الثاني (1376هـ ـ 1957م): ص 6.

الحديث، يحتاج إلى خُروج المُثَقَّفين من قَوْقعَة الانْحِسار الثَّقافي والرُّكود المَعْرِفي، ويَتحَرَّكوا خارج أَبْراجهم العاجِيَّة وسراديبهِم المُظْلمَة، فيصبح لديهم انْتِساب إلى الثَّقافة في آفاقِها الواسِعَة، ويُفَكِّروا بجِدِّية في مَشاكِل مجتمعاتهم، ويُواجِهوا تحدِّيات عَصْرهِم..

وهذه الثَّقافة هي التي سَمَّاها الأستاذ عبدالكريم غلاب(1) «بالثَّقافة المتحَرِّكة» و«الثَّقافة الثَّائِرة» في كتابه: «الثقافة والفكر في مواجهة التحدي» فقال: «إنَّ الثَّقافة التي تواجه التحَدِّيات ثقافةٌ متحَرِّكة، لأنَّها تعطي فتَصْطَدِم بمن لا يَقْبَلون العَطاء، أو بالأفكار التي تحاول أن تَكْتُم العَطاء، والثَّقافة التي تواجِه التَّحَدي ثقافة ثائِرَة لأنَّها تتمَرَّد على المُنْحَرِف من الماضي والمُنْحَرِف من الحاضِر لبناء مستقبل مستقيم (...) والثَّقافة التي تواجه التَّحَدي ثقافة بالِغَة أهدافها لأنَّها قبِلَت النِّزال في ميدان الصِّراع والبقاء للأَصْلَح، ولو كانت ثقافة مُسْتَنيمة لما وجدَت

(1) هو أديب مغربي ولد بفاس سنة 1919م، درس في جامع القرويين، وتخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة في قسم اللغة العربية، وعمل أستاذاً في المدارس الثانوية المصرية بعد تخرجه من كلية الآداب، وتم اختياره أميناً عاماً لمؤتمر المغرب العربي الذي عقد سنة 1947م، ولما عاد الى المغرب اشتغل بالصحافة والآداب وترأس مجلة رسالة المغرب، وساهم في تأسيس اتحاد كتاب المغرب، وعمل بوزارة الخارجية سنة 1956م كما عين وزيراً سنة 1983م، وتوزعت أعماله بين الروايات والقصص القصيرة والدراسات الأدبية والسياسية والإسلامية والتاريخية والفكرية...

من يتحَدَّاها»[1]. .

كما يحتاج هذا التحدِّي إلى إثارَة غَيْرة حمَلَة الأَقْلام وعُدول الشَّريعة، ليُزيحوا النُّفْرَة بين أَنْصار القَديم وأَنْصار الجَديد، وأنْ يُنْتِجوا الثَّقافة اللَّازِمَة ذاتِ المُرونَة الكافِيَة لتَقبُّل الأَفْكار، على اخْتِلاف اتِّجاهاتها وتَنَوُّع مَذاهِبها، ذلك أنَّ من أسباب التَّنافُر الثَّقافي، والتَّراشُق بسِهام التَّعَصب بين الفِرَق المُخْتَلفة، هو تَخَوُّف كلِّ جانِب من التَّفْريط في مُكْتَسباتِه، أو انْتِهاك حَقٍّ من حُقوقِه في إثْباتِ وُجودِه، وتَطَلُّع كلِّ فريق إلى فَرْض سُلْطَتِه وتَنْفيذِ خُطَّتِه، ثم لقِلَّة الوُثوق بإِمْكانِيَّة التَّعايُش الثَّقافي والفِكْري بين فريقٍ وآخر، أو إمْكانِيَّة التفَوُّق على الخِلاف والتعصُّب، أو النَّجاح في خَلْق انْسِجام بينها، مما أدَّى إلى تَشْكيك كلِّ جِهَة بما تَحْمِلُه الجِهَة الأخرى، ووُقوف كلِّ جِهَة في صفِّ المُعارضَة ضِدَّ الجِهَة الأخرى، واتِّهام كلٍّ منهما للأخرى وإنْ كانت على صَواب وتُوافِق الحَق ولا تخالفه، وتنْسَجِم أفكارُها مع أُصولِ الحياة الجديدة. . وهذا التَّناحُر قد ضاعَف من حِدَّة الجُحود والعِناد، وساهَم في اتِّساع رُقْعَة الخلافات بينهما، ولو سَلك كلٌّ منهما مَسْلكًا مُنْصِفًا يُراعي التوسُّط والاعْتِدال، وطبَّقا معًا أَحْكام الشَّريعة، والْتزَما بتَعاليم الإسلام السَّمْحَة، لأَمْكَنهم الجَمْع بين الرُّؤى المُخْتِلفة والأَفْكار المُتَعدِّدَة، ولاسْتَطاعوا أنْ يتغَلَّبوا على مَشاكلِهم الحادِثَة،

---

(1) الثقافة والفكر في مواجهة التحدي/عبدالكريم غلاب ـ دار الثقافة، ط 1976م: التقديم ص5.

وتَجنَّبوا الصِّدامات القائِمَة، ولو أَخْلَصوا النِّية وصَحَّت مَقاصِدهم، وزكَت نفوسهم وتَطهَّرت من الخَبائِث، وصدَقوا في حَمْل رسالة الثَّقافة بأَمانة وإِخْلاص، لاكْتمَل لديهم النُّضوج الثَّقافي، ولاتَّحَدوا فيما بينهم وتَعاوَنوا على دِراسَة وتَحْليل عَناصِر الخِلاف، وتَوصَّلوا إلى مَعْرفة الأَسْباب والحُلول، وعَرضوا أَحْكامهم للنَّقْد والتَّقْويم، خارج دائِرَة الأنا والمَصْلحَة الطَّاغِيَة، واشْتَغلوا سَويًّا فـأَنْتَجوا ما يَعودُ عليهم وعلى الأمَّة بالنَّفْع، وتحَرَّوْا مُراعاة مَصالح العِباد، ورَدُّوا عن ساحَتِهم الشُّبَه والمُغالطات، إخلاصًا للحَق لا إخلاصًا لأَهْوائهم وغاياتهم المُنْحطَّة..



4 ـ مستقبل الثقافة الحضاري ليس سهلاً يسيراً..

إنَّ السَّير بالثَّقافة اتجاه مستقبلنا الحضاري ليس سَهْلاً يسيرًا، بل تواجِهُه تحَدِّيات كثيرة وجَسيمة، وأَخْطر عقَباتها ما يُثيره أعداء مَسيرتها الحَضارِيَّة المُسْتقبلِيَّة من أَسْباب ومَوانِع، تَدْفعُها إلى حالاتِ التَّردي والتَّراجُع سنواتٍ إلى الماضي في مَواقفِها الدينِيَّة، والسياسِيَّة، والفكرِيَّة، والاقتصادِيَّة..

لهذا يجِب تَنْسيق العمَل الثَّقافي داخل مجتمعاتنا، والتوَجُّه بالمَسيرة الثقافِيَّة نحو الأمام، حتى تتصَدَّر الصُّفوف الأمامِيَّة، وتَنْطلق من صَميم المَنْهج الإسلامي، الذي جعَل هذه الأمَّة أمةً

وسَطاً، تَدْعو إلى الاسْتِقامة والعَدْل في التَّعامل والسُّلوك، والتَّعايُش مع مَنْ هم مختلفين عنَّا في الفَهْم والاعْتِقاد والتدَيُّن، في مُحيط يَسودُه الأَمْن والسَّلام، والإِحْسان إلى الآخر ومَدِّ يَدِ المَعونة إلى مَنْ يَحْتاج إليها..

كما على المثقَّفين اليوم واجِب المُراجعَة الجادَّة لواقعِنا المُتَخَلِّف، وتَصْحيح مَواطِن الزَّلَل والخلَل، وتَرْميم جَوانِب الضَّعْف ومَزالِق السُّقوط والانْهِيار، والتَّنْسيق بين فئات المجتمع وطبقاته لإِعْلاء الصَّوْت الأَصيل المُعاصِر، وصَوْت الإِصْلاح والتَّغْيير الإيجابي، وتَقْديم النَّموذَج الصَّحيح للمُثَقَّف المسلم الملتَزِم بهُويَّتِه الدينيَّة والثَّقافية، والمُنْفَتِح على ثقافاتٍ أخرى مُتَنوِّعَة، بقَدْر الضَّرورَة والحاجَة للتقدُّم والازْدِهار ...

وبهذا نُحَقِّق لثقافتنا الرِّيادة الحقيقية، التي تُعَلِّم وتُرَبِّي جيلاً مُثَقَّفًا، وتُنَمِّي فِكْرًا ناضِجًا وواعِيًا، ومُؤَهَّلاً لحَمْل أمانة البِناء، وتَأْسيس قواعِد الثَّقافة الأصيلة والمعاصرة، وإِحْياء القيم التي تُحافِظ على كرامة الإنسان ولا تُهَدِّد مَصالحه، ولا تَضْطهِد حُرِّيته في التَّعْبير المَشْروع وممارسَة حُقوقِه في أَمْنٍ وسَلام..





(7)

الثقافة.. حياة المجتمع

إنَّ طريق الإصلاح والتَّغيير يحتاج إلى انْبِعاثِ الفِكر، وتجديدِ العقل للنُّهوض بمَهامِّه في نَشْر الثَّقافة، وإِشاعَة العُلوم والمَعارف، وتَطْبيق أَحْكام الشَّريعة في مُخْتلف مجالات الحياة، ونَقْدِ الواقع بعد فَهْمِه في مَظاهِره وصُوَرِه المَقْصودَة بالتَّغْيير والإصلاح..

وفي هذا الشَّأْن يقول الأستاذ عبدالمجيد النجار[1]: «إنَّ

---

(1) ولد عبدالمجيد النجار سنة 1945م بمدينة بني خداش بولاية مدنين التونسية، تحصل على شهادة الدكتوراه في العقيدة والتشريع سنة 1981م، عمل كأستاذ بالجامعة الزيتونية ثم بجامعات عديدة بالعالم العربي منها الجزائر والإمارات وقطر والمغرب، وشغل منصب عضو المكتب التنفيذي للاتحاد العالمي للعلماء المسلمين وترأس فرعه في تونس، وكان كذلك عضو المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، ومن مؤلفاته:
* خلافة الإنسان بين الوحي والعقل: بحث في جدلية النص والعقل والواقع، * العقل والسلوك في البنية الإسلامية، * في فقه التدين فهما =

كلَّ حركة تغيير لا تُفْهَم حَقَّ الفهم في مقولاتِها ومنهجِها إلا بفهم الواقع الذي نشَأت فيه وهدفَت إلى تغييره، ذلك لأنَّ التَّغيير يبْتَدِئ بنَقْدِ الواقع نقدًا يُفْضِي إلى الحُكْم عليه كليًّا أو جزئيًّا بالبُطْلان (....) وينتهي بإِلْغائِه وإِحْلال صُوَر أخرى محله، فهو بهذا المعنى يتنزَّل منزِلَة السَّبَب بالنِّسبة لحركَة التَّغيير، ولا بدَّ من فَهْم المسبب من فَهْم عميق للسَّبب، فإنَّ العمل التَّغييري بِحُكْم معالجَتِه للواقع ومُباشَرتِه له، يكون مُتَأثِّرًا في منهَجِه وأساليبِه ببِنْيَة ذلك الواقع وطبيعَةِ تركيبِه، حيث إنَّه يَنْزِع إلى اتِّخاذ المناهج والأساليب التي تتلاءَم مع تلك الطَّبيعة، وتكون أَبْلَغ في التَّقْويض والهَدْم، ولذلك فإنَّ الوقوف على مناهج التَّغيير في أيِّ حركة وفَهْمِها جَيِّد الفَهْم لا يتَأَتَّى إلا باستيعاب عناصِر الواقع الذي هدفَت إلى تغييره، والنَّفاذ إلى حقيقته في مختلف الصُّوَر»[1]..

وطريق الإصلاح والتَّغيير يَحْتاج إلى الاسْتِعداد لإِثْبات البَقاء للأَصْلح، وأنَّ العِبْرَة بالمُحْتَوى لا بالقِشْر الظَّاهِر..

لهذا على المثقَّفين أنْ يُساهِموا في تَحْسين ظُروف فئات المجتمع وطَبقاته، ولا يقِفُوا مَوْقِفَ المُتَفَرِّج العابِث، الذي لا

= وتنزيلا، * مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، * مراجعات في الفكر الإسلامي، * في المنهج التطبيقي للشريعة الإسلامية، * تجديد فقه السياسة الشرعية...

(1) تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت/د.عبدالمجيد النجار ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير(2) ـ الطبعة الثانية 1415هـ/1995م: ص 43.

يُتْقِن إلا تَقْطيبَ جَبينِه، والتَّفْكير الضيِّق الذي لا يَتجاوز مَوْطِئ أَقْدامه وحَدَّ إبْصاره، وأنْ لا يَأْخُذَهم الانْجِذاب إلى شَوارِد الأَفْكار واتِّباع الملَذَّات والأَهْواء، فيَقعوا في الاسْتِلاب والانْجِذاب إلى كلِّ ما هو مُبْهِر وآسِر، دون أيِّ وَعْي يَقِظ بالمَسْؤوليَّة والالْتِزام بأمانة التَّكليف، ودون أيِّ شُعور بوَخَزات الضَّمير الصَّاحي، الذي يهتَزُّ لكلِّ نَبْضَة إحساس حِيالَ ما يقَع ويحْدُث، ونَضيرُ هؤلاء هم أشخاصٌ سلبِيُّون في المجتمع، فهم يَسْتهلِكون أكثر مما يُشارِكون ويُنْتِجون..

وقد تحَدَّث مالك بن نبي عن طبيعة العلاقة الثَّقافية في كتابه: «مشكل الثقافة»، فاعتبر القيمة الثَّقافية للأَفْكار تقوم على طَبيعة عَلاقتِها بالفَرْد وصِلتِها بعالم الأَشْياء، وهذه الصِّلَة هي التي تُجَسِّد ما يُصْطَلح على تسْمِيَتِه «بالعلاقة المتبادلة»، بين سُلوك الفَرْد وأُسْلوب الحياة في مجتمع معَيَّن..

وبالتالي فالثَّقافة عنده هي التَّعبير الحِسِّي عن علاقة الفرد بهذا العالم، وكما أنَّ الفَرْد إذا فقَد صِلتَه بالمجال الحيَوي، تَقَرَّر أنَّه مات مَوْتاً مادِّياً، كذلك الأَمْر إذا فقَد صِلتَه بالمجال الثَّقافي فإنَّه يَموت مَوْتاً ثَقافِيًّا، وبالتالي فالثَّقافة هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعاً ميِّتاً..[1].

لأنَّ الثقافة بلا مَوْقِف جريء هو اسْتِسلامٌ وخُنوع، وانْفِصال للشُّعور الإِنْساني عن روح الثَّقافة، وعن جَوْهر تَجلِّياتها

---

(1) مشكل الثقافة/مالك بن نبي ـ دار الفكر بدمشق، ط الرابعة 1984م: ص 49 ـ 50 بتصرف.

وتَأْثيراتها على الفَرْد والمجتمع، وإِقْرارٌ بمَساوئ الواقع المُتأَزِّم، والرِّضا عن الانْتِهاكات التي تُرْتكَب في حَقِّ الإنسان، وقد أَلَّف الأستاذ أحمد بوعود[1] كتابا سمَّاه: «فقه الواقع.. أصول وضوابط»، مُشاركًا من خِلاله في تَحْقيق الوَعْي الحَضاري والثَّقافي، كسَبيل لإِعادَة قِراءَة الواقِع والتَّفَقُّه بكَيْفِيَّات تَغْييره، وتَحْديد مَواطِن الخَلل وأَسْبابه التي لحِقَت بالأمَّة المسلمة، فأَقْعَدَتها عن التَّفَقُّه بالحاضِر، واسْتِشْراف الماضي، والتَّبَصُّر بالمُسْتقبل..

وله كلامٌ نَفيس حَوْل أُصول فِقْه الواقِع وضَوابطِه، حيث اعْتَبر الاعْتِراف بالواقِع من القَضايا الجَديرة بلَفْت النَّظَر، وهو لا يَدْعو من خِلال هذا الاعْتِراف إلى الإِقْرار بمَساوئِه، أو الإِعْراض باسْم الواقِعِيَّة عنْ بعض ما أَنْزل الله، ومخالفَة ما جاء في الكتاب والسُّنة، وتَحْريف كيفِيَّة التَّعامُل معها، بل كان يرى أنَّ البَدْء في أيَّة عَمليَّة للتَّنْمية، لا بُدَّ لها أنْ تَأْخُذ في اعْتِبارها هذا الواقِع ولا تَتجاهَله، لأنَّ القَفْز من فَوْقه وعدَم أَخْذِه بعَيْنِ الاعْتِبار، هو اسْتِنْبات للبُذور في الهواء بدَل زَرْعِها في الأرض،

(1) من مواليد تطوان ـ المغرب عام 1966م، تخرَّج من جامعة القرويين (أصول الدين) عام 1992م، كما تخرَّج في مركز تكوين المعلمين بتطوان عام 1993م، وعمل مُدَرِّسا بنيابة وزارة التربية الوطنية بتطوان، له العديد من الدراسات والمقالات المنشورة في مجالات الاجتهاد والتجديد والتغيير منها: «قراءة في تاريخ الفقه الإسلامي»، «أزمة الاجتهاد بين الأمس واليوم»، و«الأساس التربوي في سياسة عمر بن العزيز»...

أمَّا التَّنازُل عن القِيَم وتَجْميد فاعِلِيَّتها، وإقْرار الظُّلْم والعُدول عن الحَق، والاسْتِنْقاع الحَضاري باسْم الواقعِيَّة، هو فُقْدان للإرادَة وانْتِحار جَماعي وانْحِدار بشَري، وقَضاء على أيِّ أمَل في الإِصْلاح[1]..

كذلك تحتاج الثَّقافة إلى إعادَة النَّظَر في المَفاهيم والمُصْطلحات، وأنْ يُشارِك المُثَقَّفون في بَعْث مَضامينها الحَقيقِيَّة، وإحْياء مَعانيها وغاياتها النَّبيلة حتى تُؤدِّي وظيفتَها، فاخْتِلافُ وِجْهاتِ النَّظَر حولها يؤدِّي إلى مُمارسات مُخْتَلفة على مُسْتوى التَّطبيق، قد تُسيئ إليها ويَعْظُم الخَطْب إذا تَعلَّق المَعْنى بكلام الله ورسوله ﷺ..

لهذا نبَّه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ضَرورة ضَبْط المصطلح ومَدْلولاتِه في فَهْم الكلام الصَّادِر عنهما فقال: «ومِنْ أَعْظم أسباب الغلَط في فَهْم كلام الله ورسوله، أنْ يَنْشأ الرَّجُل على اصْطِلاح حادِث، فَيُريد أنْ يفَسِّر كلام الله بذلك الاصْطِلاح ويَحْمِله على تلك اللُّغة التي اعْتادَها»[2]..

وقال في سِياق هذا المَعْنى مُؤَكِّدًا على أَهمِّية هذا الضَّابِط

(1) فقه الواقع (أصول وضوابط)/أحمد بوعود ـ ضمن سلسلة الكتب التي يصدرها مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر: ص 10.

(2) مجموع الفتاوى/لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، ط. الأوقاف السعودية (1425هـ ـ 2004م): 12/106 ـ 107.

نَظرًا لما حصَل بسبب الإِخْلال به من الغلَط على الشَّريعة: «ومَنْ عَلِم أنَّ دلالَة اللَّفظ تختلف بالأفراد والاقْتِران كما في اسْمِ الفقير والمسكين، والمعروف والمنكر والبغي وغير ذلك من الأَسماء، وكما في لغات سائر العالم عَرَبِها وعجَمِها، زاحَت عنه الشُّبهة في هذا الباب»[1]..

فالابْتِعاد عن المَنْهج العِلْمي السَّليم في الفَهْم والتَّعامُل والاسْتِدْلال، قد أَساء إلى مجموعة من المصطلحات بما فيها مصطلح الثَّقافة، التي خَرجت عن ضابِط مَدْلولها، وانْحرفَت عن جادَّةِ مَفْهومها، وتَلوَّنَت بأَلْوان الانْحِراف الدِّيني والأخلاقي، فطغَت عليها مَظاهِر الجَهْل في الفَهْم، والخَلَل في التصوُّر والمُمارسَة، وظلَّت الأفكار حبيسَة مُحيطِها المُنْغَلق وواقعِها المُتَأزِّم، الذي حسَر عنهم آفاق التَّطَلع إلى خَلْق انْسِجام ثقافيّ بين الماضي والحاضر..



1 ـ حاجتنا إلى انْبعاثٍ ثقافي

إنَّ الثَّقافة الإسلامِيَّة في حاجَة إلى مَدِّ شَرايينها بدَم طاهِر من لوَثِ الجهل والجمود، وإلى إِحْياء فَوْرَة التَّجديد في عُروقِها الضَّيقَة، حتى تشْمَل العلوم والمعارف التي ترْقى بطبقات

(1) مجموع الفتاوى: 7/576.

المجتمع، ولا تنْحَسِر في مجالاتٍ تَبْقى وَقْفًا على النُّخَب وطبقة النُّبلاء..

والثَّقافة الإسلامِيَّة لن تنْهَض إلا إذا تيسَّرَت لها سبل الازْدهار وأسباب التَّرَقِّي، وتَوفَّرَت مَلكتها لأبناء الأمَّة وشبابها، وَفْقَ تَرْتيبٍ يُناسِب الواقع واحْتِياجات العصر، ويُؤَهِّلهم للاضْطِلاع بجَلائلِ الأَعْمال، وفَكِّ قُيودِ الحِصار الثَّقافي التَّقليدي، الذي جعَل الفِكْر مُنْكمِشًا على نفسه، وجعَل العَقْل خامِلاً وغارِقًا في غَيباتِ جُبِّ الجهل العميق، ومُتَحَجِّرًا على الماضي السَّحيق الذي لا يَبْعث في أَرْكان المجتمع نَهْضة، ولا ثورَةً ثقافِيَّة تُحَرِّك الدَّم الرَّاكِد في أَوْصاله الجامِدَة، فصَوْتُ الثَّقافة لا يَعْلو وفي حِباله المَعْرفيَّة انْقِطاعٌ وتَمزُّق، يَجْعل العلوم والمعارف تَصْدَأ كما تَصْدَأ القلوب، فلا يَنْجَلي عنها قِشْرها السَّميك..

وهذه الأوضاع قد شكَّلت مَأْزَقًا ثَقافيًّا يَمْتدُّ بامْتِداد مَظاهِر الاضْطِراب والعَجْز، والقبول بالتَّقْليد والتَّبَعِيَّة للغالِب، والخُضوع لتَأْثيراتِه السلبِيَّة على المجتمعات الإسلامِيَّة، وانْعِكاساته الانْهِزامِيَّة على هُوِيَّتها ونَسقِها الثَّقافي والحَضاري..

وهذا المَأزق الثَّقافي قد نبَّه إليه د. طه جابر العلواني فقال: «إنَّا لا نزال نعيش حالات الاضْطِراب والعَجْز عن تفَهُّم طبيعَة نسَقِنا الحضاري الإسلامي، والقُدْرة على الإبداع ضِمْنَه أو الوقاية من فعالِيَّة انْعِكاسات وتأثيرات الأَنْساق الحضارِيَّة العالمِيَّة الأخرى القائمَة علينا، وهذه الأوضاع بجملتها شكَّلت ولا تزال

تُشَكِّل مأزَقًا مُتَعدِّد الوجوه مُرَكَّب العناصر، مما جعل المجتمعات الإسلامِيَّة تعيش حالة اسْتِتْباع لغيرها، وتتعرَّض لضُغوطٍ مختلفة تكاد تُفْقِدُها هُوِيَّتَها ونسقَها الحضاري والثَّقافي وتقضي على شخصِيَّتها، فنحن لا نواجه اهْتِزازًا في بنْيَتِنا الدَّاخلية ونسَقِنا الحضاري الإسلامي فقط، ولكنَّنا نعيش أيضاً مخاطِر فُقْدان الكيان والهُوِيَّة، والذَّوبان في أيِّ كيانٍ يُصْنَع لنا أو يُراد لنا الذَّوَبان فيه»[1]. .

والثَّقافة الإسلامِيَّة لن تَنْهَض في وسَط يعُجُّ بالصِّراعات، التي تَدْفع كلَّ طَبقة ثَقافيَّة إلى التعصُّب المَقيت، ومُحاربَة الأَفْكار المُخالِفَة لأَفْكارها وإنْ كانت على الصَّواب والحَق، ولن يَتحقَّق التَّغيير إلا إذا حرص أبناؤها على خَلْق انْسِجام ثقافي يُزيح الهُوَّة السَّحيقَة التي تَفْصِل بينهم، فيُوَحِّدوا الرُّؤى ويُقَرِّبوا بين الأفكار حتى لا تختلف عليهم السُّبُل، ولا تَضيع الثقَّافة وسَط الفِرَق التي تَتنكَّر لبَعْضِها البَعْض، ولا تَضيع هُوِيَّة المجتمع بين أَنْواع مُخْتَلفة من الثَّقافات، في مرحلة نحن في أَشَدِّ الحاجَة إلى التَّعاوُن والتَّضامُن لاسْتِجماع الهِمَم، وشَدِّ عَزائِم أَبْناء الأمَّة للتَّغَلب على مَظاهِر الشَّتات، والانْفِصام بين فُروعِها وأُصولها المُجْتَثَّة، بسبب التَّعصب بين طبقات ثقافِيَّة متعدِّدة المَشارِب. .

فإِحْياء الثقَّافة العربِيَّة الإسلامِيَّة هي وسيلةٌ من وسائل إِنْجاز الأعمال الجَليلة، التي تمَهِّد للوُصول إلى الأهداف التي تُساهِم في

(1) تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت/عبدالمجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي الطبعة الثانية سنة 1995م: ص 12.

حَلِّ مُشْكِلات العَصْر وتَنْظيم المجتمع، ويُعَدُّ المغرب من بين البلدان العربية التي كانت وما تزال تُعاني من مُشْكلة تَعدُّد أَنْواع الثَّقافات، التي تَسْتَوْجِب تَحْقيق الانْسِجام بينها على الوَجْه اللَّائِق. .

وقد تعرَّض الأستاذ الطَّاهر زنيبر[1] ـ في مرحلة ما بعد استقلال المغرب ـ إلى هذه المُشْكلة، ودَعا إلى تَحْقيق هذا الانْسِجام الثَّقافي، وحَثَّ المُثَقَّفين المغاربة على مُواصَلة الكفاح، الذي يَسْتَوْجِب عليهم تَسْخير العُقول الرَّاجِحَة في معركة البِناء والإِنْشاء، وتَهْيِيء وَسائِل للسُّمُو بالثَّقافة بما يَكْفُل لأمَّتِنا الارْتِقاء إلى أَعْلى الدَّرجات، وإِدْراك مكانة مَرْموقة في العالَم المُتَحَضِّر. .

لأنَّ الثَّقافة في هذا العصر: «ليست في حاجَة إلى الاسْتِدلال على أنَّها هي العَصا السحرِيَّة، التي يَسْتعملها الإنسان لِحَلِّ كلِّ ما يَعْترِضُه من مشاكل، فهي التي تُسَخِّر له الطَّبيعة

(1) هو من المنتمين إلى جامعة القرويين في أواسط الأربعينيات، حفظ القرآن الكريم وألمَّ ببعض المتون اللغوية والفقهية في المرحلة الابتدائية بزاوية آل زنيبر حيث مدْفَن جده الأعلى محمد زنيبر بحي البليدة بسلا، ورحل رفقة شقيقه الأستاذ القاضي محمد زنيبر إلى مدينة فاس لمتابعة دراستهما الإعدادية والثانوية، فحصل على شهادة البكالوريا والتحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وحصل على الإجازة في اللغة العربية والدراسات الإسلامية بتفوق، وعمل أستاذاً للغة العربية بثانوية الأميرة للا نزهة بالرباط، ثم التحق بالقطاع الإداري سنة 1959م وعمل في إطار الوظيفة العمومية باحثاً إدارياً، شارك الأستاذ عبدالسلام البكاري في تأليف كتاب في علم الفرائض، وله كتاب في علم العروض لتلاميذ البكالوريا، كما نشرت له جريدة العلم عدة مقالات. . .

وتُعْطيه الطَّاقة والقوَّة، وتُسَهِّل عليه تنظيم المجتمع الذي يعيش فيه، فبالعِلْم والثَّقافة فُتِح ما كان مُغْلَقًا من أسرار الكون، وتدَفَّقَت الخَيْرات والأَرْزاق في المَعْمور، وتيَسَّرت المواصلات في شَتَّى أشكالها وأنواعها، واسْتُخْرِجَت الكنوز الكامِنَة في باطِن الأرض، وارْتفَع الإِنْتاج الصِّناعي والاقتصادي والفلاحي، وتطوَّرَت أساليب الحُكْم والإدارَة والقَضاء، وتحسَّنَت أَذْواق النَّاس في معاملاتهم، ومَأْكلهِم ومَشْربهِم، ومَلْبسهِم، ومَسْكنهِم، وأَرْهَفَت إحساساتهِم ومشاعِرَهم، وسمَتْ الفُنون الجميلة، ولم تَبْق وَقْفًا على طبقة بل صارت مِلْكًا مُشاعًا في المجتمع للتَّرفيه عن النَّفس وإِعْدادِها لما يَنْتظِرها من أعمال»[1]..



2 ـ إعادة النظر في البرامج والمناهج التربوية والتعليمية

إنَّنا في حاجَة ماسَّة وضَرورة مُلِحَّة إلى إشاعَة الثقافة وإِرْساء قَواعِدها وإِظْهارِها للعِيان، بإِبْراز الأفكار النَّاشِئَة إلى الوجود، زاهِيةً في النُّفوس ومُشْرِقة البَيان..

ولن يتحقَّق ذلك إلا بإِخْماد طَنين الجَهْل في الآذان،

(1) حاجتنا إلى انسجام ثقافي/للأستاذ الطاهر زنيبر ـ مجلة دعوة الحق: العدد الثاني (1376هـ ـ 1957م): ص 29.

والتصَدِّي للمَوانِع التي تَفْصِل المُتَعلِّمين عن وُلوج أبواب التَّعَلُّم، ومَنْع حُدوث تلك القَواطِع التي تَصْرِفهُم عن الأَخْذ بأسباب تَحْصيلِه، خاصَّةً وأنَّنا نعيش في عصر قد سَطا فيه سُلْطان الجَهْل على عُقول المُثَقَّفين الجدُد، وانْهَدَّت دَعائِم الثَّقافة المُسْتَنيرة بنورِ الحَق، وانْفصَلت عن روح المَعْرفة المُسْتَنِدة إلى قُوَّة المَنْطق ونُفوذِ الحُجَّة، وانْحَطَّت القِيَم المَعْنَوِيَّة إلى أَسْفَل سافِلين، وارْتفعَت القِيَم المادِّية إلى عِلِّيين، وتَكاثَر المُدَّعون للعِلْم وقَلَّ المُحافِظون على حُدود الله، والرَّاشِدون في الاهْتِداء والرَّاسِخون في العِلْم على بصيرة واعْتِدال.

والثَّقافة لا تَرْقى وفي جُذورِها يَباسٌ وجَفاف، يحُدُّ من امْتِدادها إلى أَعْماق المُتَعلِّمين والمُعَلِّمين، لِذا لا بدَّ من تَكْوين جيل مُثَقَّف، يتِمُّ إِعْدادُه تَرْبويًّا وتَعْليميًّا في المَدارس والمَعاهِد، والمُؤسَّسات التَّعليمية المختلفة، اقْتِداءً بما كان عليه شَأْن المُعَلِّمين الأوائل، حيث كانوا يَهْتمون بتَكْوين المُتَعلِّمين تَرْبويًّا ومَعْرفيًّا: «فكان الأساتذة مُرَبِّين قبل أن يكونوا معلِّمين، وكانوا مثقَّفين قبل أن يكونوا أساتذة عِلم، وكان الأستاذ منهم يراعي الأطفال الذين يتعَلَّمون عنده كما يراعي أبناءه، ويعَلِّمهم كيف يسيرون في الحياة، ويعَلِّمهم الرُّجولة، ويعلِّمهم كذلك الاسْتِمرار في العمَل، ويعَلِّمهم التَّواضع، ويعَلِّمهم الانْطِلاق في مسيرة لانهاية لها إلا بالموت، وهذا سِرُّ ما تمَتَّع به كثيرٌ من العلماء والمثَقَّفين في المغرب»[1].

(1) نقلاً عن الأستاذ عبدالكريم غلاب في حفل تكريمه بموسم أصيلة الثقافي ـ جريدة العلم بتاريخ 18/7/2011.

ونظرًا لأهَمِّية التَّعليم في التَّربِية والنُّهوض بالثَّقافة، كان المُجَدِّدون والمُصْلحون يَهْتمُّون منذ القديم بإِصْلاح التَّعليم العَربي، وتَأْهيل المُعَلِّمين للنُّهوض بثقافة المُتَعَلِّمين، ومن هؤلاء الفقيه والمصلح المغربي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي تـ 1376هـ/1956م صاحب كتاب «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي»، فقد أَلْقى عِدَّة محاضَرات وخُطَب في تَهْذيب النَّاشِئَة التي سيكون منها رجال المستقبل، وحَثَّ المُعَلِّمين على تَثْقيفِها وتَقْويم مُعْوَجِّ أخلاقها، ومن تلك الخُطَب خِطابه الذي وَجَّهه لمُدَرِّسي اللُّغة العَربيَّة والدِّين، قد أَلْقاه في حفلة تَفْريق الجوائز في المدرسة الثانوية الرِّباطِية سنة 1349 هـ، حيث حَثَّهم على تَهْذيب الأخلاق إلى جانب تَلْقينِهم العِلم فقال: «لا حياةَ لمن لا أخلاقَ له، فلْتَكُنْ ثقافة الأخلاق في المقام الأول، وأهم الأشياء التي تَنْقَطِعون إليها قبل العِلْم، فبالتَّهذيب تكون الحياة الحقيقِيَّة، أما العِلْم وحده فحياةٌ صورِيَّة وصورَتُه ممَحُوَّة بدون تهذيب، فإنْ كنتم شباباً مهَذَّباً صارت أمَّتكم قويمَة المبادئ، ونَفعَها العِلْم ونفعَت به»[1]. .

كما اعْتَبر نَجاح المُعَلِّم مُتَوقِّفًا على السَّهَر على تربية وتَهْذيب المُتَعَلِّم، وتَرْقِيَتِه في الفَهْم، والحِفْظ، والفِكْر، والأخلاق، والذَّات، وأنْ يَسْعى لتَأْخذُ هذه الأمور الخمسة

(1) خطاب الحجوي في حفلة تفريق الجوائز في المدرسة الثانوية الرباطية سنة 1349 هـ ضمن مجموع بالخزانة الوطنية المغربية بالرباط: ص 142.

حَظَّها من التَّربية والتَّهْذيب، وإلَّا كَبِرَت مُعْوَجَّة وصَعُب عِلاجُها بعد ذلك، كما يجب تربيتها على السَّواء بحسب كلٍّ واحدة وما يلائِمُها ويُرَقِّيها، وكما أنَّ الذَّات تَرْقى بالأكل والكُسْوَة والنَّظافة والرِّياضة، كذلك الأخلاق والفَهْم والحِفْظ والفِكْر يَرْقى بالتَّأديب والتَّعليم والتَّمرين[1]..

كما أنَّ الثَّقافة لا تَرْقى إلا بتَمْكين المُتَعَلِّمين الذين هم أمَل الغَد وبَسْمة المستقبل، من العلوم والمعارف والفنون التي تُقَوِّي شَخْصِيَّتهم وتُنَمِّي مَلكاتهِم، وتَرْفَع من مُسْتواهم في الفَهْم، والإِدْراك، والتَّحليل، والاسْتِنتاج، حتى يكونوا أَهْلاً للانْتِقال إلى مَرْحلة التَّخَصُّص وقد اتَّسَعت مَدارِكهم..

ولأنَّ الثَّقافة التَّقْليدِيَّة لا تَفِي بكلِّ الأَغْراض في وَضْعِها الحاضِر، لا بدَّ للطَّالب أنْ يتحَصَّل على الثَّقافة العامَّة إلى جانب الثَّقافة التَّقْليدِيَّة، لأنَّه أَنْجَع عِلاج لإِدْخالهِ في إطارِه الطَّبيعي الذي يَفْرِضه التقَدُّم الحضاري والثَّقافي، وأنْ يَنْبني على أساس جديد يَحْتوي الأفكار التي تَرْقى إلى المُسْتوى اللَّائِق باحْتِياجات المَرْحلة ومُتطَلَّبات العَصْر، وأنْ يَهْتمَّ العامِلون في حُقول المَعْرفة والثَّقافة بشَحْذ القَرائِح للجِد والاجْتِهاد، وتَقْديم دراسات تَرْمي إلى وَضْع سياسة تَرْبويَّة، تَرْتكِز على الرَّفْع من مُسْتوى الثَّقافة حتى تَفِي بالأَغْراض الضَّرورية، وأنْ تُهَيِّئ الكفاءات العِلْميَّة في مُخْتَلف مَجالات الثَّقافة والعُلوم..

(1) إصلاح التعليم العربي ـ بالخزانة الوطنية المغربية بالرباط: ص 8.

فنحن في مرحلة تَفْرِض تَوْفير الوسائل لتَحْقيق النُّبوغ الثَّقافي، فذلك الذي سيَكْفُل لأمَّتنا الارْتِقاء إلى أَعْلى الدَّرجات، كما نَحْتاج إلى إزالَة الأَشْواك والعَقبات أمام المُثَقَّفين وأصحاب المَواهِب في مُخْتَلف الفُنون والتَّخَصُّصات، حتى تَتيسَّر لهم سبُل التَّعَلُّم في جَوٍّ صالح لانْبِثاق شُعْلَة الإِبْداع والابْتِكار..



وفي الختام..

إنَّ الثَّقافة كفاحٌ قِوامُه البِناء ولُحْمَته هذا الجيل الذي سيُبَلِّغ صَداه في الآفاق، وإنَّ الثَّقافة جِهادٌ شَريف لنُصْرَة العِلْم، وامْتِداد للمعرفة التي عليها أنْ تَتقدَّم على القَوْل والعَمل، لهذا لم يَكُن غريبًا أن يُخَصِّص الإمام البخاري في جامعه الصحيح بابا سماه «باب العِلْم قبل القول والعمل»..

فقد كان العَهْد بطالب العِلْم في العُهود الزَّاهِرة: «أنَّ له من فضيلَة الجِهاد في مَيْدان العِلْم ما للمُحارِب في مَيْدان القِتال، وهو مَضْرَب المثَل في الدُّؤُوب والمُثابرَة، لا يَنِي يَعْتَمِل الفنَّ طالِبًا له طلبَ المُضِلَّة ولدَها، حَريصًا على جَمْع شَوارِدِه وأوابدِه[1] حِرْصَ الجَموعِ المَنُوعِ على مالِه، حتى يضُمَّه من

(1) الجمع: آبِدَة، آبِد ـ أَوَابِدُ الكَلَامِ: غَرَائِبُهُ.

جميع حَواشيه، ويَأْخُذَه من كلِّ أقطارِه، ولكن أصبحنا وحَسْب طالب العِلم من عِلْمه أن ينْقُرَه نَقْرَ الدِّيَكَة، ويَنْتِفَه نَتْفَ الهِرَرَة، ثم إذا هو العَجول المُسارِع يَأْخُذ الصَّدر في المجالس ويُنَصِّب نفسه للتَّوجيه ويَنْتَفِج[1] بممارسة التَّسديد»[2]. .

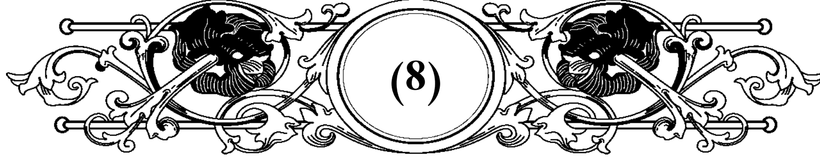
وباب الثَّقافة واسِع كما أنَّ الحياة العَقْليَّة أَوْسَع جدًّا من أنْ تُحْصَر في طَريق واحِدَة ضيِّقة، فقد انْبَسطت أمامها طُرقٌ لا تُحْصى تَسعُ كلَّ الخَلائق، وهي مُيَسَّرة لمَن أرادَها واسْتَطاع أنْ يُجاهِد في سَبيلِها، وأنْ يَبْذُل لها من نَفْسِه ومن وَقْتِه. .

والثَّقافة لا توهَب لجيلٍ من الناس دون جيل، ولا توقَف على فَريقٍ دون فَريق، بل هي لمَن أرادَها واسْتَطاع إليها سبيلاً، وكان عليها قادِرًا ولها مُحْسِنًا باذِلاً. .



(1) نَفَجَ الشيءُ: ارتفع، نَفَجَ فلانٌ: فَخَرَ بما ليس عنده ولا فيه.

(2) مجلة رسالة المغرب ـ العدد الرابع، السنة السادسة محرم 1367هـ ـ دجنبر 1947م: ص 213.



الحُرِّية لا تموت إنَّما يموت من يَحْمِلُها

إنَّ الحرِّية هي قضيَّة كلِّ إنسان مُؤْمِن بحَقِّه في الوجود وفي الحياة الحُرَّة العَزيزة، وهي قضيَّة كلِّ إنسان اضْطُهِد في مَهْد عِزّه وفخْره، وبين ذَويه وأَهْلِه وعَشيرتِه، وانْتُهِكَت كرامَتُه وعِرْضُه وشرَفُه، واغْتُصِبَت أَرْضُه وبلَدُه..

والحرّية هي التي تُخَرّج الأبطال الذين يَبْحَثون عن الرِّيادَة، مِنْ خِلال بَعْثٍ جديد للّدِين والأَخْلاق والقِيَم، والعِلْم والمَعْرفة، والفَهْم والتَّفْكير، والإِحْساس والشُّعور، ومن خِلال بَعْثٍ جديد للإنسان القَوي الذي يُجاهِد في ساحات الحياة، حتى يَنْتصِر في مَعارِكِها ويَنال شَرف البُطولَة، ووِسام التَّقْدير عن جَدارة واسْتِحقاق، فيَصير إنسانًا مُجَدِّدًا ومُنْتِجًا ومُبْدِعًا في مُخْتلف مجالات الحياة..

وتَحْقيق الرِّيادَة ليس حُلمًا يُعَشِّش في عُقول العابِثين اللَّاهين، أو الخامِلين الجامِدين، أو الضُّعَفاءَ المَهْزومِين، إنَّما الرّيادَة هي مِلْكٌ للأَحْرار المُقاوِمين مِنَ العُلَماء العامِلين،

والدُّعاة الصَّادِقين المُخْلِصين، والمُصْلِحين المُجَدِّدين، والسَّاسَة والقادَة والزُّعَماء العادِلين، وكلِّ أَبْناء الأمَّة الأَحْرار الَّذين أَدْركوا بأنَّهم بسِلاح العِلْم والإيمان هم الأَسْياد لا العَبيد..

فالعَبْدُ عَبْدٌ بِجَهْلِه وطمَعِه الزَّائِد، وطُموحِه الذي بلغَ الغايَة القُصْوى، والعَبْدُ عَبْدٌ بجُحودِه وكُفْرِه وضَلالِه، وفَسادِ طَبْعِه وانْحِراف سُلوكِه، وظُلْمَةِ قَلْبِه وبصيرَتِه، وانْغِلاق فَهْمِه وإِدْراكِه، وجُمودِه ورُكودِه وخمُولِه..

والعَبْدُ حُرٌّ بعِلْمِه النَّافِع وحُسْنِ فَهْمِه، وسَدادِ رَأْيِه ورَجاحَةِ عقْلِه، وإِشْراقِ بصيرَتِه واتِّساع مَدارِكه، وزُهْدِه وورَعِه، وقَناعَتِه ورِضاه بما قسَم الله له، والعَبْدُ حُرٌّ برَحابَةِ صَدْرِه وطَهارةِ قَلْبِه، ونَشاطِ جِسْمِه وخِفَّةِ روحِه..

والعَبْدُ حُرٌّ بامْتِلاكِه لمُقَوِّمات إِنْسانيَّتِه وتَمسُّكه بهُويَّتِه، وثَباتِه على صَفاءِ سَريرَتِه وسَلامَةِ فِطْرَتِه، والعَبْدُ حُرٌّ بعُبودِيَّتِه لله في أَقْواله وأَفْعاله وسائِر أَحْواله..

وشَتَّان ما بين عَبْدٍ قد أَعْماه الجَهْل وضيقُ الأفُق وبلادَة الطَّبْع، فسجَن نَفْسَه داخِل زنزانة الحياة المُظْلمَة، وبين عَبْدٍ قد أَبْصَر بعِلْم الله ونورِه، فاتَّسعَت مَدارِكُه وصَفا ذِهْنُه واتَّقَد، واسْتَنار قَلْبُه وأَشْرَق عَقْلُه، فَعَرَف ما بين الحقِّ والباطِل، وما بين الإيمان والكُفْر، وما بين الحَلال والحَرام، وما بين العَدْل والجَوْر، من فَوارِق شاسِعَة كتلك التي بين السَّماء والأرض، وعَرف ما بين الحُرِّية والعُبودِيَّة من قيود وضَوابط فَكَرَّمَ نَفْسَه وأَعْتقَها..

ومنْ ظَنَّ أَنَّه حُرٌّ بعُبودِيَّتِه لِلإنسان، أو المال، أو الجاه، أو السُّلطان، فهو أَجْهَل الجاهِلين بحقيقة الحُرِّية ومَقاصِدِها..

ومَنْ ظَنَّ أنَّه حُرٌّ إذا فَكَّر كما يشاء، ونَطَق وتكلَّم بما يشاء، وعَمِل وتصَرَّف على هَواه دونَ احْتِرام للدِّين ولا الأَخْلاق ولا القِيَم، ودونَ اعْتِبار للتَّقاليد ولا الأَعْراف، ودونَ الْتِزام بأَحْكام الشَّريعة، أو احْتِرام لنُصوص الدُّسْتور والقانون، فقد زاغَ عن الطَّريقَة المُثْلى وانْحَرَف عن الجادَّة والصَّواب..

ومن ظَنَّ أَنَّه بامْتِلاكه للحُرِّية سيَتوقَّف جِهادُه في سَبيل الحِفاظ عليها فحَتْمًا سيَفْقِدُها، لأنَّ الحريَّة تتغَذَّى وتتنَفَّس وتَحْيا، ما دام الإنسان يُكابِد لأَجْلِها ويُناضِل، وما دام يَحْمِل مِشْعَلها حتى يَصِل إلى خَطِّ النِّهاية، وما دام يَزْرَع فَسيلتَها في كُلِّ أرضٍ يَنْزِل بها، ويَتفَقَّد زَرْعها حتَّى تَنْمو وتُثْمِر وتُؤْتي أُكْلَها، ويوقِف حياتَه مُدافِعًا عنها ومُنافِحًا للحُصول عليها، ويَنْضَوي تحت لواء شَريعةٍ سَمْحَة ووحدانِيَّة إلهِيَّة مُتَجَلِّية، تَدْعوه إلى اتِّباع النِّظام والالْتِزام بالضَّوابط والحُدود، حتى لا يُلْحِق الضَّرَر بحُرِّيته ولا يَتجاوَز حُرِّية غيره..

أما مَنْ يَكْسِر قُيودَ المجتمع ولا يَحْترم أَحْكام الدِّين، ولا يَعْترِف بالتَّقاليد ولا الأَعْراف، ولا يَنْضَبِط بأيَّة ضَوابِط ولا يَنْتَظِم بأيِّ نُظُم، ولا يُطيع إلا أَهْواءَه ورَغَباته، وما يَخْدُم مَصالحَه ومَطامِعَه، فتلك ليست بالحُرِّية بل هي انْتِهاكٌ فاضِح للحُقوق، وإِشاعَة للفَوْضى وخَرْق للنِّظام العام، وهي ثَوْرَةٌ على قِيَم الدِّين والأخلاق، وتَمَرُّدٌ على الأَحْكام والقَوانين..

لأنَّ الحُرِّية الحَقيقيَّة تُحافِظ على كرامَة الإنسان ومُقَوِّمات شَخْصِيَّتِه وهُوِيَّتِه، والحُرِّية الحَقيقيَّة تُسْعِد الإنسان ولا تُشْقيه، وتَنْفَعُه ولا تَضُرُّه، وتُكْرِمُه ولا تُهينه، وتُقَوِّيه ولا تُضْعِفه..

ومَنْ لم يُدْرِك حَقيقة خالقِه وحَقيقة الكَوْن وأَسْراره، وحَقيقة وُجودِه وغاياته ومَضْمون رِسالَتِه في الحياة، فلم يُدْرِك بعد حَقيقة الحُرِّية ولا شمَّ مِسْكَها ولا عَبيرَها، ومَنْ لم يَسْتَقِم على أَمْر الله مَحبَّةً، وصِدْقًا، وإِخْلاصًا، لم يَتَذَوَّق بعد حَلاوةَ الحُرِّية ولم يَجْن ثِمارَها..

ذلك أنَّ الحُرِّية الحَقيقِيَّة مَمْزوجَة بِمَحبَّة قَلْبيَّة لله، أَساسُها مَعْرِفةٌ، وعِلْمٌ، وإِدْراك، والمَعْرفة سَبَبٌ موصِلٌ للحُرِّية، والإيمان سَبيلٌ إلى صِيانَتِها ودِرْعٌ واقٍ لحِمايَتِها، والسُّلوك هو تَطْبيقٌ على المِنْهاج الصَّحيح للاسْتِقامَة بالمَعْرفة والإيمان، وإذا تَحقَّقَت تلك المعاني والغايات أَفْضَت إلى سعادَةٍ أَبَدِيَّة .

لذلك لم يُقَيِّد الحَق سُبْحانَه حُرِّية الإنسان مع أنَّه الخالِق الصَّانِع، إنَّما نَظَّم تلك الحُرِّية وَفْق حُدود وضَوابِط، ولم يُقَيِّد حَركتَه مع أَنَّه مَصْدر قُوَّته ومُحَرِّك طاقَتِه، ولم يَحْجُر على عَقْلِه ولا على إِحْساسِه مع أَنَّهُ الرَّقيبُ عليها، ولم يُلْزِمه بما يَعْجِز عن القِيام به مُراعاةً لقُدراتِه وطاقاتِه، ولم يُجْبِره على أَنْ يُؤْمِن به مع أَنَّه سُبْحانَه قادِرٌ بإرادَتِه ومَشيئَتِه أَنْ يَجْعَله ويَجْعَل النَّاس جميعًا مَهْدِيِّين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ

حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿13﴾﴾[1]..

ولكنَّه سُبْحانه قد حَرَّرَ هذا الإنسان ليُؤْمِن ويَهْتدي بِكَسْبِه وعَمَلِه، ويَصِل إليه بعِلْمِه وإرادَتِه واخْتِياره، ويَسَّر له سُبُلَ الهِداية وذَلَّل له الصِّعاب في طريق السَّعْيِ إليها، حتَّى يَعي ما مَعْنى أَنْ يكونَ الإنسان حُرًّا يُمَيِّز الصَّواب من الخَطأ في الأَقْوال والتصَرُّفات، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿22﴾﴾[2].

وحتَّى يَعي هذا الإنسان ما مَعْنى أَنْ يكونَ حُرًّا بما وهبَه الله تعالى من قوَّة وطاقَة وجُرْأة في الحَق..

لأنَّ الحُرِّيَّة الحَقيقية لا تَصْدُر عن نفوسٍ عاجِزَة أو ضَعيفة، تَخْشى أَنْ تُعَبِّر عن آرائها وأَفْكارِها وأَحاسيسِها، وتَحْسِب لكُلِّ كلمَة أَلْفَ حِساب قبل أنْ تَنْطِقَها أو تَكْتُبَها، وتَحْسِب لكُلِّ فِعْلٍ تُنْجزه أَو قَرارٍ تتَّخِذُه حِساباتٍ مادِّية وبَشريَّة، قاصِرَة عن تَحْقيق تَمام العَدْل والإِنْصاف.

ولأنَّ الحُرِّيَّة الحَقيقِيَّة لا تَصْدُر عن نُفوسٍ تَهابُ التَّحَدِّي والمُواجهَة، وتَخْشى أنْ تُعْلِن عن الحَقيقة في وَقْتِها ومَكانِها، لتظَلَّ تَتخَبَّط في دَياجيرِ الحياة المُظْلمَة، وسَجينَة الإِحْساس

(1) سورة السجدة: الآية 13.

(2) سورة الملك: الآية 22.

والفِكْر المُقَيَّد في زِنْزانَة الذُّل والقَهْر، حتَّى تَتحَوَّل إلى هَيْكلٍ إنْسانِي لا شَيْءَ يَهُزُّه أو يُحَرِّكُه..

ولأنَّ الحُرِّية الحَقيقيَّة هي مِلْكٌ للنُّفوس الصَّادِقَة والمُسْتَقيمَة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1]..

ولأنَّ الحُرِّية الحقيقيَّة هي مِلْكٌ للنُّفوس المُسْتَعِدَّة للكَسْبِ والسَّعْي، والبَذْل والعَطاء والإيثار، وهي مِلْكٌ لأولئك الذين يَنْتَصِرون للحَق، ولما يُؤْمِنونَ به ويَعْتقِدونَه حَقًّا وصَوابًا، وهي مِلكٌ لمَنْ يُدافِعون عن أَفْكارهِم وآرائهِم ومَبادئهِم، ويَسْعَون لبُلوغ أَهْدافِهم وتَحْقيق أَحْلامِهِم، حتى لا تَنْكسِر أعلى حافَةِ الصَّمْت أو تَسْقط في قاعِ الخِذْلان والهَزيمة.

إنَّكَ أيُّها الإنْسان لا تَسْتطيع أَنْ تَسْتَأْصِل جَذْوَة الحُرِّية من داخِلك، ولا تَمْلِك أنْ تُخْرِس لسانَك لأنَّه مَفْطورٌ على الكلام، أو تُطْفِئ نورَ بصيرَتك أو تَقْتَلِع جُذورَ إيمانك، كما تَقْتَلِع العُشْب من الأرض، أو تَأْمُر قلبَك أَنْ يَتوقَّف عن الخَفقان ولا يَنْبِض بالحَياة الحُرَّة..

ولا تَمْلِك أنْ تَمْنع عَقْلَك أنْ يُفَكِّر، أو توقِف شِرْيان إحْساسك فلا يَتنفَّس، فأنتَ لَسْتَ جَمادًا ولا خَلْقًا هَيِّنًا، بل إنسانٌ مُكَرَّمٌ عند خالقِك، وحُرِّيتك التي وهبَك الله إيَّاها لا حقَّ لأحَدٍ أنْ يَغْتَصِبها مِنْك قَسْرًا أو قَهْرًا، لأنَّها ليست قابِلَة لتُصْلَب

(1) سورة التوبة: الآية 119.

أو تُنْصَب على أَعْوادِ المَشانِق، أو تُكْتَم أَنْفاسُها أو تُدَس تحت التُّراب، أو تُوارى كما يُوارى المَوْتى في المَدافِن..

إنَّها تتَنَفَّس بروحِك وروح مَنْ يَحْمِلها، وهي تَجْري في عُروقِك وعُروقِ مَنْ يَحْمِلُها، وتَجْري في مَجْرى دمِك وتتنفَّس بأَنْفاسِك..

وهي لا تَموتُ ولا تَضْعف بأَمْرٍ أو حُكْم بشَري، ولا تَخْضع لسُلْطَة عُلْيا أو حُكْم قَضائي، بل تَحْيا ما شاءَ الله لها الحياة لأنَّها مِنْ أعظم آيات الله، وهو حاميها وحامي من يَبْعثُها..

والحُرِّية لا تَموت إنَّما يَموتُ مَنْ يُدافِع عَنْها، ويَحْمِلُها جِيلٌ عَنْ جيل مِنَ الأَبْطال الأَحْرار الرُّوَّاد، الَّذين اخْتاروا أنْ يَتقدَّموا الصُّفوفَ الأَمامِيَّة، وآثَروا أنْ يكونوا مع الأَوائِل والرُّواد..

فمَنْ رَبَّى ذُرِّيته تَرْبيةً صالحَة، وعَلَّمَها كيف تَحْيا حياةً حُرَّةً كريمَة، وكيف تُحافِظ على حُرِّيتها وتُدافِع عنها، وستَكونُ له خَيْر خَلَف في اتِّباع طريقَتِه والاهْتِداء بهَدْيه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾[1]..

والتَّاريخ شاهِدٌ عادِل على أنَّ الأَقْلام الحُرَّة لم تَمُت بمَوْتِ مَنْ يَحْمِلُها، بل ظلَّت الأَفْكار تَنْشُر الأَفْكار، والكُتُب

(1) سورة الطور: الآية 21.

تُنْتِج أَشْباهَها من الكُتب، والأَحْرار يُنْجِبونَ الأَحْرار، ما دامَتْ في أَرْحام الأُمَّهات أَجِنَّة من المُفَكِّرين، والمُبْدِعين، والمُبْتَكِرين، والدُّعاة والمُصْلحين، والعُلَماء والمُجَدِّدين..

والحرِّية لا تمَوت إنَّما يَموتُ مَنْ يُحاوِل أنْ يُجْهِض هذه الأَجِنَّة في أَرْحامِها، ويَموتُ مَنْ يَسْعى ليُطْفِئ نورَ الحُرِّيَّة، ونورَ المَعْرفة، ونورَ الحَقيقة، ويَموتُ مَنْ يُحاوِل أنْ يَتحدَّى قُوَّة الله وقُدْرتَه، وعَظمته وبَطْشَه..

فلا أحَد يَقْدِر على أنْ يَمْنع اسْتِمرار الحياة في الكَوْن والكائِنات، ولا أحَد يَقْدِر على أنْ يَمْنع الحَقَّ فلا يَظْهَر، ولا أحَد يَقْدِر على أنْ يَتحَكَّم في تَصْريف الأَقْدار، أو تَوْزيع الحُظوظ على الخَلائِق، أو تَحْديد نَصيبِهم المَقْسوم لهم في الدُّنْيا، ولا أحَد يَقْدِر على أنْ يَتحَكَّم في مَصيرِه، ولا في مَصيرِ أحَدٍ من خَلْقِه في الحاضِر ولا في المُسْتقبل..

إنَّما الذي يَمْلِك أنْ يَفْعَل كلَّ ذلك هو الله سُبْحانَه، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

(1) سورة البقرة: الآية 107.

يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾[1].

فالبَقاءُ لله سُبْحانَه وهو وَحْدَه الأَقْوى ولا بَقاءَ لما سِواه، والسُّذَّج البُسَطاءُ العُقول هم مَنْ يتَصَوَّرون أنَّهم الأَقْوى بما وهَبهُم الله من أَسْباب القُوَّة والبَطْش، وأنَّ البقاءَ لهم وَحْدهُم ولا بقاءَ للضُّعَفاء، ويَتوهَّمون أنَّهم وَحْدهُم الفُصَحاء البُلَغاء، وأنَّهم وَحْدهُم أَصْحابُ الحُقوق ولا حَقَّ لسِواهُم في التَّفْكير أو التَّعْبير أو الكَلام، وأنَّ بمَقْدورهِم الخُلود والاسْتِمْرار للأَبد..

إنَّكَ أيُّها الإنسان لنْ تكونَ حُرًّا إلَّا إذا وَهَبْتَ غَيْرَك ما لك من حُقوق بعَدْلٍ وإنْصاف، وكما تَسْمح لمَنْ يُوافِقك أنْ يَمْدحَك وينْحَني لك إجْلالًا وتَعْظيمًا، عليكَ أن تَسْمَح لمَنْ يُخالِفُك ويُعارِضَك أن يظْهِر عُيوبَك ومَساوِئك، وأنْ يَنْقُد أَفْكارَك وآراءَك ومَنْهجك..

ولنْ تكونَ حُرًّا إلَّا إذا أَبَحْت لغَيْرِك أنْ يُنافِسَك مُنافسَةً شَريفة، كما تُبيح ذلك لنَفْسِك، ولنْ تَكونَ حُرًّا إلَّا إذا كُنْتَ تُعْطي كما تَأْخُذ، وتَحْلُم وتَدَعُ غَيْرَك يَحْلُمون، ويَطْمَحون إلى أن يُدْرِكوا ما أَدْرَكْتَه من أَسْباب النَّجاح في الحياة..



(1) سورة البقرة: الآية 164 ـ 165.


(9)

قَيْدُ الحُرِّية.. وحُرِّية القَيْد

إذا تأمَّل الإنسان في هذا الكَوْن الرَّحيب المُتَرامي الأَطْراف، سيَجِد ما لهذه المَخْلوقات من تَكْوينٍ نَفْسي، وتَرْكيبٍ جسدي يَتناسَب مع خَصائصِ خِلْقَتِها وطَبائعِها، وصِفاتها، وإذا أطالَ النَّظَر في هذه الكائنات التي تَدِبُّ على الأرض، والطُّيور التي تُحَلِّق في الفَضاء، والأَسْماك السَّابِحَة في البِحار، والنَّبات والأَشْجار، وحَبَّاتِ التُّراب وذَرَّاتِ الرِّمال، وقَطراتِ الماء ونَسماتِ الهَواء، سيَكْتشِف ما يَسْري عليها من أَسْرار، وما يَسْري على أَجْزائِها من الصِّفات، كتِلك الأَسْرار التي جرَت على الأَرْواح والأَجْسام..

وكيف تَبْدأ وتَنْتهي، وتولَد وتَموت، وكيف تُزْهِر وتَتفتَّح ثم يُصِيبها الذُّبول، وكيف تَتقلَّب بين حالاتِ الشُّروق والغُروب، والظُّهور والكُسوف، والنَّشاط والرُّكود، والمَدِّ والجَزْر..

إنَّها أَسْرارُ الخَلْق والمَخْلوقات، وأَسْرارُ الحياة الإيمانِيَّة في اتِّساقِها وانْتِظامها، تَدْعو للتَّدَبُّر والتَّفَكُّر كما قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿30﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿31﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿32﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿33﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿34﴾﴾[1]..

وإذا نَظَر هذا الإنسان إلى نَفْسِه وسبَر أَغْوارَها، سيَكْتشِف دَلائِل أَعْمق على الإيمان، وصَدق الحَقُّ سُبْحانَه إِذْ أَرْشدَنا إلى هذا المَعْنى المُعْتبَر في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿53﴾﴾[2]..

فهذا الإنسان هو مُعْجِزَة المَخْلوقات، ومُسْتودَع لقِوَى وأَسْرار تَشْحَذ مَدارِك العَقْل، وتَبْعَث في الرُّوح والوِجْدان بَصائِر وإِشْراقات، توقِظ الطَّاقَة الكامِنَة في الجسَد، فتُوَجِّه دَبْدَبات حَركاتِه وانْفِعالاتِه نَحْو مُنْعَطف الرُّوح، قبل أنْ يَتمثَّلَها مُنْعَطف الجسَد بتَعْبيراتِ الحَواس..

أَمَّا ما نَراه اليوم مِنْ تَعْبيرات مادِّية، فهي لا تَرْقى مَرْقى التَّدَبُّر في تلك الأَسْرار، ولا تَصِل إلى مَعْرفة الحَقيقة الكاشِفَة لكَوامِن النَّفس في أَقْصى غاياتها ومُنْتَهى مَدارِكِها، لارْتِباط الإنسان بالجسَد بمَعْزِل عن الرُّوح، ولإِسْرافِه في الإِقْبال على

(1) سورة الأنبياء.

(2) سورة فصلت: الآية 53.

الشَّهَوات وصَبواتِها، فلا يُبْصِر من خِلالها إلا حجُبًا كقِطَع اللَّيل المُظْلم، وأَخْيِلَةً من الصُّوَر، والأَشْكال، والهَيْآت، وظِلال الأَلْوان الباهِتَة، توقِظُ في داخِله مَزيدًا من الرُّكود، يَفْصِل إِحْساسَه عن الانْجِذاب إلى ما تُصْدِره هَزَّات الرُّوح وانْفِعالاتُ النَّفس، فيُصيبه السُّكون والجُمود، ويَلْتَبِس بجسَدِه كالوَباءِ فيوهِنُه..

وهذا الرُّكود قد أنْتَج في هذا العَصْر ما يُشْبِه الجاهِليَّة القَديمة، إلَّا أنَّها جاهِليَّةُ العَصْر الحَديث تَجْمَع مِنْ سَكراتِ الأَرْواح لعُشَّاق الشَّهَوات والمَلذَّات، ولها عِبادَةٌ كعِبادَة الأَوْثان والأَصْنام، ولكنَّها بأَسْماء أُخْرى وأَنْواع جَديدة، وأَشْكال تُوافِقُ المَدنِيَّة الحَديثَة، وتَنْشُر أَوْهامَها وأَوْهام المَذاهِب المادِّية، وتُصادِقْ على شِعاراتِها الكاذِبَة، مِنْ إشاعَة للحُرِّيَّة بوُعودِها الزَّائِفَة، بنَشْر العَدالة والمُساواة الإِنْسانِيَّة..

وقد حَمانا الدِّين الإِسْلامي من هذه الجاهِليَّة، وهذا العبَث القائِم على الإيمان بفَلْسَفة الغَريزة، وفَلْسَفة الشَّهَوات الحُرَّة أو ما يُسَمُّونَه اليوم «بالأدَب المَكْشوف»، كما يُصَوِّر أُصولَه وقَواعِدَه عُشَّاق المدَنِيَّة الغَرْبِيَّة الحَديثَة والمُنَظِّرين لها..

ولو تتَبَّعْنا آيات القرآن الكريم سنَجِد ما يُخالِف ذلك، ويُحَذِّر مِنْ فِتَن الجسَد، ويُؤَكِّد على ضَرورة تَحْقيق التَّوازُن بين سَتْر الإنسان لسَوْءَتِه باللِّباس، والاعْتِدال في التَّزَيُّن والتَّجَمُّل، وبين سَتْر عُيوبِ النَّفس وسَتْر عَوْرَتِها بلِباسِ التَّقْوى، والتَّحْذير مِنَ التَّكَشُّف والتَّعَرِّي، لأنَّه من أَسْباب الانْحِطاط وفَسادِ الفِطْرة،

ومِنْ أَسْباب انْحِراف الذَّوْق، وهَلاكِ الأُمَم وتَصَدُّع أَرْكانِها..

كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (27)﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (26)﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (31)﴾[3].

وقد نقلَتْ إلينا هذه الجاهِليَّة الحَديثَة ثَقافَةً دخيلَة على مُجْتمعاتِنا العَرِبيَّة والإسْلامِيَّة، حيث صارَتْ تُطالِب بتَحْقيق العَدالة والمُساواة بين الجِنْسَيْن، حتى فيما يُخالِف أَحْكام الشَّريعَة والفِطْرَة، وصارَتْ تُطالِب بحُرِّية المرأة وانْعِتاقها مِنْ سُلْطَة الرَّجل وحِمايَتِه..

وللأسَف فقد وجدَت هذه الثَّقافة مَنْ يُسانِدها وسَط نُخَب من المُثقَّفين الجدُد، المُنَظِّرين لها والمُدَرِّسين لقِيَمها ومَبادئِها، ووسَط الجَمْعِيَّات والمُنَظَّمات النِّسائية، حيث تمَّ عَقْد المُؤْتمَرات

(1) سورة الأعراف: الآية 27.
(2) سورة الأعراف: الآية 26.
(3) سورة الأعراف: الآية 31.

والنَّدَوات للدِّفاع عن حُقوقِ المرأة، وَفْقَ تصَوُّراتٍ غَرْبيَّة تَعْمَل على تَفْعيل أَبْعادِها الرَّمْزِيَّة والسُّلوكِيَّة في الواقِع العَربي، ضِمْن نُصوص تَشْريعِيَّة وقانونِيَّة وتَقارير دَوْلِيَّة، اشْتغَلت على إعادَة هَيْكلة سُلوك المرأة، وتَرْشيد عَلاقَتِها بجسَدِها كمِلْكٍ خاص، له ذِمَّةٌ مُسْتَقِلَّة وله حَقٌّ في التَّعْبير بلا قُيود ولا شُروط مُلْزِمَة، وذلك اسْتِجابَةً لمُتطَلَّبات التَّنْمِيَّة والتَّفاعُل مع مُخْتَلف مَشاريعِها، للنُّهوض بأَوْضاع المرأة وحِمايَة حُقوقِها.

ولكنَّ هذا التَّرْشيد لم يَكُنْ إلا تَضْليلاً للعَقْل والفِكْر، ونَوْعًا جديدًا من التَّطْبيع داخِل مُجْتمعاتِنا، حيث تَحَوَّلت المُطالبَة بحُريَّة الجسَد، إلى ذريعَة للثَّوْرَة على الدِّين والأَخْلاق والفَضيلة، ونَبْذِ التَّقاليد والأَعْراف، والنُّظُم الاجْتِماعِيَّة العَربِيَّة والإِسْلاميَّة..

كما تَحَوَّلت إلى ذَريعَة للثَّوْرَة على الطَّبيعَة والفِطْرَة الإِنْسانِيَّة المُناسِبَة لكلِّ جِنْس، ونوع جديد من الانْفِلات الصَّارِخ من القُيود والضَّوابِط، والالْتِزامات والعُقود، ونَوْع منَ التَّمَرُّد على وَحْدة المُراقَبة والمُتابعَة القانونيَّة والأُسَرِيَّة، وذلك كان من مُخَلَّفات سوء الفَهْم والاسْتيعاب للمَعْنى الحقيقي للحُرِّية، ولمُمارساتِها وتَطْبيقاتِها التي تَخْتلِف مِنْ مُجْتَمع لآخَر..

فالحُرِّية التي تُناسِب هُوِيَّة المجتمع الغَرْبي، ليست هي الحُرِّية التي تُناسِب هُوِيَّة المجتمع العَربي، وهذا يَسْتدعي ضَرورة الوَعْي بوَظيفة الجسَد، ضِمْن انْتِماءاتِه الثَّقافيَّة، والدِّينيَّة، والاجْتِماعِيَّة، وبالتالي فمُمارَسَة الحُرِّية يَنْبغي أن تكون وَفْق

مَنْطِق كلِّ مُجْتَمعٍ، وليس بمَنْطِق المُجْتَمع الواحِد، إذْ لكلِّ مُجْتَمع مَفْهومُه الخاص للحُرِّية، كما لكُلِّ مُجْتَمعٍ لُغَتُه، ولباسُه، وثَقافَتُه، وسِياسَتُه، ومُعْتقَداتُه، وهُوِيَّتُه، ومَذْهَبُه الخاص في التَّعامُل مع الجسَد..

أمَّا ممارسَة المرأة العَربيَّة والمرأة المسلمة للحُرِّية التي تُوافِق فُنونَ التَّأْنيث الغَرْبي، وتَنْسَجِم مع قِيَم الحَداثة وقِيَم الجَمال والذَّوْق الحَديث، وتُواكِب سَيْرورَة التَّنْمِية، وتُوافِق شُروطَ المَدَنِيَّة الحَديثة، فهي ليست إلا ذَريعَةً أخرى ومَطِيَّة للانْفِلات من تَطْبيق الأَحْكام، واسْتِغلال غَيْر شَريف لجسَد المرأة، لأَجْل التَّرْويج لأَفْكار ومَذاهِب تَخْدُم مَصالِحَها الشَّخْصِيَّة، ونَوْعٌ من التمَرُّد الذي تُمارِسُه المرأة لشُعورِها بالقَهْر والظُّلم داخِل مُجْتَمَع ذُكوري، تَحْكُمه سُلْطَة الرَّجل لا سُلْطَة المرأة، ولشُعورِها بالمعاناة داخِل واقِع مُتَأَزِّم، لا يُوَفِّر لها احْتِياجاتِها المادِّية، ولا يُلبِّي رغَباتِها الفِطريَّة والعاطِفِيَّة، ولا يَسْتجيب لمَطالبِها في إِثْباتِ ذاتِها ثَقافِيًّا، وسِياسِيًّا، واقْتِصادِيًّا، واجْتِماعِيًّا..

إلى أنْ تَحَوَّلَ هذا التَّمَرُّد إلى ثَوْرَة أَشْبَه بالثَّوْرات العَربِيَّة، إلا أَنَّها ثَورَةٌ ليست على الأَنْظِمَة السياسِيَّة، بل هي ثَورةٌ على الأَنْظِمَة الأَخْلاقِيَّة، والقِيَم الثَّقافِيَّة، والاجْتِماعِيَّة، وثَورةٌ على نِظام ذُكوري بكامِلِه..

إنَّها جاهِلِيَّة العَصْر الحَديث، التي صار فيها العُرْي مَشْهدًا مُعْتادًا، مِنْ بين مَشاهِد كثيرة من الانْحِراف النَّفْسي والسُّلوكي،

ومَشْهدًا مِنْ مَشاهِد اخْتِلال القِيَم الدينِيَّة، والثَّقافِيَّة، والفِكْرِيَّة، والاجْتِماعِيَّة، ومَشْهدًا مِنْ مَشاهِد الاخْتِلال في اسْتِخدام وسائِل التَّعْبير المَشْروعَة، واسْتِبْدالِها بوَسائِل غَيْر مَشْروعة توهِم الرَّأْي العام، أنَّها أَسْرَع وأَنْجَع في تَحْقيق التَّواصُل المُتَقَدِّم، باسْتِخْدام الصُّورَة والتَّعْبير عَنْها بلُغَة الجسَد..

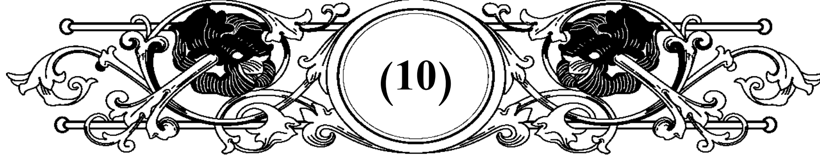
ولا خَلاص لنا من هذه الجاهِلِيَّة بأَعْراضِها المرَضِيَّة الشَّاذَّة، ومَظاهِرها المُسيئَة لمُجْتَمعاتِنا العرَبِيَّة والإِسْلامِيَّة، إلا بالكَشْف عن الأسباب الحَقيقِيَّة لإيجاد الحُلول اللَّازِمة والسَّريعة، حتى لا تَتحَوَّل ظاهِرَة العُرْي لدى المرأة إلى عُرْيٍ عامّ وشامِل، أو تَتحَوَّل إلى ظاهِرَة مَرضِيَّة مُزْمِنَة، وعُرْف سائِد داخِل مُجْتَمعاتنا، أو تَتحَوَّل إلى ثَوْرة هِسْتيرِيَّة تَهْدِم كَيانِنا المُتماسِك، وتَجْتَث ما تبقَّى لنا من جُذورِ أَصالتِنا، ومن مُخَلَّفات تُراثِنا العَريق، وحتى لا تَسْلخنا عن مَوْروثِنا الثَّقافِي والحَضاري والتَّاريخي، وتَفْصِلنا عن ثَوابتِنا وأُصولِنا، وهُويَّتِنا العَربيَّة والإسلامِيَّة..

وحتى لا تتحَوَّل ثَوْرة الحُرِّية وثَوْرة الجسَد إلى حَرْبٍ تَطْحَن النُّفوس، وتَنْشُر الخَراب والفَساد والانْحِلال في ممارسَة الشَّهْوة، لا بُدَّ من إيقافِ هذا النَّزيف وكَبْح هذا الصَّريخ الهائِج، وقَمْع كلِّ أَنْواع التمَرُّد الوَحْشي على الواقع والمجتمع، والذي كان من أَخْطر نَتائجِه فَصْل العالَم والكَوْن عن وُجودِ الإله المُسَيِّر لشُؤونِها والمُدَبِّر لأُمورِها، وسُقوط الإِنْسانِيَّة في مَدارِك الشَّهَوات البهيمِيَّة..

ولا بُدَّ من تَوْعِيَة شامِلَة لحَسْر هذا المَدِّ الخَطير، وفَتْح قَنوات جديدة للحِوار الهادِف والنِّقاش والنَّقْد البنَّاء، لتَحْقيق الانْسِجام بين الظَّاهِر والباطِن في مُمارسَة التَّدَيُّن، وبَثِّ الانْسِجام بين الرُّوح والجسَد في نِظام مُحْكَم، وإرْساء ثقافَة جديدة تُصَحِّح العَلاقة الإنْسانِيَّة بين المرأة والرجل، وتَعْمل على إشاعَة العَدالة بينهما في حُدود الشَّريعة والقانون، وفي حُدود ما يُناسِب خَصائِص كلِّ جِنْس وطَبيعتَه، وتَطْهير الذَّوات العارِيَة من صبَواتِها ورغَباتِها المَسْعورة، وتَحْريرِها من عُبودِيَّتِها للجسَد، وتَصْحيح نَظْرة المرأة لجسَدِها وَفْق ما يَجوز، لا وَفْق أَهْوائِها وأَهْواء الرِّجال وأَهْواء المجتمع المَدني..

إنَّ الحُرِّية الحَقيقِيَّة هي سِرٌّ مِنْ أَسْرار هذه النَّفس، التي هَربتْ مِنْ صخَبِ الحياة وجَحيمِها إلى جَنَّتها ونَعيمِها، فأَدْركَت أنَّ الملذَّات الحَقيقيَّة ليست في الاسْتِمْتاع غَيْرِ المَشْروع، بل هي في انْعِتاق الجسَد والرُّوح من قُيودِ الرَّذائِل ومِنْ ضَراوَة شُرورِها، والخَلاص من شِعارات المدَنِيَّة الظَّالمَة وشَهقاتِ النَّفس اللَّاهِيَة والعابِثَة..

والحُرِّية في أَسْمى مَعانيها هي خَلاصُ النَّفس من قَيْد الحُرِّية البَهيميَّة، والانْتِقال إلى حُرِّيَّة مَشْدودَة إلى قَيْد العُبودِيَّة الخالِصَة لله سُبْحانَه، وحُرِّية مَشْدودَة إلى قَيْد الإنْسانِيَّة، في اسْتِقامَتِها على الحَق، وفي اكْتِمال فَضائلِها، التي وَسِعَت الحياة السَّماويَّة والحياة الأرضِيَّة، ووَسِعَت الفِكْر والوِجْدان، ووَسِعَت الرُّوحَ والجسَد، بعظَمتِها وهَيْبتِها واحْتِوائِها لنِداءِ الحُرِّية الخالد «الله أكبر» المُجَلْجِل بين ذَرَّتِ الحياة ونَسماتِها..



نحن.. ودورة الأيام

هذه رسالة إلى السَّاقطين عند مُنْحَنيات الأيَّام، المُحَمِّلين السِّنين سببَ نُكوصهِم وقُعودهِم، الذين عَلَّقوا أَسْبابَ فَشلهِم وضَعْفهِم على دَوْرة الأيَّام، والغافِلين عن أَداءِ رسالتهِم بالحياة، وقد يَسَّر الله لهم سبُل الصَّلاح والإِصْلاح..

ذلك أنَّ الزَّمن لا يُغَيِّر لحَظاتِ الحُزْن والفَرح، السَّاكِن بين الحَنايا والضُّلوع، ولا يُحْرِق الأَوْراق المُتراكِمَة على سُفوحِ الخَيال..

بل نحن مَنْ نَعيشُ تلك اللَّحَظات، ونحن مَنْ نَرْسُم البسَمات على الوُجوه، أو نَجْعَل العُيون تَذْرِف الدَّمَعات، والسَّاعاتُ تَمُر ولا تُبْطِئ المَسير، ونحن لا نَشْعُر بحَركَتِها الدَّائِبَة وهي تُسابِق الخُطى والأَقْدام وحركَة الأَجْساد..

وتَمْضي السَّاعات وتَحْمِل معَها الذِّكْريات السَّعيدة والحَزينة، وتَتغيَّر الأَحْداث والمَواقِف والتَّجارِب، ونحن وسَط بُحورِ الحياة بين مَدٍّ وجَزْر، نَتَقلَّب بين الحقيقة والوَهْم، ونتَرقَّب

الزَّمن بشَوْق لاجْتِلاء الفرَح، وانْتِشاء أَريج يُعَطِّر الأيَّام، كي تُزْهِر القلوب بالآمال، وتَنْمو الأَفْكار في أَوْعِيَة العُقول، وتولَد وتتغَذَّى وتَتَنَفَّس نَسيم الهواء..



الزَّمَن لا يُغَيِّر الأخلاق ولا الصِّفات البَشريَّة..

بل نحن من نتغَيَّر مع تَقدُّم السِّن وتَداوُل الأيَّام وتَبدُّل الأَحْوال، ونحن مَنْ نَبْعَث في وُجودِنا مَبادئ الدِّين، أو نَصُدُّ عنها فتَضْعف قُوَّتها وتَخْبو شُعْلَتها في القلب..

ونحن مَنْ نَغْرِس في النَّفس حُبَّ الاسْتِقامة والصَّلاح، أو نَزيغُ عن الطرَّيقَة المُثْلى فنَسْقُط في مُنْعرَج الانْحِراف والجَهالَة..

ونحن مَنْ نَخْتار المَسير في طريق الحَق على هُدى وبصيرة، أو نَخْتار المَسير في طريق الكُفْر والضَّلال فنَهْلَك..

ونحن مَنْ نَخْتار أنْ نَكونَ مع المُنْهَزمين والضُّعَفاء المُنْكَسِرين، أو نَخْتارُ أنْ نَكونَ مع الأَقْوياء الأَشِدَّاء، والصَّامِدين في وَجْهِ المَصاعِب والمَشاق..

ونحن مَنْ نَخْتارُ أنْ نَكونَ مع زُمْرَة الفاتِحين المُنْتَصِرين على الفِتَن والأَهْواء، أو نَسْقُط مع مَنْ سَقطوا في مَراتِب الإيمان..

ونحن من نوقِظ فَوْرَة الشَّباب الخامِل، ونحن مَنْ نُحَرِّك

الجَوارِح لتُخَلِّد بَصْمَتها المُشْرِقَة، ونُخَلِّف آثارَها في هذا الوُجود، كسُلوك شامِل لمَناحي الحياة حتى تَكْتَمِل فينا خَصائِص الاسْتِخْلاف والتَّكْريم والتَّشْريف..

والزَّمَن لا يُمزِّق لِثامَ العَتمة ليُشْرِق الوَجْه الإنساني على طبيعَتِه وفِطْرَته النَّقِيَّة، بل نحن مَنْ نَتمَثَّل ذاك الوَجْه الإنساني، لأَخْلاق وسُلوك المؤمن من خِلال الْتِزامِنا بأَحْكام الدِّيانَة، وتَطْبيقنا للشَّريعة في الأَقْوال والأَفْعال، وفي إِقْبالنا على الله بكامِل إرادَتنا وحُرِّية الاخْتِيار، وصُدودِنا عمَّا يُزْرينا مِنَ النَّقائص والمَساوئ، وما يُشينُ خَوارِم المُروءَة والأَخْلاق، والتَّحَلِّي بالفَضائِل والمَكارم والخِلال، والزُّهْد في زُخْرُف الدُّنْيا ومَتاعِها الزائل..



الزَّمَن لا يَشيخ بل هو مُتَجدِّد..

إنَّنا نَكْبر وتَشيخُ فينا مَعالم الصُّورَة وتَقاسيمُ الوَجْه، وتتغَيَّر فينا الصِّفات الخَلْقيَّة والشَّكْل والمَظْهر، عَبْر أَطْوار مُتَتالية من الطُّفولة إلى الشَّيخوخة، وهذا حالُ سائِر المَوْجودات والكائِنات وسائِر المَخْلوقات، فهناك ولادَةٌ وحَياة ومَوْت، وألوانٌ شَتَّى تَتغَيَّر مع تَغيُّر الفُصول والأيَّام، فتَخْضَرُّ الأَوْراق وتَصْفَر، وتتفَتَّح الزُّهور وتَذْبُل، ويَسْتقيم العود ويَشْتَد ثم يَميلُ ويَجِف، ويَسْتوي الظَّهْر ثم ينْحَني ويَتقَوَّس، وتُصافِحُنا خُيوط الشَّمس عند البُكور

والإِشْراق، ثم تُوَدِّعُنا عند حُلولِ الغُروب ومَغيبِ الشَّمس، ويَبْدأ ميلادُنا دافِئًا فيه دَبيبُ النَّشاط، ثم نَنْتَهي عند خَطِّ الغُروب، فتَخور قوانا ويَضْعف النَّشاط، ويَحل الخريف وسَط ذاك الظَّلام، فتَتوسَّدُه الأَجْساد والأَرْواح..

وتظلُّ العيون تَرْقُب سُرجَ الشَّمس وهي تخْبو وتَنْطفِئ، فتَخالُها شمعَةً مُضيئَة تَذوبُ وتَحْترِق، وتَصْهَر في مَوْقدِها المَشاعِر قبل الرَّحيل والغِياب، ويظلُّ الحَنين يَهْفو إلى أنْ يَنْجلي الوَهْم عن البَصائر، كي تَسْتَفيق النَّفس السَّقيمَة من تعَلُّقِها بسِحْر الآمال والمَطامِح، وتُعانِق الرُّوح خُيوطَ الأَحْلام المُعَلَّقة بالإِشْراق، وتَتحَرَّر الإرادَة من أغلالِ المادَّة، وتَتخَفَّف من أَثْقالها المُحَمَّلة على الأَكْتاف، وتَمْضي الخُطى والأَقْدام في طَريقها، فلا يَهيجُ في عِرْقِها الضيِّق مَخاضُ الدِّماء، ولا تَشُقُّ مَطارِق الأَحْذِية جِلْدَها الأَمْلَس..

والزَّمن لا يَشيخ ولا الإِحْساس، بل هي حَركةٌ تَتجَدَّد في كلِّ الفُصول، لتَبْعَث الفِطْرة الرَّاكِدَة وتُعيدَ إلى القُلوب الصَّبيبَ الرَّقْراق، فيُخالط أَنْفاسَ الحياة والهمَسات، في زَمنٍ قصير من عُمْر الفَرْحة يُساوي ضِعْفَ عُمْر الإنسان..

والرُّوح لا تَشيخ ما حينَ تَغْمرُها بَشائِر السَّعادة والانْشِراح، ويَطْرب لها القلب ويُغَرِّد بأَجْمَل نَشيد، يَفُكُّ عُقْدَة اللِّسان ويُطْلق سراحَ الكلمات، كي تُحَلِّق في الآفاق حامِلَةً حُروفَ مَعانيها الصَّادِقَة، ويولَد في الإِحْساس الشُّعور بدَوْرة الحياة وحَركة الكائنات، في اتِّصالٍ روحي لَطيف وإِشْراقَة نَفْس

تَتأمَّل في الآيات الكَوْنيَّة الباهِرَة، فتَرْتقي المَراتِب العُلْيا في السُّمُو، وتَنْدرِج في سِلْك مَنْ خَلعوا عنهم لِباسَ الدُّنيا وتَزيَّنوا للآخرة..



الزَّمَن لا يُخْبِرنا بالحَقيقة الإيمانيَّة ولا يهدينا مفاتيحَ النَّجاح..

بل نحن مَنْ نَتعلَّم كيف نُناضِل ونُجاهِد ونُقاوِم بالحياة، ونَجِدُّ ونَجْتهِد ونُكافِح، ونَحْلُم ونَتمَنَّى ونَطْمح إلى النَّجاح في الحياة، حتى نَلْفِظ أَنْفاسَنا الأخيرة..

ونحن مَنْ نَعْبُر مع السَّاقِطين في المَهالك، أو نَعْبُر مع السَّالكين طريقَ التَّفَوُّق والنَّجاح..

ونحن مَنْ نُحافظ على صَفحات تاريخِنا وتاريخ الأَجْداد، ونحن مَنْ نُدَوِّن ونُسَجِّل بأَقْلامِنا ما نُشاهِدُه ونسْمَعُه ونَعيشُ أَحْداثه، ونحن مَنْ نَبْحث في الملفَّات القَديمة والخامِلَة، ونَبْعث فيها نَبْض الحياة..

والزَّمَن لا يُخْبِرنا بالحَقيقة بل نحن مَنْ نَصْدَح بنَبضاتِها في الآفاق، ونحن مَنْ نَكْسِر الطَّوْق عن تلك الأَسْرار، وسَط زَحْمَة السَّاعات التي تَمرُّ وتَنْقَضي، ونحن مَنْ نَرْفَع صَوْتَ الحَقيقة الإيمانيَّة مُجَلْجِلاً بالتَّهْليل والتَّكْبير، فيَسْري في خَلجاتِ النَّفس ويُحَرِّك نشاطَ الحَواس..

ونحن مَنْ نُخْفي تلك الحَقيقة، ونَدْفِن تلك الأَسْرار في الصُّدور، أو نَحْفظُها في السُّطور والدَّفاتِر والكُتب، أو نَجْعلُها تُسْلِم روحَها للمَوْت وتُقْبَر، فتَضيع صَفحاتٌ من تاريخِنا ولا تَظْهَر، أو يكونَ مَصيرُها أنْ تَغْرَق في بَحْر الحياة المُظْلم فتَتحَلَّل، أو يكونَ مَصيرُها أنْ تَحْترِق وتَتحَوَّل إلى رَمادِ حَطب، أو تُنْثَر كسَمادٍ للأرض إذا جَفَّت، كي تَتفتَّح الحَقيقة بعد ذلك كما تَتفتَّح الزُّهور ويَرْبو النَّبات ويَخْضَر، ويَشاءُ الله لها أنْ تَنْبعِث من مَرْقَدِها، وتولَد مع جيل جديد في زَمنٍ ومَكانٍ مُخْتلف..



الزَّمَن لا يُخْبِرُنا بالنِّهايَة..

إنَّ الزَّمَن لا يَخْتار لنا النِّهاية، ولكنَّنا نحن مَنْ نَسيرُ في طَريقِنا حتَّى نُدْرِك النِّهاية، ونَصِل إلى مَرْحلة لا نَمْلِك خِلالَها اخْتِيارًا ولا قَرارًا..

ولا نَمْلِك أنْ نُسَجِّل تاريخًا ولا أَحْداثًا، ولا نَمْلِك أنْ نُضيفَ كلِمَةً ولا حَرْفًا، ولا نَمْلِك حَقًّا ولا واجِبًا، وليس لنا أنْ نَعود إلى نُقْطَة البِداية، ولا أنْ نُعيدَ سَرْد وحَبْك فُصول القِصَّة والرِّواية، ولا أنْ نُضيفَ فُصولاً جَديدة..

ولا نَمْلِك أنْ نَخْتارَ عُنْوانًا جديدًا أو نَكْتُب حِكايةً محتلفة، أو نَضع خاتِمَة أو تَوقيعًا أخيرًا..

فالزَّمَن لا يُخْبِرنا متى تكونُ النِّهاية، حتى نظلَّ نُفكِّر باسْتِمرار، ونَحْلُم ونتمَنَّى ونُحِب ونَطْمَح، ونتَحَرَّك، ونَكِدُّ ونَكْدَح، ونَحْمِل آمالَنا وآلامَنا، وأَفْراحَنا وأَحْزانَنا..

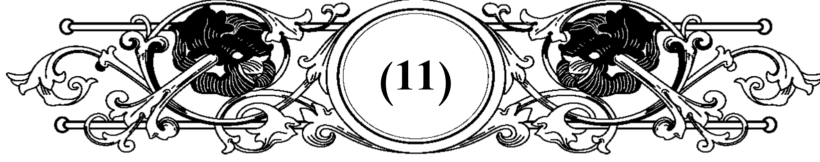
والزَّمَن لا يُخْبِرنا بالحَقيقة الكامِلَة بتَمامِها بلا نُقْصان، حتَّى نَصِل إلى خَطِّ النِّهاية ونحن نَحْمِل الشُّعور الطَّموح، ونُواصِل المَسير حتَّى نَلْفِظ أَنْفاسَنا الأخيرة، على أَعْتابِ آخِر مَشْهدٍ في الحياة..

إنَّها رسالة الصِّدق مع النَّفس في ساعَةِ الصَّفاء والنَّقاء، وإنَّها عِبَرٌ وعِظات تُؤدِّب النَّفس التي تَغْتَرُّ بما جَمعَتْه من حُطام الدُّنيا، وإنَّها دروسٌ تُعَلِّم الإنسان أنَّ مَصيره إلى زَوال ومَصير خُطاه إلى انْتِهاء، وأنَّ خَطَّ مسيره إلى انْقِطاع عند انْقِضاء الأجَل وحُلولِ الميقات المَعْلوم..

وما أجمل كلمات الشاعر إبراهيم ناجي:

انظر إلى شتى معاني الجمالْ
منبثة في الأرض أو في السماءْ
ألا ترى في كل هذا الجلال
غير نذيرٍ طالعٍ بالفناءْ!





أَعْطاف العَيْش بين الاغْتِراب والأَشْواق

إنَّ الشُّعورَ بالاغْتِراب له أَلْفُ وَجْهٍ ولسان، وله صَولاتٌ وجَولاتٌ تُبْحِر بنا على مَرْكب الحياة، وتَرْحَل بنا إلى ذاك الوطَن الأَكْبر، الذي يَحْتوينا ويَرْسو بنا على مَرْفَأ الإيمان، ومَرْسى الأَمان والسَّلام، يَعْمُر قُلوبَنا بتلك الحَقيقة الإيمانِيَّة، فتَتلاشى عِنْد حُدودِها كلُّ مَشاعِر الخَوْف والاغْتِراب، وتوقِد شُموعَ الآمال فتَفْتَح بَصائِرَنا على الدُّنيا، وتَشْحَذ قَرائِحَنا لنَجِدَّ ونَعْمَل، ونُنْتِج ونَنْجَح. .

وإنَّ للشَّوقِ أَفْراحًا تُزْهِر بالبسَمات على خَدٍّ أَضْناهُ طولُ الانْتِظار، تَمْسح عن العُيون لَوْعَة الشَّجَن، وتُهْديها لمْعَةً من وَريدِ القَلْب كي تُبْصِر. .

وإنَّ للشَّوقِ سِقاءً يَرْوي الظَّمَأ وعَطش النَّبْض، فيَهْتزُّ له جِذْعُ الفُصول طَربًا، ويُرَطِّب جَفاف الأَرْواح. .

وإنَّ للشَّوقِ صَفحاتٍ تَتلوَّن بأَلْوان الحياة، فتُشْرِق وتَغْرُب وتمُدُّ الوَصْل وتَقْطَعُه، وتَشُدُّ وثاقَ العَهْد وتنْكثُه، وتَصْدُق في

الوَفاء وتَخونُه، وتَلْبسُ الطِّرازَ المُوَشَّى وتَخْلَعُه، بعد طولِ اغْتِراب وصَدِّ الأَحِبّة وهَجْرِ الوطَن..



1 ـ سُطور الميلاد ومَخاضُ الأَحْلام

يَصْهَرُنا الانْتِظار فيُذيب فينا أَشْياء عَزيزة ونَفيسة، ويَسْرِق منَّا زَهْرةَ الرَّبيع النَّدِيَّة، ويَسْلَخ عن وُجوهِنا بسَمات الطُّفولَة، فتَمْتَدُّ في أَعْماقنا جُذور المَخاض، وتوقِد وجَع الشَّيخوخة، وتُحْرِق أَوْراقَنا النَّدِية، فتَهيجُ فينا الأَشْواق ولا تَهْدَأ، وتَلْفِظ زَفَرات الأَحْلام وتَتَصَبَّب بعَرَقِ الميلاد..

وحين تَرْتفِع أَلْحانُ التَّغْريد المَكْسور، يَسْري إلينا صَمْتٌ طَويل وسَط حَشْرجَةِ الحَلْق المَبْحوح، كما تَسْري أَنْفاسُ الغُروب وتَكْتُم أَنْفاسَ الشُّروق، فتتلوَّن دائِرَة الضَّوْء بعَتمَةِ الكُحْلِ المُذاب على أَرْصِفَة العُيون المُسْهَدة بالتَّرَقُّب والانْتِظار، ليظلَّ الرَّمْشُ المُمَدَّد يُسْدِل سِتارَ النُّور، كي تَنْسُج الآمال أَحْلامَها من جديد، وتُريق على بِساط الانْعِتاق نِقاطًا بَيْضاء تُذيب النِّقاطَ السَّوْداء، وتَرْحل بها خارِجَ خَطِّ الحِداد وبَعيدًا عن سُطورِ الذَّاكرة، بعد أنْ سَقاها الوَريد قَطراتٍ مِنْ رشْفِ النَّدى لتُبَلِّل أَوْراقَ الصَّباح، ولتَنْتَشي الأَرْواح بأَريج الغِبْطَة والمسَرَّات..



2 ـ خَطَّان يَمْتدَّان على طَريق الحياة

هما خطَّان يَمْتدَّان على طَريق الحياة يَصِلان الفَرح بالألم، فيَعْزِف النَّبْضُ تارةً عَذْبَ المُناجاة، وتارةً يعْزِف على سارِيَة القَلْب نَشيد الحِداد، ويَنْعي الصُّدود والعُزوفَ والاغْتِراب، وتَتحوَّل النَّفس من حالِ الفَرح والسُّرور إلى حالِ الأَسى والحُزْن، فتَصير جَلَّادًا يَرْفَع أَعْلام اللَّوْم والعِتاب لتَقْتَصَّ من ذاك النَّقيض والتَّضاد..

كأنَّهما خطَّان يمثِّلان قصَّة الشُّروق مع الغُروب، حين يَسْطع مِنْهما النُّور وَهَّاجًا فيَسْري الدِّفْء إلى الأَرْواح، ثم يَعْقُبه الظَّلام الحالِك والسُّكون والبرْدُ الشَّديد، فيَنْحت خارِطَة الجسَد ويُخَلِّف آثاره في كلِّ رُكْنٍ ومُنْعطَف..

أو كأنَّهما قصَّة اللَّوْن الأَبْيض مع اللَّوْن الأَسْود، حين لا يَلْتقِيان إلا في الظِّل خلفَ الغَمام الكثيف، أو تحت رَمادِ المَجامر يَحْترقان، ولا يَمْتَزِجان إلا مع دُخَّان العُزوفِ والجَفاء، ليظلَّ الشَّوْق بينهما رَمادِيَّ اللَّوْن يَلْتَحِف مِعْطَف الشِّتاء، وذَوى في أَوْصالِهما الحَنين وزَهْرُ الوِصال..

أو كأنَّهما في اخْتِلافهِما ائْتِلافٌ يُغْريهما بعِشْقِ الأَحْلام المُشْرِقات في قُلوبِ المُحبِّين الأصْفياء، يوقِظُ فيهما الإرادَة الخامِلَة ويَرْدَعهما عن ارْتِكاب الحَماقات الطَّائِشَة، ويصُدُّهما عن التَّحْليق في فَضاءِ الأَهْواء وسُلوكِ طَريق الغِوايات..

كي يولَد النُّور بعدَ الظَّلام، ويتَّسِع الطَّريق الطَّويل وسَط

رَحِم الضِّيق والاخْتِناق، ليُهْدي الأَرْواح لثَماتِ الصَّباح ورَشْفَ النَّدى من براعِم الزَّهرات، وليظلَّ النِّداء صادِحًا يُشْفي الجُروحَ والآلام، ويُرَتِّق ما بين القُرْب والبُعْد من كُسور وانْشِقاق، ويَلُمَّ شَتات القُلوب ويَصْرِف عنها الصُّدودَ والجَفاء، فيَسْكُن اضْطِراب الأَشْواق وسُعار الأَحْقاد..



3 ـ حَصادُ المَواجِع في مَزْرعَة النَّوائِب

قد يكونُ الألم شَديدًا في وطْأَةِ الامْتِحان وعَسيرًا عند الإيلام، إنَّما أشَدُّ من ذاك البَلاء أن يُمْتحَن الإنسان بنَذير الاغْتِراب ويَلْحَقه شُواظ الانْفِراد، فيَتقلَّب بين النَّوائِب والأَهْوال ولا من مُعينٍ أو وليٍّ حَميم، يُصْغِي لأَنينِه وشَكْواه في لحَظاتِ المَواجِع ونزْفِ الجِراح، وانْسِكاب الدَّمْع والاحْتِراق، فيظلُّ يعُدُّ السَّاعات تِلْوَ السَّاعات ويَضْرِب أَخْماسًا في أَسْداس، عساه يَنْعَم بانْفِراج همِّه وراحَةٍ وانْشِراح، وانْفِساح الأَنْفاس من ضيقِ الانْحِباس، واسْتِجْمام الرُّوح في رياضِ السَّعْد وحُقولِ الأَفْراح..

وحين لا يجِد سبيلاً إلا الإِعْسار تِلْو الإعْسار، ولا يَجِد أَليفًا مُحِبًّا صادقَ الوَعْد والإِخْلاص، ولا صَديقًا أَمينًا مُخْلصًا في الوُدِّ والوَفاء، ولا مَنْ يَطْرُد عنه أَحاديثَ النَّفس ووَسْواسَ الاغْتِمام، ولا مَنْ يُعيد إلى مُحَيَّاه البسَمات والضَّحكات، ولا

مَنْ يَصْرِف عنه خَواطِر الشُّكوك والتَّوَجُّس والاضْطِراب، فيَضْطرُّ قَسْرًا إلى أنْ يَرْحَل عن دُنْيا النَّاس، ويَزْهَد فيهم وفيما جُمِع بين أَيْديهم، ليَخْلو إلى وحْدَتِه وإلى ذاك الصَّدْر الحاني، الذي يَحْتَويه ويُخَفِّف عنه أَثْقالَه والأَحْمال..

ولكن.. !! ما أَصْعَب السِّباحَة في غَديرِ الاغْتِراب ومُسْتَنْقَع الأَحْزان، وما أَشَقَّ السَّيْر حافِيًا على أَشْواك الخُطوب والأَرْزاء، وما أَعْسَر على النَّفس أنْ تَتجَمَّل بحِلْيَة الكِتْمان في غير محَلِّ التَّجَمُّل بالكِتْمان، فتَخْتار الصَّمْت قَهْرًا عند الوُقوع في شَركِ الامْتِحان، ويَخْرَس اللِّسان عن الحَديث والكلام حين يَجْمَع القلب بين ألمين، هما أَلَمُ الفِراق وأَلَمُ القُروح والمَواجِع..

وما بين الأَلم والأَلم حُصونٌ وسُدودٌ لا تَلْبَث تَعْلو ولا تَنْزِل، وبُحورٌ تَهيجُ ولا تَهْدأ، ورِياحٌ تَعْصِف بالصَّدْر المَكْلوم وتَقْتَلِعه من الجُذور، فيُحيط به اليَأْس المُثْقَل بالضَّجَر والقُنوط..

ولا خلاصَ للإنسان من هذه المَتاعِب والمَشاق إلا بالرُّجوع إلى أَنْوار اليَقين والإيمان، والاكْتِفاء بالله والاسْتِغناء به عمَّن سِواه، والأُنْسِ في حَضْرته والطُّمَأْنينة إلى مَجْلسِه، يَبُثُّ إليه شَكْواه ويُناجيه في الخَلوات، ويَبْسُط إليه يدَه بالدُّعاء، ويَسْتغيثُه في قَضاءِ الحاجات، فيَكْفيه بأَفْضالِه وإنْعامِه ويُغْنيه عن الافْتِقار إلى عَبْد من عِباده الفُقَراء، فسُؤال العَبْدِ لغَيْرِ سَيِّده مَذلَّةٌ وتَشْنيعٌ عليه وقَهْرٌ للكرامة، ووَحْشَةٌ، وحَسْرةٌ، ونَدامَة..

وقديما قيل في المثل: «إذا جاءت الخَلَّة ذهبت الخُلَّة»، أي: إذا جاء الفقر ذهبت المحبَّة..

وسُبْحان الكريم في عَطائِه الذي قال في مُحْكَم تَنْزيله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾(1)..

وعَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ: قلَّما كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يقومُ من مَجلسٍ حتَّى يدعوَ بِهَؤلاءِ الكلِماتِ لأصحابِهِ: «**اللَّهمَّ اقسِم لَنا من خشيتِكَ ما يَحولُ بينَنا وبينَ معاصيكَ، ومن طاعتِكَ ما تبلِّغُنا بِهِ جنَّتَكَ، ومنَ اليقينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ علَينا مُصيباتِ الدُّنيا، ومتِّعنا بأسماعِنا وأبصارِنا وقوَّتنا ما أحييتَنا، واجعَلهُ الوارثَ منَّا، واجعَل ثأرَنا على من ظلمَنا، وانصُرنا علَى من عادانا، ولا تجعَل مُصيبتَنا في دينِنا، ولا تجعلِ الدُّنيا أكْبرَ همِّنا ولا مبلغَ عِلمِنا، ولا تسلِّط علَينا مَن لا يرحَمُنا**»(2).

وما أَجْمل ما ذَكره الحافِظ أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي (تـ 597هـ) في كتابه: «المدهش»: «الدُّنيا مَزْرَعةُ النَّوائِب، ومُشرعَةُ المصائِب، ومُفَرِّقَة المَجامِع، ومُجْرِيَة المَدامِع، كم سَلبَتْ أقوامًا أَقْوَى ما كانوا، وبانَتْ أَحْلى ما كانت أحلامًا فبانوا، ففَكِّر في أهلِ القصور والمَمالك، كيف مُزِّقوا بكَفِّ المَهالِك، ثم عُدْ بالنَّظَر في حالِك، لعَلَّهُ يتجَلَّى

---

(1) سورة فاطر: الآية 15.

(2) أخرجه الترمذي في سننه (3502).

القلبُ الحالِك، إنَّ لذَّاتِ الدُّنيا لفَوارِك[1]، وإنَّ موجَ بلائِها لمُتدارَك[2]، كم حجَّ كَعبتَها قاصِدٌ فقَتَلَتْه قبل المَناسِك، وكم عَلا ذِرْوَتَها مغرورٌ، فإذا به تحت السَّنابِك[3]، كم غَرَّت غرا فما استَقَر، حتى صيدَ باشِق[4]، خلِّها واطْلُب خُلَّةً ذات سُرور وسُرَر وأرائِك، تالله ما طيبُ العَيْشَ إلا هنالِك»[5]. .



4 ـ بين التَّمام والنُّقْصان . .

النَّفس تَعْتريها الآلام والأَفْراح، كما الشَّمس يَعْتريها الشُّروق والغُروب، والظُّهور والكُسوف، فيها الدِّفْء المُتَلوِّن بالأَلْوان التي تُزَيِّن فُصولَ الحياة، وكما القمر يَكْتمِل حتى يَبْلُغَ

(1) فوارك: ج. فارِك، انفركَ الشيء، ينفرك، انفراكًا: أي: تفتّت وتساقط مما هو عليه أو عالق به.

(2) متدارَك: تداركَ يتدارك، تدارُكًا، فهو مُتَدَارِك، والمفعول مُتَدَارَك ـ للمتعدِّي وتَدَارَكَتِ: تَلاحَقَتْ، وتتابعت.

(3) سَنابِك: ج. سُنْبُك، سنابك: أطراف: «سنابك الأرض» ـ سنابك: حوافر الخيل، من هنا قيل: «من هان تسحقه السَّنابكُ في متاهات العمر».

(4) صيد باشِق: الجمع: بَوَاشِقُ، وهي طَيْرٌ مِنْ فَصِيلَةِ الصَّقْرِيَّاتِ مِنَ الجَوَارِحِ، وَهُوَ نوعٌ من جِنسِ البَازي. . .

(5) المدهش/لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي ـ دار الآثار للنشر والتوزيع ـ ط. الأولى 1423هـ، 2003م: ص 241.

أَوجَ اكْتِماله، فلا تَرى عَيْنُك أَجْمَل من حُسْنِه ولا أَنْصَع من ضِيائِه، ولا أَبْهى من صورَتِه ليلة اكْتِماله، كأنّه عند ظُهورِ مَحاسِنه وخِلاله، غادَةٌ حَسْناء قد تَزيَّنت لمَوْكبِ عُرْسِها الفاخِر، ثم لا يَلْبَث بعد ذلك أنْ يَعْتريه النُّقْصان، فيَظْهر للعَيْن بحَجْم أَصْغَر ممَّا كان عليه عند اكْتِماله، ثم يَخْتفي خَلْف الغُيوم والضَّباب الكَثيف، فتَظُنُّه قد خَبا وانْحسَر عنه الضِّياء، وسَط عتمة اللَّيل البَهيم، وتَخالُه قَطْرةً قد غَرقتْ في بركةِ الفَضاء، ثم طَفتْ على السَّطْح وتَنفَّسَت الحَياة..

إنَّه الامْتِحان العَسير يَخْتبِر الإنسان، كي يتعَلَّم أن لا شَيْء يَمْتلِكُه في هذه الدُّنيا بمَحْض إرادته، ولا مِنْ تِلْقاء كسْبِه وسَعْيِه في الأرض، بل هي نِعَمٌ مُهداةٌ إليه وهِباتٌ مُسْداةٌ إليه، تفضَّل بها عليه المولى عَزَّ وجَل..

لهذا خاطَب الحَقُّ سُبْحانَه كلَّ مَنْ طَغى بامْتِلاك جُزْء من تلك القوَّة النَّاقِصَة، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1]..

فهو سُبْحانَه مَنْ يسَّر لهذا الإنسان السُّبُل وسَخَّر له الأسْباب، وهو سُبْحانَه مَنْ فتَح أمامَه الأبْواب الموصَدة، وشَقَّ له طريقَ المَسير كيْ يَسْعى ويَعْمل، ويَزْرَع ويَحْصُد ويَجْني الثِّمار..

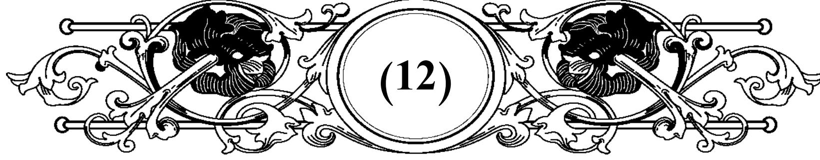
وهو سُبْحانَه مَنْ حَرَّك فيه فَوْرَة النَّشاط والقُوَّة، وأَلْقى في

(1) سورة فصلت: الآية 15.

رُوعِه أَنْفاس الحياة وأَجْراها بقَدرٍ وحِساب وإلى أجَلٍ وميقات..

وهو سُبْحانَه مَنْ جَعله يَتقلَّب بين أَعْطافِ الرَّخاء والشِّدة، والمِنْحَة والمِحْنَة، ليَتعلَّم كيف يُواجِه الحياة ويَتصدَّى لتَقلُّبات فُصولها بقُوَّة وصَلابة، ويَتعوَّد على الصَّبْر والجَلَد والكفاح والنِّضال، والصُّمود أمام الشَّدائِد فلا يَلين ولا يَنْهَد..




(12)

مرآة الحزن

قد يَحْدُث أنْ تَجْتاحَنا المِحَن بأَعاصيرِها في الأيَّام الشِّداد، فنَتجمَّد ونَتحوَّل إلى ما يُشْبه التمثال الصَّخْري الذي نَحتَتْه الأَرْزاء والخُطوب، فخَلَّفَت على وَجْهه رَسْمًا ذا خُطوط وهالات سَوْداء، وتَجاعيد غارَت في الأَعْماق، وخَلَّفت شُعورًا إنْسانيًّا مُشَوَّهًا، وجَسدًا مَصْلوبًا في مَكانِه..

إنَّه الصُّدود عن الرِّضا بالأَقْدار، والإِحْساس الشَّارِد عن مَرْساه، والفِكْر المُتبَلِّد الذي أَصابَتْه سِهامُ الغَفَلات، والجَسد الخائِر القوى الذي أَنْهكه الكفاح المُتواصِل الدَّؤوب، فسَقط كما تَسْقُط أَوْراق الخَريف الذَّابلة، في لحَظات الصَّدْمة القويَّة والمُفاجَأة غَيْرِ المُتَوقَّعَة..

وإنَّه الضَّعْف البشَري الذي يَعْترينا مَهْما كنَّا أَقْوياء أَشِدَّاء، حين نَفْقِد ذاكرةَ الحياة التي نَعْلم أنَّها تَحْمِل الخَيْر والشَّر، والفَرح والحُزْن، والسَّعادَة والشَّقاء، فتَصْهرنا ثَوْرة جامِحَة بعد فَتراتٍ من الاسْتِسلام، ثم تَسْكُن ويَخِفَّ سُعارها وتُنْبِئ النَّفس

عن ميلاد هَدْأَة طويلة، تَشُقُّ طريقَها نحو حياةٍ جديدة، بعد مَخاضٍ عَسير في رَحِم الكون الرَّحيب..

إنَّها تَجاذُبات عَجيبة نَتعلَّم منها دُروسًا في الإيمان والثَّبات، تَحُثُّنا على مُواصَلة السَّعْي وتحقيق الغاياتِ النَّبيلة وإنْ كنَّا وسَط أتونِ الشَّدائد، فمن يَحْمِل بداخِله رسالةً عَظيمة لا يَنْبغي له أن يَلْفِظَها، كما يَلْفِظ الجسَد روحَه حين يُساق إلى الموت، لأنَّها رسالةٌ خالِدَة بخُلودِ ما تَحْمِله من قِيَم وفَضائِل، تَحْفِر وَشْمَها على جبين حامِلها، ومَنْ سيَخْلفه في تَرْصيص اللَّبِنات باتِّساقٍ وانْتِظام، حتى يَكْتمِل البناء في سلسلة الحياة المتواصِلَة بعده..



❂ ففي كلِّ يوم حزين ..

تَتعلَّم قيمةَ الزَّمن والوقت الذي يمْضِي في هَدَر، وقيمةَ السَّاعات التي تمرُّ في غير نَفْع، أو سَعْي طيِّب، أو كَسْب حَلال..

وتَتعَلَّم قيمةَ اللَّحَظات الجميلة التي بذَّرْتَها في اللَّهْو العابِث والتَّفْكير التَّافه، والإِسْراف في طَلبِ الرّاحَة والتَّسْلية، في غَيْر حاجَة مُلِحَّة للتَّرْويح عن النَّفس، أو ضَرورة لتَجْديد النَّشاط والهمَّة..



۞ وفي كلِّ يوم حزين . .

تَتعلَّم قيمةَ الأَشْياء الجميلة التي لم تَكُنْ تَشْعُر بحَلاوتِها إلا بعد أنْ تَجرَّعْت المُر، وتَتعلَّم قيمةَ الأصدقاء والصُّحْبَة الطيِّبَة، فتَميز الخَبيث من الطيِّب والصّادِق من الكاذِب، وتُبْصِر الحَقيقة التي كانت تَخْتَبِئ خَلْف سِتار الأَفْراح. .

وتَتعلَّم قيمةَ النِّعَم المُهْداة إليك بكرَم وسَخاء، وقيمةَ ما مَلَكْتَه واكْتَسَبته وجَمَعْته في يُسْر، ثم ضاعَ مِنْك في زَمنِ الشِّدة والإِعْسار. .

وحينها ستَحْلُم لو عُدْتَ إلى الوَراء ولو لساعاتٍ من الزَّمَن الجميل، لتُصَحِّح ما ارْتكَبْته من الأَخْطاء والزّلات، وما اقْتَرفتَه من الذُّنوب والآثام، ولتَسْتَدْرِك ما فَرَّطْتَ فيه من حُقوقِ الله وحُقوقِ العِباد، ولتَصْهَر جَذْوةَ الخُمول والضَّعف، وتَبْعَث صَحْوة توقِظ الضَّميرَ الإِنْساني من غَفْلتِه، وتُعيد لحَياتِك بريقَها السَّاطِع من جديد، وتَفْتح أمامك قَنوات جَديدة تجري فيها المياه العذْبَة. .



۞ وفي كلِّ يوم حزين . .

ستَشْعُر أنَّك كبِرْتَ ضِعْفَ الفُصول وضِعْفَ الأيَّام، وصار طَعْم الظُّلْم في حَلْقِك لا يُفارِقُك، يَحْتلُّ الفَراغات التي في

صَدْرك وبين ضُلوعِك، ويَتلوَّن بأَلْوانِ حَياتِك ويَتدفَّق مع قَطراتِ دَمِك..

كأنَّه أَنْفاسُك التي بداخلِك تَخْتنِق ثم تَعودُ إلى مَجْراها الطَّبيعي، أو بُحورٌ تَهيجُ مع أَمْواج صَوْتك أثناء شَهيقِك وزَفيرِك، فتُصْدِر آهاتك كالرُّعود تَحْمِل عنك عَصْفَ مَواجعِك، على امْتِداد فُصولِ ماضيك وحاضِرك..

وكلَّما كبِرْت ستَصيرُ طَعناتُ الألم في قَلْبِك أَعْمَق وأشَد، وكلَّما تَكرَّرت تلك الطَّعَنات سيَصيرُ شُعورك بها اعْتِيادًا، وإِدْمانًا يُلازِمُك في كلِّ اللَّحَظات، حتى تَنْتهي بعد رحلة صَبْرِك وكفاحك إلى حَقيقة، وهي أنَّك كنتَ تُقَدِّم ثمنًا غاليًا، مُقابِل كلِّ طَعْنة غَدْرٍ أو ظُلْم..

وستَكْتشِف بعد فُصول المَواجِع ومَصارِع الخُطوب أنَّك كَبِرْت بما يَكْفي، واتَّسعَت مِساحَةُ عَقْلك وتَفْكيرك، وتغَيَّرت نَظْرتُك لنَفْسِك وللنَّاس، وستَشْعُر أنَّك ما عُدْتَ كما كنتَ صغيرًا في شُعورِك بالألم، ولا صغيرًا في غَضبِك وثَوْرتِك، ولا صغيرًا في اهْتِماماتك وغاياتِك..



۞ وفي كلِّ يومٍ حزين ..

ستَفْقِد عَواطِفُك الشَّفافَة لمَعانَها وإِشْراقَها، وستُدْرِك أنَّ حياتَك لا تَسيرُ في اتِّجاهٍ واحِد، ولا تَسْتقيمُ على خَطِّ الفَرح من البِدايَة إلى النِّهايَة..

وستَعْلم أنَّ حياتَك ليست ثابِتَة على خَطِّ الاسْتِواء، بل هي تَتقَلَّب وتَتبَدَّل، وهي عامِرَةٌ بالمُفاجَآت العَجيبَة، والأَحْداثِ الغَريبَة، والمَواقِف المُخْتَلفة، والتَّجارب السَّعيدَة والحَزينَة، فتارَةً تَلْتحِف أَثْوابَ الحُزْن وتارَةً تَلْتحِف أَثْواب الفَرح، وتارَةً تَرْتدي لباسَ الحُسْنِ والفخامَة وتارَةً تَرْتدي لباسَ القُبْحِ والمذَلَّة...

وستَعْلم أنَّ حياتَك ليست ذات لَوْنٍ واحِد، بل هي تَتلوَّن بأَلْوانِ الطَّبيعة في تَناغُمِها جَمالٌ وبهاء، وفي انْعِكاس مَراياها رُؤى وظِلال، وفي تقَلُّبِها بين الشُّروق والغُروب عِبَرٌ وأَسْرار..

وستَعْلم أنَّ حياتَك فيها خُطوط أَشْبَه بخُطوطِ يدِك المُتَشابِكَة والمُنْفَصِلة، وهي تَسيرُ وتَتَّجِه إلى حيث قَدَّر الله لها المَسير، ولن تُدْرِك من غاياتِك وأَحْلامِك إلا ما قسَم الله لك أنْ تُدْرِكَه..



۞ وفي كلِّ يوم حزين ..

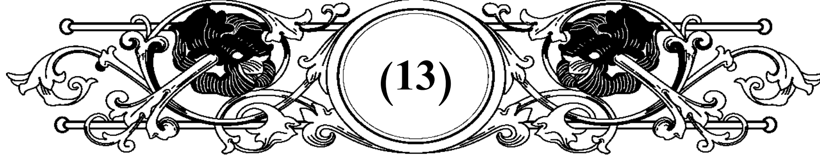
ستَكْتشِف أَسْرارَ نَفْسِك وأَسْرارَ مَنْ حولك، وستَعْلم حَجْمَ ضَعْفِك وسَط التَّجاذُب المُخيف، الذي يَعْصِفُ بك في لحظاتِ الحُزْن المَرير، ووسَط الأَهْواء والفِتَن التي تَميلُ بك يَمْنةً ويَسْرة، وتدُقُّ مَساميرَها الصَّدِئة في جسدِك المُهْتَرِئ..

وستتعلَّم من كل ذلك كيف تُواجِه الخُطوب والنَّوائِب، فتُقَوِّي إِحْساسَك الفَتِي ومَشاعِرك الهَشَّة، وتَصُدُّ عنك تَصدُّعات

الألم وانْكِسارات القلب الضَّعيف، وتَخوض مُعْتَرك الحياة بشِدَّة وصَلابة، وتَعُضُّ بنَواجذِك على الحقِّ فلا تَلين..

وستتعلَّم كيف تَنْتَقِل بين فصولِ حياتِك، وتَمُر من أَطْوارِ الحَبْوَ ثم المشي ثم الرَّكض، حتى تصِل إلى مرحلة الشَّيخوخَة، وأنت تَتلقَّى الدُّروسَ والعِبَر، ولك في كلِّ طَوْر حياةٌ جديدة، ولك في كلِّ فَصْل من فُصولِ عُمْرِك ولادَةٌ جديدة..





تغاريد الرُّوح

إنَّها تغاريد الرُّوح تَسْري بين قَطراتِ الدَّم والعُروق، وتَمْتدُّ كامْتِداد هذه الحياة في فصول، وكامْتداد هذه الدُّروبِ الضَّيِّقَة، إلى حيث تَنْتهي رحلة الخُطى والنَّبضات الصَّادِحَة..

وتَمْضي السَّاعات والأيَّام ولا يعْتَبِر الإنسان من تلك الفُصول التي تَلْفِظ أنْفاسَها، حتى تَأْتي اللَّحظة التَّاريخية الفاصِلَة بين الحقِّ والباطِل، وهو يتقَلَّب في ظُلماتٍ بَعْضُها فوق بعض وسَط ليلٍ مُلَبَّد بالسَّواد، وأَشْواقه بين طيَّاتِ النِّعَم وتَعرُّجات النَّفس غارِقَة في المَلذَّات..

وحين تُساق روحُه وتنْسَلُّ عن جسَدِه، يَنْتقِل ذاك الإنسان إلى عالم الحِساب والجَزاء، فيُلاقي من الشِّدَّة والرَّخاء، والثَّواب والعقاب، بقَدْرِ ما كسَب وتَصدَّق ووهَب، وبقَدْرِ ما أَخَذَ وأعْطى وبذَل، وبقدْرِ ما اسْتقرَّ في قلبِه من درجات الإيمان..



1 ـ حياتنا لحظاتٌ نفيسَة . .

هذه اللَّحَظات تَتلقَّاها النُّفوس المُطْمئِنَّة بالبِشْر والاسْتِئْناس، بعد أنْ تَحرَّرت من عالَم الضِّيق بأَدْناسِه وأَكْدارِه، وتَهيَّأت لاسْتِقبال عالَم أرْحَب تَسْعد فيه بنَعيم الجنَّة الوارِف..

وهذه اللَّحَظات تُساوي أمَدًا بعيدًا لدى مَنْ لم يُبادِر بالعمَل، ومَنْ أَلْهَتْه الدُّنيا بمَلذَّاتِها وشَهواتِها الفانِيَة عمَّا ادَّخَره الله تعالى لعِباده الصَّالحين، كما أَخْبرنا الحَقُّ تبَارك وتَعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿17﴾﴾[1]، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يقولُ اللهَ ﷻ: أَعددتُ لعباديَ الصالحينَ ما لا عينُ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، واقرؤوا إن شئتُم**: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿17﴾﴾، **وإنّ في الجنةِ لشجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلهّا مائةَ عامٍ لا يقطعُها، واقرؤوا إن شئتُم**: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿30﴾﴾[2]، **ولمَوْضِعُ سوطٍ في الجنَّةِ خيرٌ من الدُّنيا وما عليْها، واقرؤوا إن شئتُم**: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[3]»[4]..

---

(1) سورة السجدة: الآية 17.

(2) سورة الواقعة: الآية 30.

(3) سورة آل عمران: الآية 185.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (6552) برواية سهل بن سعد الساعدي بلفظ: «**إنَّ في الجنَّةِ لشجرةً، يسيرُ الرَّاكبُ في ظلِّها مائةَ عامٍ لا يقطعُها**». قال أبو حازمٍ: فحدَّثتُ به النُّعمانَ بنَ أبي عيَّاشٍ فقال: =

وهذه اللَّحَظات النَّفيسَة في حياةِ الإنسان المُؤْمِن هي أَشْبه بلَحظاتِ الميلاد، حين يَسْتقبِل الُّدنيا ويمُدُّ إليها ذِراعَيْه الصَّغيرتَيْن فيوشِك أنْ يَحْضُن كلَّ شَيْء فيها، ويَطْبَع لثمَاتِ الأفراح على الوُجوه المُسْتبْشِرة بقُدومِه، عند أوَّلِ انْبِعاثِه وخَلاصِه من ضيقِ الرَّحِم، وخروجِه إلى الدُّنْيا نَقيًّا طاهِرًا على فِطْرتِه التي فطَره الله عليها..

وهي لحَظاتُ الخَلاص والانْعِتاق، حيث تتحرَّر فيها الأرواح من الأَثْقال والأَحْمال، فتنْفكُّ عنها أَغْلال الجسَد المُثْقَل بقُيودِ المادَّة والرَّغَبات والملَذَّات والأَطْماع الفانِية..



2 ـ صرخةٌ واحدة بين زمنين وعالمين مختلفين

إنَّ تلك الصَّرْخَة التي تلْفِظُها النَّفس في صَمْتٍ حين تغادِرُ هذه الدُّنيا، هي أَشْبَه بتلك الصَّرْخَة المُجَلْجِلَة في الآفاق، التي يُرْسِلُها المَوْلود عندما يَتسَلَّل إلى بصَرِه الضَّعيف أَوَّل شُعاع من نور الحياة، وحين يَسْتَنشِق أوَّل نَسيم من نَسمات الهواء،

= حدَّثني أبو سعيدٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ في الجنَّةِ لشجرةً، يسيرُ الرَّاكبُ الجوادُ المُضمِرُ السَّريعُ مائةَ عام ما يقطعُها**»)، وأخرجه مسلم في صحيحه (2827) بلفظ: «**إنَّ في الجنَّةِ لشجرةً يسيرُ الرَّاكبُ في ظلِّها مائةَ عامٍ لا يقطعُها**»، وأخرجه الترمذي في سننه (3229) و(3292) برواية أبي هريرة.

ويَسْرِي إلى خَياشيم أَنْفه الفَتِي الذي لم يَتعوَّد بعد على ذاك الخَليط بين الهواء النَّقي، والهواء المُلوَّث بالأَدْخِنَة وعَثَّة الغُبار..

۞ إنَّه المَخاضُ نَفْسه ..

ولكنْ شَتَّانَ ما بينَ مَخاضِ الميلاد ومَخاضِ المَوْت، فكلاهما يَحْمِلُ ما يَحْمِلُه الآخَر من الزَّفَرات والأَنَّات والأَوْجاع، حيث يَتقلَّب الإنسان ما بين مُكابدَةِ الضِّيق في الرَّحِم ومُكابدَةِ الضِّيقِ في القَبْر..

وفي كلِّ يوم يَخْرُج إلى الحياة الدُّنيا مَوْلودٌ جَديد، يُقْبِل على أَفْراحِها ويُدْبِر عن أَتْراحِها، ويَتنعَّم برَخائِها ويُسْرِها ويَشْقى بشِدَّتِها وإعْسارِها..

وفي كلِّ يوم ينْتَقِل إلى الحياة الآخرة موْلودٌ جَديد، يُقْبِلُ عليها وهو لا يَدْري على أيِّ قُطْرَيْه سيقَع ويَنْتهي أَمْرُه، ولا على أيِّ شِقَّيْه سيَنْقلِب في خاتِمَة رِحْلتِه، أَعَلَى شِقِّ الإِسلام سيقَع أَم على شِقِّ الكُفْر !!؟

أعَلَى شِقِّ النَّعيم والسَّعادة والفَلاح سيقَع أم على شِقِّ العَذاب والشَّقاء والخُسْران المبين!!؟..

والرِّحْلَة إلى الحياةِ الآخِرة أشَقُّ من الرِّحْلَة إلى الحياةِ الدُّنيا، وقد تَطولُ كلُّ رِحْلَة أو تَقْصُر، وتَتَّسِع حُدودها أو تَضيق، ويَمْتَدُّ زَمانُها ويَتضاعَف أو يَنْقُص ويَتقلَّص، وبعدها تَنْتهي الرِّحْلَة خِلال دَوْرة يَصْحو فيها الخَيال الشَّارِد من أَحْلامِه،

فتَذكَّر النَّفْس آثارَ خُطاها ومَواطِئ أَقْدامها، ومَوارِدَ السِّقاء التي كان ترِدُها وتَرْتوي من حياضِها، ومَواكِب الأفراح والأحزان التي كانت تُحَرِّك أَشْواقَها وأَشْجانَها، وما كانت تَزْرعه من خَيْر أو شَر، وما كانت تَجْنيه من الأشواك، وما كانت تَحْصده من الثِّمار والرُّطَب..

وتتذكَّر ما كان لها في كلِّ رُكْنٍ من أركانِ الأرض العامِرَة بالأفراح والمُكْتظَّة بالأحزان، وما حفِظَتْه الذَّاكرة من تاريخ مُشْرق حافِلٍ بالانْتِصارات والأَمْجاد، وما حَفِظَتْه من تاريخ مُظْلم مَليءٍ بالهزائِم والانكسارات، ورائِحَة الأَشْلاء والحُروب الطَّاحِنَة التي حصَدت الرُّؤوسَ تِلْوَ الرُّؤوس بلا انْقِطاع..



3 ـ حياتنا فصول ورحلة عابر سبيل..

فحَياتُنا تَنْقسم إلى فصول..

تَتلوَّن بأَلْوان الأرض والسَّماء، وأَلْوان النَّفس التي لها في كلِّ يوم شَأْنٌ وشَأْو، ولها في كلِّ مَكانٍ مَقامٌ ومَنْزِل، وفي كلِّ أرضٍ سَعْيٌ وكسْبٌ، وكَدْحٌ وعمَل..

وحَياتُنا تَتغيَّر كلَّ يوم، فنَرْتدي ثوبًا جديدًا للأَعْياد والمُناسبات، وثوبًا للرَّزايا والمَآتِم، ونَرْتدي ثوبًا للأَفْراح والأَعْراس وثوبًا للخُطوبِ والأَحْزان..

في زَمنٍ يَمْتدُّ امْتِدادَ الشُّروق إلى الغُروب وامْتِدادَ النَّهار إلى اللَّيْل، وامْتِدادَ الحياة إلى إِدْراك المَمات، بقُلوبٍ قد عَرفتْ مَعْنى السِّعَة بعد الضِّيق، ومَعْنى الضِّيق بعد السِّعَة، ومَعْنى الشّدَّة بعد الرَّخاء، ومَعْنى الرَّخاء بعد الشِّدَّة، وعَرفتْ مَعْنى أَكْبَر وأَعْظَم من كلِّ تلك المَعاني وهو مَعْنى الميلاد بعد الموت، حين تكونُ القلوب قد احْتَوت تلك المعاني وهي عامِرَة بالإيمان وتَقْوى الله وخَشْيتِه، كأولئك الذين ذكَرهُم الحَقُّ سُبْحانَه فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿122﴾﴾[1]..

أما القلوب الخالِيَة من إِشْراقات الإيمان وأَنْوار اليَقين السَّاطعة، قد انْطفَأت بداخِلها شُعْلَة الإيمان المُتَوقِّدَة، ففتَرتْ هِمَّتُها وضَعفتْ قَريحَتُها الوَثَّابة، وتَقاعَستْ عن إِدْراك الهدَف والغاية، وانْحَسرَتْ بصيرَتُها عن مَعْرفة أَسْبابِ وُجودِها ومَقاصِدها النَّبيلة، وضاقَ شُعورها بذاك المعنى العظيم، الذي يتجدَّد كلَّما أَشْرق الإيمان وانْبعَث نورُه في القلب، وصار حالُها ومآلُها كحالِ أولئك الذين أَخْبرنا عنهم الحَقُّ سُبْحانَه فقال: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿21﴾﴾[2]..



(1) سورة الأنعام: الآية 122.

(2) سورة النحل: الآية 21.

وحَياتُنا رِحْلَة عابِر سَبيل . .

فعندما يُدْرِك الإنسان أنَّ حياته ليست إلا رِحْلة عابِر سَبيل، سيَنْتقِل بسُلوكِه ومُعاملاتِه من مُحيطِه المادِّي الضيِّق إلى مُحيطٍ أَرْحَب وأَوْسَع، ويَسْتحضِر في كلِّ أَحْواله وشُؤونه مَعْنى الخَوْف من الله، فيَلْزَم حَوْضَه الطَّاهِر ويَرْتَوي من مَعينِه الصَّافي، ويَسْتنير بشُموسِ أَنْوارِه، ويُحَلِّي مَنْطِقَه ولسانَه بجَلالِ كلمَة «الله أكبر»، فيَلْهَج بها ويَصْدح عند التَّكبير وعند كلِّ صَلاةٍ ونِداء، وعند القِيام والقُعود، وفي الحلِّ والتِّرْحال، ويَسْتحضِر رَقابة الله في سرِّه وعَلانِيَّتِه، فيكونُ أَشدَّ النَّاس حِرْصًا على الصِّدْق في كَلامِه، وحَديثِه، وشَهادتِه، ويَتحرَّى الأَمانة والإِخْلاص في أَقْواله والأَفْعال، ويُحْسِن الظَّن بمَوْلاه ويَرْجو أنْ ينالَ رَحْمته ورِضاه، عملاً بما أَوْصى به النبي ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ** ﷻ»[1] . .

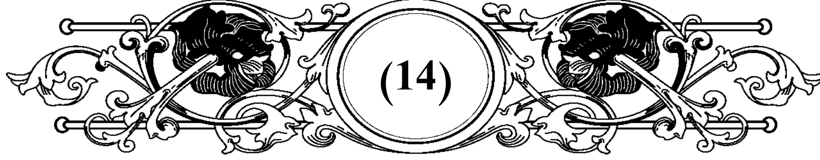
وحياتُنا تكونُ أَجْمَل عندما يُدْرِك الإنسان هذا التَّكامُل والانْسِجام بين كلِّ تلك المَعاني الإيمانيَّة التي تَسْطع ببَريقِ الأمَل، وتوقِد في قَلْبِه الشُّعور بالسُّرور والفرَح، فتَنْقَشِع عن صَدْرِه غُيوم الأَحْزان، وتَفيضُ من شَرايينِه قُطارَة الحُب، ويَصيرُ إنسانًا سَوِيًّا ومُسْتقيمًا على طَريق الحَق، وصاحِب رسالَة عَظيمة تَجْعَل منه فَرْدًا مُنْتِجًا في المجتمع، وعُنْصرًا نَشيطًا وفاعِلاً وإيجابيًّا . .

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (2877) برواية جابر بن عبدالله.

وحياتُنا تكونُ أَجْمَل بأولئك الأَبْطال الفُرْسان، الذين يَنْتَصِرون على مَلذَّاتهم في هذه الحياة الدُّنيا، فيَخْرجوا منها وقد تَزوَّدوا لطَريقٍ شاقٍّ طَويل بطاقَة إيمانِيَّة، ليَسْتَحِقُّوا أنْ يكونوا عُظَماء ونُجومًا في سماء المجد، وأَهْلاً لتُخَلَّد آثارهم وتُذاع أَخْبارهم وتَنْتشِر في الآفاق، لجِهادهم العظيم في الحياة ولما أَشاعوه من مَكارِم السَّجايا والأَخْلاق، ولما حَقَّقوه من الإِنْجازات وفَضائِل الأَعْمال..





روعة الإحساس

ما أَجْمَل النَّفسَ الإنسانِيَّة في سِعَتِها ورَحابَتِها حين تَنْظر للحياة والإنسان والكون بعَيْنٍ مُحِبَّة، وتَسْتَقبلهم بمشاعِر الفرح وبسَماتٍ تُشِعُّ بالصَّفاء والنَّقاء، كأنَّها في انْفِساحها كالرِّيح المُرْسَلة في سَخائها، وفي سُموِّها كالجِبال الشَّامِخات تظَلُّ صامِدَة أمام العَواصِف والرِّياح، وثابِتَة على اليَقينِ والإيمان..

وما أَجْمَل النَّفْسَ حين تَرْتَدي لكلِّ مَرْحلة من مَراحِل الحياة ثوبًا جديدًا يُناسِب زَمانَها ومَكانَها، كأنَّها تولَدُ في كلِّ فَصْلٍ ولادَةً جَديدة، يَنْمو خِلالَها الجِسْم ويَكْبُر وتَتغَيَّر المَعالم والأَشْكال والصُّوَر، وتُسَجِّل في كلِّ طَوْر تاريخَها الحافِل بالأَحْداث، والمَواقِف، والتَّجارب العظيمة، وتَغْرِس جُذورَها الطَّيبَة في كلِّ أَرْض خِصْبَة، لا تَذْبُل أَوْراقُها الغَضَّة النَّضِرَة، ولا تَجِف ينابيعُها الصَّافِيَة، ولا تَنْقطِع ثِمارُها اليانِعَة..

وما أَجمَل النَّفْسَ التي تُدْرِك رَوْعَة هذا الإِحْساس فتَحْيا حَياةً طيِّبَة كريمَة، تَرْقى بالعَقْل والقَلْب، والتَّفكير والوِجْدان،

وتَحْكمُ جوارحَها بشَريعة تَضْبِط أَقْوالها والأَفْعال، وتَسْمو بغاياتِها ومَقاصِدها إلى القِمَّة، وتَرْقى بسُلوكِها ومُعامَلاتِها وتُوجِّهها لخِدمَة الفَرْد والمجتمع..



1 ـ رَوْعَة الإِحْساس بأَسْرار الجَمال

حين تُبْحِر داخل بواطِن النَّفس الإنسانيَّة، ستَسْبُر أغْوارَها وأَسْرارَها الجَماليَّة، وسَتُحيط بأَبْعادِها في النَّظَر والتَّفْكير والإِحْساس، وستَتعَرَّف على وسائِلها الفَنِّية والتَّعْبيرية، وحينَها ستَسْعى إلى أنْ تَسْتخدِمها الاسْتِخدامَ الصَّحيح، الذي يَليقُ بها ويَليقُ بإنْسانيَّتك، ويُظْهِر قُدراتَك في الإِبْداع والابْتِكار وبراعَتك في الإِنْتاج، وستَبْدَأ تَهْتم لحَركة حَواسِّك وجَوارحِك، وَتُسَخِّر قوَّتَها وطاقتَها لخِدْمَة الإنسان وتحقيق النَّفْع العام..

وستَنْتقِل الصُّوَر المَحْسوسَة من عالمِك المادِّي إلى عالمك الخاص، وتتَحَرَّك بذِهْنِك كما تَتحرَّك الأَحْلام والخَواطِر، لها حِوارٌ وحَديثٌ وسِجال كحَديثِ الكائِنات والمَوْجودات، ولها صَوْتٌ وحَركَة تتوافَق مع حَركَة جِسْمك ونشاطِه وخِفَّةِ روحِك ولطافَتِها، فتَبْدو الطَّبيعَة أمامَك في أَرْضِها وانْبِساطِها وما تَحْمِله بين مَناكِبِها، وما يَسْبح في السَّماء من الأَفْلاك والكَواكِب والنُّجوم..

كأنَّها أَجْسامٌ ذات أَرْواح تَتكلَّم وتُعَبِّر، وتَرْنو لعَيْنِك بموسيقى خاصَّة ولُغَة تَفْهمُها، ويَفْهمُها ذاك الإنسان الذي أَدْرَك مِثْلَك رَوْعَة الجَمال ورَوْعَة الإِحْساس، ورَوْعَة التَّدَبُّر والتَّفَكُّر والاعْتِبار، فصار خالِيَ الذِّهْن من كلِّ شَيْء يَشْغلُه عن هذا الإحْساس الفَريد، الذي يَدْعوه إلى سِحْرِ الإِصْغاء وجاذِبِيَّة الأَصْوات، والحَركات العَجيبة الصَّادِرَة عن الطَّبيعة..

فتَنْظُر وتَتأمَّل في البَحْر، والشَّمس، والقَمر، والنَّجْم، والنَّبات والشَّجَر، والعُشْب والزَّهر، والحَجر والمَدَر، والطَّيْر والحَيوان، وكُلِّ المَوْجودات، وتسْتَجْمِع قَلْبَك وسمْعَك لتَتناغَم مع أَرْوَع نغَم، تَجْري مَقاطِعُه ومَخارِجُه مع جَريانِ أَنْفاسِك عندَ شَهيقِها وزَفيرِها، وتطْرَب لها أُذنك الواعِيَة أَيّما إِطْراب، وتُخاطِبُها الرُّوح بلا سُجُف ولا أَسْتار، فتَصيرُ أمامَها ذاك النَّموذَج الإِنْساني الشَّاخِص الحَي، وتَصيرُ أمامَك ذاك النَّموذَج من الطَّبيعَة المجَسَّمة والمَرْئِيَّة، ويَصيرُ التَّعْبير بينكما بلُغَة تَصْويريَّة آسِرَة للقُلوب..

وحين يَتحقَّق هذا التَّكامُل والانْسِجام بين النَّفس الإِنْسانيَّة وبين هذه الصُّوَر البَديعة، وتَناسُب الفَهْم مع لُغَة التَّعبير، والأَداء الجَمالي الفَنِّي، تَفيضُ المَعاني المُؤَثِّرَة والخَواطِر المُرْسَلة الجَميلة، وتَنْمو بالحِس والوِجْدان والذِّهْن، مَقْرونَةً بدَلالة التَّعبير بالكلمة واللَّفظ، ودَلالة التَّعبير بالأَلْوان والخُطوط والظِّلال، وما تحْمِلُه إيحاءاتُها التَّصْويرِيَّة في سِياقها الجَميل والمُبْهِر، حين

تَدفَّق على النَّفس كتَدفُّق السَّيْل الهادِر، تَتجلَّى آثارُه على السُّلوك الخارجي، وله انْعِكاسٌ قَويّ يَهُزُّ كيانَ الإنسان فيوقِظُه من سُباتِه وخُموله، ويَنْتقِل به من وُجودِه الضيِّق الخانِق وواقعِه المُتَأزِّم إلى وُجودِه الفَسيح وإلى سَعَةِ الدُّنيا ورَحابَتِها..

فالرَّوْعةُ في جَمالِ النَّفس حين يَصيرُ كلُّ شيءٍ أَمامَها جَميلاً وساحِرًا في الإنسان، والطَّبيعَة، والصُّوَر المَرْئيَّة، والأَلْوان البَهِيَّة، والأَشْكال المُتَناسِقَة، والأَداءِ التَّعْبيري الذي بلغ الغايَة، والمُنْتَهى الذي قَلَّما أنْ تجِد نظيرَه..

والرَّوْعةُ في جَمالِ الفَهْم الذي يرى أنَّ من ضَروراتِ العَملِ المُنْتِج والمُبْدِع، تَوْظيفُ التَّفْكير السَّليم في مكانه وزمانه وميقاتِه..

والرَّوْعةُ في الإحْساس والرُّوح التي تَتذَوَّق هذا الجَمال البَديع، فتَعْرِف أنَّ لنورِ النَّهار دِفْئًا وضِياءً، ومَعاشًا وكَسْبًا، ولظَلامِ اللَّيْل راحَةً وسَكينة، وأنَّ ما بينهما من اخْتِلاف ليس إلا اخْتِلافَ تَنوُّع لا تَضاد، ليتحقَّق التَّرابُط والتَّكامُل بينهما في الوَظائِف ويَعْمَل كلاهُما وَفْق ما سُخِّرَ له، وليَتحقَّق الانْتِقال بالإنسان من مَرْحلة يقظَةِ الفِكْر والحَواس ونَشاطِ الأَعْضاء، إلى مَرْحلة النَّوم والرَّاحة والاسْتِرخاء اسْتِعدادًا لاسْتِقبال يوم جديد وحياة جديدة، وسَعْي وكَسْب جديد..



2 ـ انْتِقال النَّفس مِنْ شُعورٍ عادِي إلى شُعورٍ مُخْتلِف

هذا الانْتِقال يولَد في القَلْب المَفْتوح على الدُّنْيا بانْبِساطٍ وانْشِراح، فيَشْعُر أنَّ الفُصولَ بداخِله كأنَّها ليست إلا فَصْلاً واحِدًا هو فَصْل الرَّبيع، وأنَّ اللَّوْن الأَسْود ليس شُؤْمًا ولا الظَّلام يَحْمِل كآبةً وحُزْنًا، ولا في الشِّدَّة والضِّيق إعْسارٌ يدوم، ولا في كلِّ قُبْحٍ ذَمامَةٌ تَدْعو للاشْمِئزاز والنُّفور..

فلا عُبوسَ في الحياة بل العُبوس يُلازِم مَنْ يَخْتار أنْ يَحْيا ويموت عابِساً، فحَقيقة السُّرور تَتجَلَّى في تقاسيم الوُجوهِ الضَّاحِكَة المُسْتَبشِرَة، وحَقيقة الفَرح تُزْهِر في القُلوبِ المُحِبَّة التي تَقْتلع الأَحْزان من جُذورِها، وتَزْرَع المَحبَّة في شِرْيانِها فيَتدفَّق الصَّبيبُ سَعادةً وسُرورا، وتَنْتقِل النَّفس مِنْ شُعورٍ عادي إلى شُعورٍ مُخْتلف، ومِنْ فَهْمٍ عادي إلى فَهْمٍ مُخْتلف، ومِنْ عَمَلٍ تافِه إلى عَمَلٍ ذا قيمَة عَظيمة ومَكانَة عالية، ومِنْ سَعْيٍ بطيء ومُنْقَطِع إلى سَعْيٍ نَشيط ودَؤوب، وتَصيرُ أيَّام التَّعَبِ والكَدْح تَحْمِل لذَّةً وإمْتاعًا، تهَبُ النَّفس شُعورًا يَنْتَشي رَوْعَة الخَلْق وإبْداع الصّانِع، ورَوْعَة الإحْساس الحُر الطَّليق الذي كشَف عن حَقائِق الحياة وتلَذَّذ بأَسْرار مَعانيها، فما عادَ يضيقُ بالدُّنيا ولا الدُّنيا تضيق عليه، لأنَّ الضِّيقَ يولَد داخِل النَّفس السَّقيمَة بجَهْلها لغاياتِ وُجودِها ورِسالتها في الحياة..

أما النَّفس المُؤْمِنَة التَّقِيَّة فهي تَحْيا برَوْعةِ الإحْساس

والفَهْم، وتَسْعَد بما تيسَّر لها من أَسْبابِ السَّعادَة، وتتحَرَّر من قُيودِها وتَتخَفَّف من أَثْقالِها، وتَتخلَّص ممَّا تَحْمِله من مَشاعِر الثَّوْرة والغَضب، ومَشاعِر الضِّيق والتَّفكير النَّمَطي الجامِد، وتَبْعَث النَّشاط العقلي الهادِف، وتُغَذِّيه بطاقَة التَّفْكير المُبْدِع والمُوَلِّد للأَفْكار والمشاعِر المُنْتِجَة..



3 ـ يوم الفرح

إنَّه يومٌ شَمِسٌ صَحْوٌ كتلك الفرحة التي تُشْرِق على النُّفوس التي أَدْرَكَت رَوْعةَ ذاك الإِحْساس الفَريد، فهَبَّت لاسْتِقباله وهي تَحْمِل البِشْر والسَّلام..

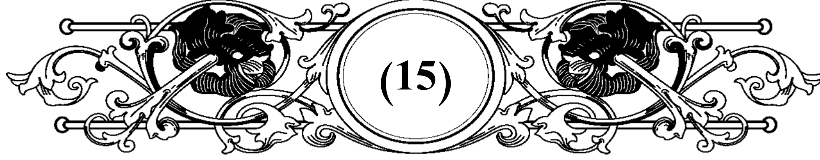
وإنَّه يوم الحُبِّ الخالص والإِحْساس الصّادِق، يَرْتَدي فيه الإنسان ثوبًا جديدًا قد أَنْتجَته القُلوب قَبْل المَصانع، إِشْعاراً بأنَّ الوَجْه الإنساني قد بدأَ يَسْتعيد مَلامِحَه ومَلامِح النَّفس البَشريَّة في أَبْهى زينة، فتَصْفو الفِطْرة عن الخِلافات والمُشاحَنات والمُنازَعات وما يُثير البَغْضاء والأَحْقاد..

وإنَّه يوم يَكْتشِف فيه الإنسان نَفْسَه والعالَم والحياة على حَقيقَتِها، وسِرَّ الجَمال والبَهاء في اجْتِماع الأَلْوان المُخْتلفة، واجْتِلاء الفَرح في مَظْهرِه الحقيقي حين يَكْتمِل حُسْنه على الوُجوهِ النَّضِرَة، وحين تَتفتَّح مَسرَّاتُ الحياة على ابْتِساماتِ الأطفال وضَحِكات الرُّضَّاع، فيَرى هذا الإنسان نَفْسَه أمام قِيَم

الجَمال وهي تَسْطَع من عُيونِها الصَّغيرة، وتَنْمو في خَيالِها النَّاعِم على بساطَتِها وطبيعَتِها، يَضُمُّها الحُبُّ بضَمّاتِ الأَشْواق المُغَرِّدَة ولَثَماتِ الأَفْراح البَهيجَة، فلا يَعْرِفون بَعْدَها قياسًا للزَّمن ولا حِسابًا لحُدود المَكان، ويَغْدو الفَرح في عالمِها فِكْرًا سامِيًا، وتَغْدو النَّفس عاشِقَةً للفَرح..

وإنَّه يوم تُدْرِك فيه الإِنْسانيَّة مَعْنى رَوْعة الإِحْساس المُخْتَبِئ في أَصْدافِه الثَّمينة، وتَكْتشِف حَقيقة الثَّراء في القُلوب المُطْمَئِنَّة السَّعيدَة بأَشْيائها القَليلة، التي قَنعتْ من شَجرة الحياة بلُبِّها وثِمارِها، وارْتضَت من لذائِذ النِّعْمَة بقَدْرِها لا مِقْدارِها، فما عادَت تُكَدِّرها هُموم الكَثْرة ولا الوَفْرَة، ولا يُغْويها سُعار الشَّهَوات ولا البَذْخ والتَّرَف، وقد أَيْقنَت أنَّها لا تَأْكُل في بَطْنين إنما هي بطنٌ واحدة ولَقَيْماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَها، كأن ليس في الدُّنيا أَنْعَم منها في امْتِلاك حُظوظِ السَّعادة مع قِلَّة الزَّاد والفاقَة والاحْتِياج..





(15)

شموع الأمل..

إنَّنا نَحْتاج إلى شُموعٍ موقَدَة في حياتنا، وأَحْلام تُشْرِقُ في مَآقينا ولا تغْرُب عن مُحَيَّانا، فما أجْمَلَ تلك الآمال التي لا يَنْضُب مَعينُ جَريانِها في أَوْرِدَة القلب، كأنَّها النَّبْض الصَّادِح والأَنْفاس والقَطْر، والرُّوح التي لا تُفارِق الجسَد في كلِّ الفُصول والأيَّام..

وما أَجْمَل تلك الآمال التي تُحَرِّك الطَّاقة الوِجْدانِيَّة، فتَسْطع شُموعها بالنُّور والدِّفْء وتَشْحَذ القوّة الخامِدَة في النَّفس، وتَشُدُّ ساعِدَ الهِمَم والعَزيمة، فتَسْلُك الخُطى طَريق الكفاح بنَشاطٍ وجِد، وتَبْعث الحياة في الأَوْصال البارِدَة، وتَسْقي الأَرْواح هُطولَ السِّقاء وتُطْفِئ جَمراتِ اليَأْس، وتَصِل حَبْل الشِّرْيان المَقْطوع بميثاقِ الرَّجاء كي تَبْتهج وتَسْعَد، وتظَل الأقلام تَرْسُم الأَحْلام على سُطورِ الميلاد بكُحْلِ العُيون وحُمْرَة الوَرْد..



1 ـ تمسَّك بطُفولتِك الهارِبَة

مهما كبِرْنا تظَلُّ قلوبُنا مُعَلَّقةً بدَنادِن الفَرح وأَثْواب الأَعْراس، ونظَلُّ نَهْفو إلى طَرْطقاتِ الحطَب وفُتاتِ الخُبْز النَّاعِم، ونَشْتاقُ إلى رائِحَة الرَّغيف السَّاخِن في الفُرْن الحَجَري القَديم، ونَحْلُم بتلك الأَشْياء العَزيزة التي تَحْفظُها الذَّاكرة، كأَقْلامِنا المُلوَّنَة وأَلْواحِنا الخَشَبِيَّة، وصَناديقِ اللَّعِب وكُرَّاسات المدرسة، ونَحْلُم بتلك الأَشْياء التي لا تَموت ولا تَتلاشى ولا تَذْبُل كأوراقِ الخَريف، لأنَّها مَشْدودَة إلى ذاك الرِّباط الذي يَصِل ماضينا بحاضِرنا، ويَصِل شبابَنا بسِلْسِلَة الحِكايات العَجيبة والقِصَص الجميلة، ويُعيد لرَسائِلنا ذِكْريات الطُّفولة وأَفْراحَها وأَعْيادَها، وذاك الحُبَّ الخالِد الذي كان يَجْمَعُنا في بيتٍ واحِد ولا يُفَرِّقُنا..

ولقد تَأمّلتُ أطفالاً وأَثرُ العيد على نُفوسهِم، فتَعلَّمْتُ أنَّ السَّعادة قد جُمِعَت في ابْتِساماتهِم وضَحكاتهِم، فإذا لسانُ حالي يُحَدِّثُني ويُحَدِّثُ الكبار:

إنَّ هؤلاء الأطفال في ثِيابهم الجَديدة يَصْنعون ثوبًا جديدًا، علينا أنْ نَرْتدي مِثْلَه للحياة التي نَعيشُها في ضيقٍ وضَنك..

وهؤلاء الأطفال هم أَثْرِياء برَحابةِ صُدورهِم، وهم كبارٌ بفِطْرتهِم السَّليمَة، وحُكَماء بفَلْسفتهِم غَيْرِ المُعَقَّدة، ومَشاعرهِم التي لم يُلَوِّثها لَوْن الحياة المَشْحونة بالحُروب والثَّورات..

وهم كبارٌ بتلك الدُّروس التي نَتعلَّمُها منهم كي نَنْطَلِق في

الدُّنيا بلا طَمع، وقد وسِعَتْنا البَشاشَة والمَرح، ونَصْنَع حَقيقتَنا كما صَنعوا حَقيقتَهُم البريئة بوُجوهٍ ضَاحِكَة، غير مَصْبوغَة بأَلْوانِ الحياة الشَّوْهاء..

وهؤلاء الأطفال هم سُعَداء بفَرْحتهم بمَلذَّاتهم القليلة، ونحن الكبار أَشْقِياء بمَلذَّاتنا الكثيرة، هم في قَناعتهم وزُهْدهم ينْعَمون، ونحن في طَمعِنا وإقْبالنا على الحياة نُقاسي ونُكابِد، والجمال في عيونهم مَشْدودٌ إلى قِيَم الحُبِّ الخالص الصَّادِق، والجمال في عُيونِنا مَشْدودٌ إلى قِيَم المادَّة، وبَهاءِ الوجه ونَضارةِ الجسم وحُسْنِ المَظْهَر..

وهؤلاء الأطفال هم أَحْرارٌ في انْبِعاثهم، كانْبِعاثِ الأشياء أوَّلَ مَجيئِها إلى الدُّنيا، وكانْبِعاثِ البَراعِم أوَّلَ طَلْعِها وظُهورِها، يُثيرون فينا الشُّعورَ بالفرح الكامِن في التَّفكير، والشُّعور القَوي بأَدقِّ النَّواميس الكونيَّة، وسِحْر الوِفاق مع الطَّبيعة وجمال أَسْرارِ الخَلْق، التي حُجِبَت عمَّن أَلْهَتهم مَلذَّاتهم وشَهواتهم فجَعلت بينهم وبين أفراحهم حُصونًا مانِعَة..

فلْنُحْيي الفرح في أيَّامِنا والطُّفولة التي شاخَت في صُدورِنا، ولْنُزْهِر كما يُزْهِر النَّجْم والسِّراج، وكما تُزْهِر الأرض بخُضْرتِها والنَّبات في رياضِها، وكما تُزْهِر الدُّنيا في حُسْنها وبَهْجتها..

فلا شَيْء يشيخ في فُصول الحياة النَّضِرَة، إنمَّا نحن من نَجْعل للشَّيخوخَة فُروعاً تَمْتدُّ وتَنْتشِر على خارطة النَّفس المُمَزَّقَة، ونحن من نَخْلع عنها أَلْوانَ الفُتوَّة ومَظاهِر الشَّباب والنَّضارَة،

ونحن من نَقْطَع رباطَها وميثاقَها الغَليظ، ونَفْصِل وُجودَنا عن تاريخِنا وعن جُغْرافِيَّة الأرض، لتظلَّ جُذورنا حَبْلى بمَواجعِنا وبما تعَلَّمْناه من دُروس الطُّفولة وذِكْرياتها الجميلة..

ولنوقِد شُموع الأمَل حتى لا يَدِبَّ إلى أَوْصالنا صَقيعُ الشَّيْخوخَة، ويَنْخر الهَمُّ عِظامَنا فيَسوسُها، ولنَبْحث عن صَفحاتٍ جديدة ومَلامِح لطُفولتِنا الهارِبَة، قبل أن نَفْقِد مَعانيها في سِرْداب النَّفس المُظْلم..

ولنُفْسِح لأَحْلامِنا أنْ تولَد من جديد على بساطِها الأخضر، وأنْ تَتوحَّد بنَسيجِ أَجْزائنا وتَفاصيلِنا الصَّغيرة، حتى تَصْدَح تغاريدُ أَفْراحِنا وتَشْدو على غُصونِ القلب، وتتنفَّس الحياة خارج طَوْق الشَّوْك..



2 ـ جرِّب أن تكون إنساناً جديداً

إنَّ شعورَك بالسَّعادة يولَد في اللَّحظة التي تتَنفَّس فيها أَحْلامَك، وتَتهادى لانْبِعاثها نَشْوانًا فرِحًا بوُجودِها..

فلا تَكُف عن الأَحْلام حتى لا يَخْرس بداخلك صَوْتُ النَّشيد الصدَّاح، ولا تَكْتم أَنْفاس قلبك المَدَّاح، كي تُشْرِق روحك كما تُشْرِق شمس الصَّباح، وتُغَرِّد نَبضاتُك كما تُغَرِّد البَلابِل على غُصونِ الأشجار، وتُزْهِر في فُصولِك بَراعِم المَسَرَّات، كما تُزْهِر بسَماتُك ولا تَشيخ في عُنْقودِ الحياة..

فشُعورك بالسَّعادة يولَدُ في اللَّحظة التي توقِد فيها شُموعَ الآمال، وتَبْدأ من جديد تَطْوي صَفحاتِ الأَحْزان، وتُزيح عن صَدْرِك سُحبَ الكآبة وتُخْمِد الأنَّات، حتى لا تَنْسَلَّ روحُك عنْك حامِلَةً معها ما تبقَّى لك من أفراح، ويَخِرَّ جَسدُك من أَثْقال الهُموم والأحزان، وتَعافُك الأرض التي ضَجَّت منك ومن طَنينِ شَكْواك..

وشُعورك بالسَّعادة يولَد في اللَّحظة التي تَخْرج فيها للدُّنيا كمَوْلودٍ صغير، يَتنعَّم بفُصوله الأولى بلا تَفْكير في الآتي المُقْبِل..

فجرِّب أنْ تُغَيِّر طَعْمَ المَرارَة والعَلْقم، وأنْ تَتذَوَّق لذاذَةَ الشَّهْدِ والسُّكَّر، وجَدِّد طريقة تَفْكيرك حتى يَتغيَّر أُسْلوبك في الحياة..

وتَحرَّر من تقليدِك وتِكْرارِك للأَخْطاء تِلْوَ الأَخْطاء، وامْسَح عن ذاكرتك رُفاتَ الماضي السَّحيق، واحْذِف مَشاهِدَ القَتْل والدَّمار، ومَزِّق صُوَر البُؤْس فقد ضجَّت منها الدَّمعات والأَحْداق، وزَيِّن حياتَك بالصُّوَر الجميلة التي تَبْعَث في شُعورِك السُّرورَ والانْشِراح..

وكُنْ تلك اليدَ الحانِيَة الرَّحيمة التي تَرْوي الظَّمْآن، وتَكْفي الجائعَ والمُحْتاج وتُشاطِرُه رغيفَ العَيْشِ والزَّاد، وكُن مع أولئك البُؤَساء والمَحْرومين والمَكْدودين، فمعَهم ستَجِد إِنْسانِيَّتَك الضَّائِعَة في زَحْمَة الآلام، ومعهم ستَجِد ذاتَك الشَّارِدَة عَنْك في بيْداء الفِتن ووسَط مَصارِع الفُصول والأيَّام..

واَصْنع تاريخَك الحافِل بالإِنْجازات والانْتِصارات، بلا ساعِدٍ مَكْسورٍ ولا رأسٍ مُنكَّس، في عالم بطيء الخُطى مُتَهالِك الأَنْفاس، يوثِق وَصْلَ أنفاسِك بأنفاسِ الحياة، ويفْصِل حُروفَك عن الكلمات لتظَلَّ مُعَلَّقًا على سَطْرِها الهَزَّاز..

وبلا صَـوْتٍ مبْحوح يَصْعَد من أَعْماق بُحورِك، فتَغْرق هويَّتك الهاربة بعيدًا عن مَرْساك، ويَهْزِمك الألم والخوف وتَحْيا تَغْريبةً، تَجُرُّ أَذْيالَك إلـى رُكْنٍ يُقْصيكَ إلى مَنْفاك..



3 ـ لا تقُلْ أنَّك عاجِـز..

بل قُلْ أنَّك قادِر على أنْ تَصْنَع التَّغْييرَ الذي تَحْلُم أنْ يكون، وإلا ستَجِدُ ألفَ سبَب يُبَرِّر شُعورَك بالعَجْز والضَّعْف، وسَيمرُّ أمامَك شَريطُ حياتك بطيئًا وأنت تُصْغي إلى النَّكبات، وتُلازِمُك الأحزان في الصَّحْو والمَنام، فتَفْقِد صَبرك واتِّزانَك وحِكْمتَك، وتَفْقِد معها ذاكرةَ الإنسان المُؤْمِن بأَقْدارِه والقَويِّ بدينِه، لتَحْمِل ذاكرةَ الإنسان الانْهِزامي، فترى أمامَك الطَّريق مَسْدودًا والأمَل مَقْطوعًا، وتَحْيا بضَعْفِك وانْكِسارك وتَموتُ وأنت تتجَرَّع سُمومَ الانْهِزام قَطْرةً تِلْوَ القَطْرة..

وقل في سرِّك وجهرك: «الله أكبر» بشعورٍ خَفَّاق، وتتمثَّلها بالأقوال والأفعال، وحينها سيَهْتزُّ لها قلبُك ويَخْفِق لها نَبْضك، وستَتحَرَّك بها جَوارِحُك وبها تَقومُ وتَجْلس، وبها تَنام وتَسْتيقِظ،

وبها تَحْيا روحُك وتَتنفَّس، ولن تَشْعُر بعدَها أنَّك عاجِزٌ لا تقْدِر . .

وإذا غَلبَك أمرٌ من أمور الدُّنيا، ردِّد في سرِّك وجَهْرِك: «حسبي الله ونعم الوكيل»، مصداقًا لقول الحق سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[1]، وما روي عن عوف بن مالك، أنه حدثهم أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال: المقضي عليه لما أدبر حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل**»[2] . .

فنحن لسنا عاجِزين في كلِّ الحالات، ولا في كلِّ اللَّحظات، ولا على امْتِداد فُصول العُمْر، بل قد يكونُ عَجْزُنا هو من صِناعَة أَيْدينا، أو قد يكونُ قَرارًا اخْتَرْناه وارْتَضَيْناه، أو اضْطَرَرْنا إليه قَسْرًا أو قَهْرًا أو ضَعْفًا . .

إنَّما تظَلُّ الشَّدائد هي من تَصْنع ساعِدَ الصُّمود، وتظَلُّ

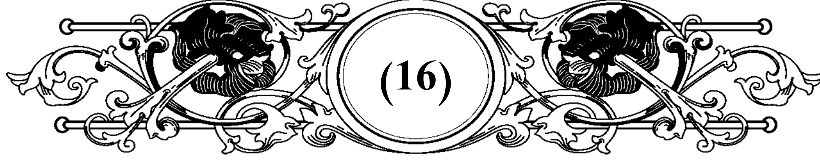
(1) سورة آل عمران: الآية 146.

(2) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (10387)، وأبو داود في سننه (3627)، وخلاصة حكمه: سكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة: كل ما سكت عنه فهو صالح، والبيهقي في السنن الكبرى (10/181) وخلاصة حكم المحدث: منقطع.

المِحَن هي من تُعَلِّمُ رَفْعَ الجِباه في إباءٍ وشُموخ، والانْتِصار في الحياة إنَّما يتحَقَّق بعد جِهادٍ وكِفاحٍ ونِضال، في طريقٍ شاقٍّ عَسير..

وشُموع الأمل لا تَنْطفئ في القلوب المؤمنة والمُخْلصة لرسالتها النَّبيلة، فهي النُّور الوَقَّاد الذي يَحْتوي الصُّدور والسُّطور، وهي الشُّموس التي تُنير البَصائِر الحَسيرة، وتوقِظ الضَّمائر المَيِّتَة، والثُّرَيَّات التي تُضيء الأَرْكان والنُّفوس، وتَمْلأ الحياة غِبْطةً وسرورًا، وتَبْعَث الأحلام الجميلة في الذَّاكرة والوُجود..





نثر الورد في رياض السعد

ما أَجْمَل تلك الرَّسائل التي لا يَطْويها الزَّمن تحتَ لحافِه، ولا يَحْجبها الظَّلام خلفَ سِتاره، ولا يَرْشقُها اليَأْس بسِهامه، كأنَّها بَلْسمٌ يُشْفيكَ من سقامِك أو الشَّهْد يُحَلِّي أيَّامك..

فدَعْ شموعَ الأمَل تُنِير حياتَك ليَسْري الفرح إلى عُروقِك، ويذوبَ الصَّقيع الذي جمَّدَك وأنْهكَك، وأَوْقِد سُرُجَ الإيمان في قلبِك ووِجْدانِك، كي تُزهِر المسَرَّات في حَدائِق روحِك وتُشْرِق شُموس أَحْلامِك..

وأَيْقِظ شُعورَك بالأمان والسَّلام كي تَهْدَأَ نَبضاتُك الخافِقات، وتَسْكُن أَنْفاسُك إلى مهادِ الرَّاحَة والاطْمِئنان، وازْرَع سَنابِل المحبَّة والوئام حتى تَلْتئِم جُروحك وتَنْدمِل، وكُنْ زهرةً فوَّاحَة تَنْثُر الأريجَ والشَّذَا والعِطْر، وشمسًا تَنْشُر الضِّياءَ والنُّورَ والدِّفْء، وربيعًا يَزُفُّ بشائِر الأَفْراح إلى قلوب المَحْرومين والبُؤَساء، تتمثَّل معاني تلك الأبيات التي تسُرُّ القلب ويرِفُّ لها الخاطِر من قصيدةٍ للشاعر إيليا أبو ماضي:

كُنْ بلسمًا إن صار دهرُك أرقمَا
وحلاوةً إن صار غيرُك علقمَا
إن الحياةَ حَبَتْكَ كلَّ كنوزها
لا تبخَلَنَّ على الحياة ببعضِ مَا
أَحسِنْ وإن لم تُجزَ حتى بالثَّنَا
أيَّ الجزاء الغيثُ يبغي إنْ همَى؟
مَن ذا يكافِئُ زهرةً فوَّاحةً؟
أو مَن يثيبُ البلبلَ المُترنِّما؟
عُدَّ الكرامَ المحسنين وقِسْهُمُ
بهما تجدْ هذَيْنِ منهم أكرَمَا
يا صاحِ خُذْ عِلمَ المحبَّة عنهما
إني وجدْتُ الحبَّ علمًا قيِّمَا
لو لم تَفُحْ هذي، وهذا ما شَدَا
عاشَتْ مُذمَّمةً وعاش مذمَّمَا
فاعْمَلْ لإسعاد السِّوى وهنائِهم
إن شئتَ تَسْعدْ في الحياةِ وتنعمَا



1 ـ السَّعادة في لذَّةِ الإيمان والرِّضا..

إنَّ السَّعادة لا تأْتيك عَنْوةً ولا اسْتِجْداءً، إنَّما هي مَنْبعٌ ثَرٌّ وفَيْضٌ غزيرٌ من العَطاء، وعَبيرٌ صافٍ تَنْتَشيه قلوبُ الأَصْفِياء،

وأَريجٌ فَوَّاح يَمْلأ الآفاق، وقَطْرٌ من النَّدى يُرَطِّب القُروح فيَجْري صَبيبُ الدِّماء، ويَواقيتٌ تُزَيِّن الأرواح، ومرْفَأ أمان للفقراء إلى الله مَنْ اسْتَغنوا بكفايَتِه وعِنايَتِه عمَّن سواه، المُصَدِّقين بآيات الله النيِّرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[1]..

وهي مَرْسى المُحبِّين المُخْلصين مَنْ تعَلَّقَوا بحَبْلِ الله المَتين، وشَدُّوا وثاقَ الوفاء برُكْنِه الشَّديد، ووَلجوا رَوْضَ السَّعْد الرَّحيب، وتلَذَّذوا منه بالشَّهْد ومن قُطارَة العِبادة والذِّكر الحميد..

والسَّعادة هي نورٌ يضيء قلوبَ الأَتْقِياء، الذين زَهِدوا في الدُّنيا وأَعْرَضوا عن شَقْوَة الجشَع والطَّمَع، وما أَجْمَل أبيات الإمام الشافعي في الثَّناء على مَنْ صانوا دينَهم من التخَبُّط في لُجَّةِ الأَدْناس والفِتَن:

إنَّ لله عبادًا فُطَنَا
تركوا الدنيا وخافوا الفِتَنَا
نظروا فيها فلمَّا علِموا
أنها ليست لحيٍّ وطَنَا
جعلوها لُجَّةً واتَّخذوا
صالحَ الأعمال فيها سُفُنَا

(1) سورة فاطر: الآية 15.

أمَّا أصحاب القلوب الجَوْفاء الذين تعَلَّقوا بالآمال العَريضة وتَخلَّوا عن مُقَوِّمات الإيمان والفَضيلة، فقد ساقَهُم الجُحود والطُّغْيان إلى سُلوكِ طريق الضَّلالَة، وركَضوا خلفَ الانْجِذاب إلى شَطحاتِ الأَهْواء والغِوايَة، وتَخبَّطوا في الشَّهَوات والمَلذَّات حتى الثُّمالَة، ومالوا إلى الدَّعَة والرَّاحَة وسقَطوا في مَراتِع الانْدِحار والهزيمَة، وخُتِم على قلوبِهم بأَقْفالِ الجَهالة وغَشِيَتْهُم غشاوَة الضَّلالَة، كتلك الغَشاوة التي خَتم الله بها على قُلوبِ الذين كفروا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾[1]. .

وحُرِموا من نعمَةِ الاغْتِباط وكرامَةِ أَهْلِ السَّعادة، وابْتَلاهم الله بأَصْناف العَذاب فتجَرَّعوا غُصَص المَرارَة، وأَرْسَل عليهم سِجافَ الأَحْزان فتقَلَّبوا في ضَنكِ العَيْش والشَّقاوَة، وذاك جَزاءُ الإِعْراض والغَفْلَة مِصْداقًا لوَعيدِ الحَقِّ سُبْحانَه وتَعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾[2]. .

فسِرُّ سعادَتِك في تَخلِّيك عن الأثقال التي تَسْكن حُوشَ الفؤاد، ومواجهة الشَّدائد والخُطوب بنَفْسٍ راضِيَة مُطْمَئِنَّة

(1) سورة البقرة.
(2) سورة طه.

لأَقْدارِ الله، واتِّباع سُنَن السَّابقين الأوَّلين مَنْ رضِي الله عنهم ورَضوا عنه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[1]..

وسِرُّ سعادَتِك في إِقْبالك على الله وانْعِتاقك من القُيود والأَغْلال، حين تَرْفع صوتك في تذَلُّل وخُشوع، وتَبْسُط أَكُفَّ الضَّراعَة بالمُناجاة والدُّعاء، فيَجْبُر ضَعْفَك ويَصِل افْتِقارَك بغِناه، وحين تُصْغي بأُذن واعِيَة إلى نداءِ التَّكبير فتَشْعُر بعظَمة الله وبرَهْبةٍ تَسْري إلى أَنْفاسِك، تَنْفَكُّ لها عُقْدَة لسانِك ويَنْجَلي عن صَدْرِك صَدأُ الهموم، وتَنْزاح الغُموم وتَنْفَرِج الكُربات..

ولن تُدْرِك جَوْهر السَّعادة إلا إذا عرفت الغايات والمقاصِد والحِكَم من وراء ما يَحْدُث لك من خَيْرٍ أو شَر، وآمَنْت بيَقينٍ لا يَعْتَريه الشَّك أنَّ كلَّ ما يُصيبك في حياتِك إنَّما هو بإرادَةِ الله ومَشيئَتِه، وأنَّ عَطاءَه ليس في كلِّ الحالات إكْرامًا ولا مَنْعه في كلِّ الحالات حِرْمانًا، بل هي ابْتِلاءاتٌ واخْتِباراتٌ وأَرْزاقٌ تحتاج إلى فَهْم عميق وإِدْراك لدَقائِق الأَسْرار، التي يَكْشِفها الله لمَنْ اصْطَفاهم من عِباده الصَّالحين..

فقد اقْتضَت حِكْمتُه أنْ يكون العَطاء مِنْحَة أو مِحْنَة، أو

(1) سورة التوبة: الآية 100.

نِعْمَة أو نِقْمَة، كما اقْتضَت حِكْمتُه أنْ يكون المَنْع حِرْمانًا للتَّربية والتَّهذيب، أو ابْتِلاءً واخْتِبارًا لصِحَّة يقينِ العبد وصِدْقِ إيمانِه، ودَواءً لأَمْراض القُلوب وتَطْهيرًا للنُّفوس، وقد نبَّه الحَقُّ سُبْحانَه إلى هذه المعاني الخَفِيَّة على حَسيري البصَر والبصيرَة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾[1].

وقد جاء الجواب الإلهي الخَبيرُ بأحوالِ عباده والعَليمُ بشُؤونهِم، فقال تعالى: ﴿كَلَّا﴾[2]، ليُفَنِّد ما يَتوهَّمُه العقل القاصِر عن سَبْر الأَغْوار والإحاطة بأَسْرار المعاني، وخَواصِّ الحِكَم الإلهِيَّة من وراءِ تَصْريفِ النِّعَم أو مَنْعِها..

كما فَصَّل سبحانه في هذه المعاني في آيات كثيرة ليُبيِّن لعباده أَسْرارَ ما يَخْفى عليهم من خَيْرٍ أو شَر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].



(1) سورة الفجر.
(2) سورة الفجر: الآية 17.
(3) سورة البقرة: الآية 216.

2 ـ السَّعادة في الجدّ والنَّشاط..

إنَّ السَّعادة تَتمَثَّلُها الحَواس في هذا الوجود الفَسيح، حين تحُثُّ الخُطى على السَّعْي في الأرض بكَدٍّ ونَشاط، والعمَل وَفْق شِرْعَة أهل الهِدايَة والرَّشاد، وحين تُقْبِل على الدُّنيا إقْبالَ المُجِدِّين الطَّامِحين إلى نَشْر الخَيْر والنَّفْع، وتَلِج البابَ الضيِّق حتى تصِل إلى الطَّريق الفسيحِ الرَّحيب، وتَصْنَع بيَديْها الرَّغيفَ والخُبْز، وهي خالِيَة الذِّهن من كلِّ وجَلٍ أو عَطَل، وقانِعَة بلُقَيْماتٍ تُقيم الصُّلْب وتقوِّي السَّاعِد، ولا يهْنَأ لها عَيْشٌ حتى يَرْبو النَّبات ويَسْتقيم العود ويخْضَر، وتتَّسِعَ الرِّياض وأَفانينُ الزَّهْر، وتَمْتَلِئ السَّواقي والجَداوِل وتَفيض الأَنْهار بالماءِ العَذْب..

ولا يَشْغَلها همُّ الدُّنيا عن بُلوغِ غاياتِها، ولا يُكَدِّرها طَمَعٌ زائِل ولا تَرف، ولا يُشْقيها ما لم يَأْتِها من الدُّنيا على عجَل، ولا تَتأَسَّف عَلى فَواتِ ما لم يُقْسَم لها أو يُقَدَّر، فقد جَعل اللَّه غِناها في رِضاها وَجَمع شَتات شَمْلها وإنْ تَفرَّق، وبسَط لها أَسْباب الرَّاحة بَسْطًا، كي تَحْصُد سَنابِل الزَّرْع وتَلْتَقِط الحَبَّ والثَّمْر، فأَتَتْها الدُّنيا وهي راغِمَة كي تَسْعَد بعَيْشِها وتَهْنأ..



3 ـ هذه هي زهرة الحيا..

إنَّ السَّعادة هي زَهْرةُ الحياة لها أوراقٌ تَتفتَّح وأَشْواكٌ تَتوَقَّح، ولها فُصولٌ تَأْنَس إليها وتَطْرَب وفُصولٌ تَضْجَر منها وتَبْتئِس، ولها قَطراتٌ تَرْشُف منها الحُلْوَ والشَّهْد وقَطَراتٌ تَسْقيك المُرَّ والعَلْقَم، فمن تَوسَّد ثَراها والْتحَف الأرض وليس في قَلْبِه همٌّ ولا كَدَر، ولا غِلٌّ ولا حِقْدٌ ولا حسَد، ولا طمَعٌ يُغْريه بالتَّوَغُّل في شِعابِ الفِتَن، يظلُّ مُكَرَّمًا بحِلْيَة التَّقوى وحُلَل الإيمان المُرصَّع، ولِسانُ حالِه في عُقْلَة الفِطَن ولِسانُ قَلْبِه ذِكرٌ وشُكْر..

أمَّا مَنْ خَدعَتْه الأَماني العِجاف وغَرَّه طولُ الأمَل، فحالُه كما ذكَر ووصَف الحافِظ ابن الجوزي: «سرَتْ أخلاطُ الأمَل في أعضاءِ الكسَل، فتثبَّطَتْ عن البَدار، وقد صارت المفاصِلُ في مَنافِذ الفهوم سدَدًا، وما يَسْهُل عليك شُرْبُ مُسَهلٍ»[1]..

ولابن المُعْتز أبياتٌ فيها نَثارُ الخير، وحَثُّ النَّفس على الاحْتِماء من أَخْلاط الخَطايا:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها
وكبيرَها، فهو التُّقَى
كُنْ مثل ماشٍ فوق أر
ضِ الشوكِ يَحْذَرُ ما يرى

(1) المُدهِش؛ للحافظ أبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي ـ دار الآثار، ط الأولى 1422هـ ـ 2003م: ص 125.

لا تــــحـــــقــــرنَّ صــــغـــيـــرةً
إن الـــجــبـــالَ مـــن الـــحـــصـــى

وهذه هي زَهْرةُ الحياة حين تَسْتمِدُّ سعادتَك من أَنْوارِها ومَضاتٍ بارِقَة بالأمَل، ونظَراتٍ مُشْرِقاتٍ بالتَّأمُّل تَغورُ في بَواطِن النَّفس، وتَجول بالفِكْرة في الآفاق وتُعْمِل النَّظَر، فتَنكْشِف أمامَك الأَسْرار الخَفِيَّة والغَوامِض المُبْهَمَة، وتَنْفكُّ الأَقْفال عن أَبْوابك المُؤْصدَة، فتَتنفَّس الهواء العَليل وتَرْتَوي من مَوْرِدِها العَذْب معاني الوِصال والوُد..

وهذه هي زَهْرةُ الحياة حين تكون سَعادتُك في أُنْسِك بالله هي أَكْبَر من سَعادتِك بأُنْسِك بمَنْ سِواه، وحين يكون اشْتِياقُك إلى ما أعَدَّ لعِباده الصَّالحين مِنْ نَعيم الجنَّة أَعْظَم من اشْتِياقِك لنَعيم الدُّنيا الزَّائِل، تتمثَّل قَوْل الحَقِّ تَبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1].

ولا شَيْءَ أَعْظَم من ذلك في ذاكرَتِك التي لا تُخلِّد للحياة تاريخًا يشُدُّها إلى ثِقَل المادَّة، أو يَجْذِبُها إلى إغْراء مَباهجِها النَّضِرَة وفِتْنَة أَنْوارها الخادِعَة، وكما قال الحافظ ابن الجوزي: «فإنَّ حلواءَ الشَّرَه سببُ حمَّى الرُّوح، والبُخْل يُؤْذي عصبَ المُروءَة»[2].

(1) سورة النحل: الآية 97.
(2) المدهش: ص 125 (بتصرف).

بل هي ذاكرةٌ حَيَّة تُخلِّد تاريخًا مَجيدًا بجَلائِل الأعمال، وخُلوصِ النِّية للحَق ونُصْرةِ الدِّين، وحِفْظ الشَّرف وصَوْن العِرْض، وطَهارةِ السَّريرة من خَوارِم المُروءَة ومَواطِن إذْلال النَّفس..

والسَّعادة كتابٌ مَفْتوح أمام عُيونٍ ترى بنور البصيرة، فتُشْرِق القلوب المُؤْمِنَة وتُبْصِر الحَق، وتَنْظُر في أَسْرار الخَلْق وتَسْبُر أَغْوار الكون، ولا تَغْتَرُّ بظَواهِر الأَشْياء وما تَجْلِبُه الفِتَن من الغَفَلات، التي حَذَّر منها الحَقُّ سُبْحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8)﴾[1]..

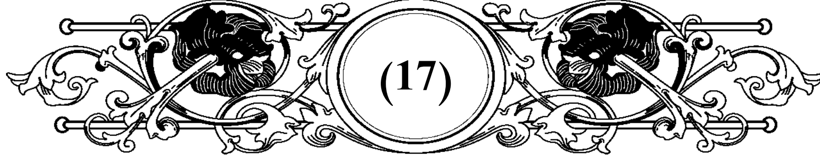
فوثاقُ القلوبِ المُؤْمِنَة رباطُ الإيمان، وهو مَوْصولٌ بالتدبُّر والاعْتِبار، ودَلائِل إيمانها ساطِعَةٌ في فَضاء الفِكْر، وآيات الكون ناطِقَةٌ بالعِبَر والحُجَج الغُر..

كما قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (192)﴾[2].



(1) سورة الروم.

(2) سورة آل عمران.



رسالة بعث الهمم

عندما يولَد بداخِلك خوفٌ يُخْرِسك ستَضيعُ منك الحُروف والكلمات والجُمَل، وستَظلُّ تَتجَرَّع مَرارة الصَّمْت وفي قَلْبِك بركانُ الغَضب يَثورُ ولا يهْدَأ، ولا شيء يَشْغلُك في هذا العالم إلا حسَراتُك على نَفْسِك وعلى صُروفِ أَقْدارِك، وتَمْضي السَّاعات والأيَّام وأنتَ كما أنتَ قابعٌ في مكانِك لا تتحَرَّك، ولا شيءَ فيكَ يتبدَّل أو يتغيَّر..

وأنتَ مُتَوتِّر الحِسِّ والأَعْصاب من مُشاهداتك وتَأمُّلاتك، وغَيْرك على الأَشْواك يَسير مَهْزومًا بسَيْل من الانْكِسارات، وحَوْلك أَعْينٌ ثَكْلى تَذْرِف شَلّالاً من الدَّمْع، ورجالٌ تَجْري دماءهم كالسَّيْل ولا تَهْزِمهُم طعَناتُ الغَدْر، وأنتَ عن هذا العالم شارِدُ الخَيال والفِكْر، مُقَيَّد في بُقْعَةٍ صغيرة جرَفتْ إليك أَثْقالَها منذ القِدَم، وصَوْتُك المَقْهور يَصْعد مِنْ عُمْق البحر، وأَنْفاسُك من الظُّلم تَجْمع أَعْمِدَة الصَّبر، ويَدُك تُلَمْلِم أَشْلاءَ ذِكْرياتٍ هي كلُّ ما تبقَّى لك، وماذا تبقَّى لك وأنتَ حَبيسُ الهموم مَغْمورٌ بالمِحَن؟؟..

وماذا تبقَّى لك وقد خارَت شجاعَتُك، ولانَتْ شَكيمَتُك وسَط الاسْتِسلام والتَّخاذُل، وهانَتْ قيمَتُك وكرامَتُك في سِجْن حياةٍ مَشْحونَة بالعَذاب والقَهْر؟؟

وماذا تبقَّى لك وأنتَ وسَط اليَأْس والإِحْباط في نَحيبٍ مُسْتمِر، تَرْنو إلى رَواحِل الكرامَة والعِزِّ والشَّرَف، لكنَّها بيعَت بأَرْخَص ثمَن وغابَ الضَّمير بين أَيْدي الطَّامعين وتَلاشى وأنْدَثر؟؟..

فلا غرابَة أنْ تَمْكُث حيث أنتَ لتُشاهِد وتتفَرَّج من أَعْلى القِمَم، فتَصْغُر في عَيْنِك الْأَحْجام والأَشْكال والمَعاني والصُّوَر، وتُتابع كيف تُساق الخُيول والجِياد بلا سَواعِد ولا هِمَم، وتَرى نفسَك بينهم تشُقُّ كُثْبانَ الرَّمْل..

وأنتَ لا حَوْلَ لك ولا طَوْل، ولِسانُ حالِك يُؤَرِّقُك، فتُلْهِمك الحِكْمَة في زَمنِ الإِعْسار والشِّدة، وتُحَدِّث نفسك فتقول: إنَّ مَنْ يتَّكِل على بصَرِه الحَسير سَيُدْرِك حَتمًا أنَّه ضَعيفُ الفِكْر والنَّظَر، أمَّا مَنْ يتَّكِل على رَبِّه ثم قوَّةِ ساعِدِه سَيُدْرِك أنَّه الأَشَدُّ والأَقْوى، وأنَّ الاتِّكال إنَّما يكون على القوَّة الإيمانيَّة، ومنها تَنْبُع سائر القوى البشريَّة ومنها تَصُب، ومَنْ كان يُؤْمِن بشَعْرةٍ مِنْ يقين لا بُدَّ أنْ يُقَوِّيها بحِبال الكَدِّ والكَدْح، لا أنْ يَرْكَن إلى ضَعْفِه وانْهِزامه، واعْتِدادِه بأَمْجادِ أَسْلافِه وأَجْداده بلا سَعْيٍ ولا عمَل..

إنَّها ألوانٌ تُحَرِّك المشاعِر الإنسانِيَّة من خُمولِها ورُقادِها الطَّويل، وتَرْسُم صُوَرًا من ذاكرة الحياة لا الخيال، تَرْصُد

مَشاهِد من الواقع المُعاش، عساها تُوَحِّد القلوبَ وإنْ اخْتَلفت الأَفْكار، وتَصْرِف عنها التعصُّب والضَّغينة ليَحُلَّ محلَّها السَّلام والوئام، ويُحِس كلٌّ واحِد بما يُحِسُّ به الآخر، وتَصْهرهم المَشاعِر في أتونٍ واحد، ويَسْكُبهم الجِدُّ والعمَل في قالبٍ واحد...

إنَّنا لسنا بحاجَة إلى ذاك المُتفَرِّج الذي يعاني من حالاتِ الجُمود، وانْقِطاع تيَّار الأفكار اللّازِمَة للإِنْجاز والإِنْتاج..

ولسنا بحاجَة إلى كلماتٍ مُزَرْكشَة بلا أوراق ولا أقلام، ولا إلى خُطَب رَنَّانة بلا أَلْسُن، ولا أَصْوات مُجَلْجِلَة في الآفاق، وناطِقَة بالحقِّ والعدل..

ولسنا بحاجَة إلى أولئك المُثَبِّطين الذين فقَدوا آمالهُم في الإِنْجاز والتّغيير والإِصْلاح، ولا إلى أصحابِ الفِكْر المَوْلود لا الفِكْر المُوَلِّد، ولا إلى أصحابِ الهَدفِ السَّاقِط الأَدْنى لا الهَدفِ النَّبيلِ الأَسْمى..

ولا إلى أولئك الذين تَعوَّدوا على التَّقْليد والمُحاكاة في سائِر شُؤونهم وأَحْوالهم، ولا إلى أولئك الذين تَعوَّدوا على أنْ يَظَلّوا كما هم، نُسَخًا مُكرَّرَة ومُنْتِجَة لنُسَخ أخرى مُكرَّرَة، بدل أن تكونَ مُنْتِجَةً لعُقولٍ مُبْدِعَة ومُفَكِّرَة، وواعِيَة برسالَتِها ووظيفَتِها في الحياة..

ولسنا بحاجَة إلى أنْ نظَلَّ كالبَبَّغاء نُرَدِّد ماذا تبقّى لي ولك؟؟، فنُبَذِّر ساعاتٍ نفيسَة من أَعْمارِنا ونحن في مَقامِنا هذا وعلى مَنابرِنا نُشاهِد ونتفَرَّج..

إنَّنا ما زِلْنا نَمْلِك أنْ نقول، وكلُّنا اعْتِزازٌ وفَخْر بهِمَّتِنا وعزيمَتِنا، وصَلابَتِنا ورَباطَةِ جَأْشِنا، وقوَّة إيمانِنا ويقينِنا: لقد تبقَّى لنا أنْ نَسْلُك السَّبيلَ إلى الله، فهو وحده مَنْ سيُنير لنا الطَّريقَ الضيِّق، ويَهْدينا إلى سبُل المَعْرفة وأَسْباب السَّعادة، وإنْ كنَّا وسَط الأَسْلاك الشَّائِكَة والصُّخور والشِّعاب، نُقاسي ضَنك العَيْش وعُسْر الحال..

وتبقَّى لنا هذا الدِّين العَظيم واليَقينُ الثَّابِت على الحَق، وهذا الإيمان الذي يَقْوى وإنْ ضَعُف به نَسْتَمِرُّ في الحياة، ونُصَحِّح ونُقَوِّم، ونُغيِّر ونُصْلِح ونُجَدِّد، وبه نَبْعَث الحياةَ والأمَل في أولئك الذين عَضَّهم الألم، وأَخْرسَهُم الوجَع ولجَّ بهم الهمُّ والقَرْح، فتاقوا إلى حياةٍ خالِيَة من الأكْدار ولو في لحظاتِ انْفِراج.

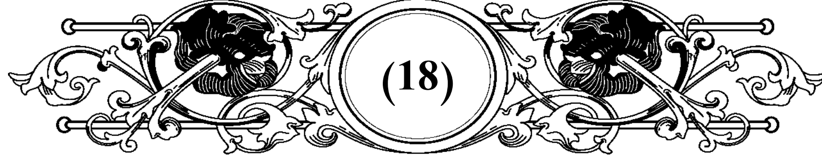
وبه نَسْتعين على شَدِّ عَضُد أولئك الذين يَضْرعون إلى مَن يُغيثهم من هَوْل الحُروب، والمَصارِع والمَذابِح التي فتَّتَت الأَكْبادَ وقصَمت الظُّهور، فإنْ كنَّا لا نَمْلِك طَوْق نجاة فإنَّنا نَمْلِك أن نَبْسُط أيدينا بالضَّراعة والدُّعاء، وأنْ نَطْرُق باب مَنْ لا يَقْطَع لنا حَبْلَ الرَّجاء..

وتبقَّى لنا أن نهَب أَفْكارَنا ولادَةً حقيقيَّة ونُبْدِع الأفكار، وأنْ نهَب قلوبَنا أَلْسِنةً وأقلامًا تَنْطِق وتَكْتُب وتُعَبِّر، فما زِلْنا بهذا العَقْل نُفَكِّر، ونَمْلِك بمَواهِبنا ومَلَكاتِنا وكفاءاتِنا العِلْمِيَّة أنْ نَسْمو ونَرْتقي، ونَنْطلِق بأَرْواحنا خارج تلك البُقْعَة الصَّغيرة من الأرض، لنَلِج البُقْعَة الفَسيحة من الأرض..

فالإنسان إذا ما أَمْعَن في طَلبِ المَلذَّات الأَرْضِيَّة، سَكَر من شَرابِها فأَثْملَه وأَدْمن الحَرام واسْتطابَ نَشْوتَه حتى يَتمَلَّكه، فيصبح أسيرًا يرى كلَّ بِقاع الأرض قاعًا صَفْصفًا، وكلَّ ما يُقدِّمه قَبْض الرِّيح وما يُنْجِزه من أَعْمال عليه حسَرات تِلْوَ الحسَرات فلا هو بملذَّاته مُطْمئِنُّ النَّفس ومُرْتاح البال، ولا هي ملذَّاتُه تُقَرِّبُه قَيْد شَعْرة من السَّعادة التي كان يَنْشدُها، ولا هي توصِلُه إلى المعرفة التي كان يَطْلبها، بل تُبْعِده وتصُدُّه عنها ليَغْرق في جهْله ولَهْوِه..

فالأرض تَضيقُ بمَنْ ملأَتْ النَّتانَة قلبَه وغَشِيَ القَذى عَيْنَه، والأرض تتَّسِع لمَنْ عرَف الفضيلَة والشَّرَف، وامْتَلأ قلبه برسالةٍ عظيمَةٍ تَرْقى بروحِه إلى عَرْشِ السَّناء الأَسْمى، وتوقِظ فيه الضّمير الإنساني، وتَبْعَث فيه الهِمَّة والنَّشاط وفي أَوْصالِه الرَّاكِدَة، والأرض تتَّسِع لمَنْ يساهم في تحقيق رسالة التَّغيير والإصلاح، ويَعْمَل على تطبيق رسالة العَدْل والإِنْصاف، وَفْق شريعَةٍ تَضْمَن الحقوق للجميع وتُلْزِمهم بما عليهم من واجِبات، وتُوَفِّر الأمان والسَّلام للأفراد والجماعات..





(18)

زَهْرة الحبِّ النَّضِرَة

الحبُّ من معاني السَّعادة التي لا تجِدُ لها تَعْليلاً ولا تفسيرًا ولا لغةً تُحاكيها، لأنَّها من صُنْعِ الخالق سبحانه الذي يحَرِّك القلوبَ كما يشاء..

والحبُّ من نِعَم الله المُهْداة إلى عباده الأَصْفِياء، ليَشْعروا بفَرْحة امْتِلاك تلك القِيَم النَّبيلة التي تصِلهُم بصِلات المودَّة والتَّآلف والانْسِجام، وهو رزْقٌ يتفضَّل به على من اصْطفاهم واجْتَباهم ليَسْتقبِلوا بذَراتِ الخير، ويتذَوَّقوا لذائِذ الشُّعور النَّقِي الطَّاهر، ويتنَعَّموا بأَسْرار الحياة الكريمة..

والحبُّ قيمةٌ إنسانِيَّة عظيمة تَجْمعُنا ولا تُفَرِّقَنا، ورياضٌ يَقْطِف منها الجميع زهراتٍ فائِحَة لحَياةٍ فُضْلى وأَنْقى، وسِراجُ القلوبِ المُنيرة بمَعاني الصِّدق والفَضيلة، ونَبْضٌ خافِقٌ بالمَشاعِر المُتَدَفِّقَة، وسِقاءٌ عَذْبٌ رَقْراق يسْقي القلوبَ الصَّادِقَة، ونَقْشٌ بديعٌ يُطَرِّز بساطَها، وزَخْرفةٌ جميلة من الفنِّ الإنساني العَريق، يتفَوَّق على جَمال زَخْرفَةِ الصِّناعة والفنِّ اليدوي، لأنَّه إنتاجُ

شجرةِ القلوب الوارِفَة، وإِنْتاجُ نَبضاتِها الخافِقَة، وقُطارَتِها النَّدِيَّة التي تُرطِّب تَجاعيد الحياة وتُرَتِّق تشقُّقاتِها، فتَرْشُف النَّفس من عَناقيدِها الفرحَ المُحَلَّى بالشَّهْد، وتتغذَّى من رُطَبِها المُدَلَّى ومن عـذق القلب ونَخْلتِه المُثْمِرة..



1 ـ الحبُّ الصَّادق الخالص

إنَّ أعظم حبٍّ في الوجود هو الحبُّ الخالِص الصَّادِق لله، الذي يَجِد العَبْد أثَره على نَفْسِه وأَهْلِه وبَيْتِه والمحيطين به، ويَجِد أثرَه في أَقْوالِه وأَفْعالِه وسُلوكِه العام، فيصير ذاك الحبُّ مَنْهج حَياتِه ومَدار أَعْمالِه وأَقْوالِه، وثمرَة قَلْبه وحصادَ لسانِه، تتَمثَّله الجَوارح في إقْبالها على العبادة بخُشوعٍ وإنابَة، وفي ارْتِباطِها الوَثيق بقِبْلة واحِدَة واتِّجاهٍ واحِد، وغايةٍ مُثْلى عند الرُّكوع السُّجود، وعند التَّلْبية والتَّكبير في خُضوعٍ كامِلِ الأَرْكان والفُروض، وعند الدُّعاء في مَواطِن الاسْتِجابة بكلِّ الخَلجات والنَّبَضات، والأَنْفاس، ونَبراتِ الصَّوت..

وهي مَنْزلةٌ عظيمة قد خَصَّص لها الإمام ابن القيم الجوزية فُصولاً تَليقُ بها، وتَحدَّث عن منزلة المحبَّة فقال: «وهي المنزلة التي فيها تَنافس المُتَنافسون وإليها شخص العامِلون، وإلى علمِها شمَّر السَّابقون، وعليها تفانى المُحِبُّون وبروح نسيمِها تروَّح العابِدون، فهي قوتُ القلوب، وغِذاء الأرواح، وقُرَّة العيون،

وهي الحياة التي من حُرِمَها فهو من جملة الأموات، والنُّور الذي من فَقَدَه فهو في بِحار الظُّلُمات، والشِّفاءُ الذي من عَدِمَه حَلَّت بقلبِه جميع الأَسْقام، واللَّذَّة التي من لم يَظْفَر بها فعَيْشُه كلُّه هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمَقامات والأَحْوال، التي متى خَلَت منها فهي كالجسَد الذي لا روحَ فيه..»[1]..

ومن أدْرك هذه المَنْزلة أَدْرك وجودَه الحقيقي، الذي عَرف من خلاله قِبْلتَه، وطريقَه الأَقْوَم الذي يُبَلِّغُه منازِل المُحِبِّين، الذين غَنِموا شرَف الدُّنيا والدِّين «إذْ مَسْراهُم دائمًا إلى الحبيب، وطريقهُم الأَقْوَم الذي يُبلِّغهم إلى منازلِهِم الأولى من قَريب.. إذ لهم من معِيَّةِ مَحْبوبهِم أَوْفَر نصيب»[2]..

فيا لها من نِعْمَةٍ سابِغَة على من عرَف للحُبِّ طريقًا وسبيلاً، وغايةً تُبَوِّؤه مَقاعِد الصِّدْق ومَقاماتِ الإِخْلاص، فيَسْتقيم على التَّقْوى ويَلْتَزِم طريقَ الهِدايَة، ويَتحَلَّل ممَّا يُثْقِل صَحائِف المُفْلِسين من الذُّنوب والخَطايا، ويتطَهَّر من أَدْرانِ الآثام ويتخَفَّف ممَّا يُثْقِل الظُّهور والمَطايا، ويُجيب مُنادي الشَّوق إذْ نادى بالمُحِبِّين فلَبُّوا وأجابوا النِّداء: «حيَّ على الفَلاح، فبذَلوا نفوسَهُم في طَلبِ الوُصول إلى مَحْبوبهِم، وكان بَذْلهُم بالرِّضى والسَّماح، ووصَلوا إليه المَسير بالإِدْلاج والغُدُو

(1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن القيم الجوزية ـ دار التقوى: 2/215.

(2) مدارج السالكين: 2/215.

والرَّواح، تا الله لقد حَمِدوا عند الوصول سراهم، وشَكَروا مَوْلاهُم على ما أَعْطاهُم، وإنَّما يحمد القوم السرى عند الصباح»[1].

ليظَلَّ ذاك الحبُّ بتلك المعاني والقِيَم، هو الشَّهْد الذي يُحَلِّي الألْسُن بالذِّكر والدُّعاء، وهو زَهْرة الحياة النَّضِرَة في أَبْهى صُوَر الجمال وأَصْفَى معانيه الحِسان..

۞ أ ـ الحبُّ الصَّادِق الخالِص له في كلِّ فصلٍ ميلادٌ جديد..

الحبُّ الصَّادِق الخالِص يَنْقُش آثارَ وُجودِه في الذَّاكرة، وله انْبِعاثٌ وظُهورٌ قوي يتجَدَّد بإِقامَةِ البَيِّنَة: (فلو يُعطى النَّاس بدَعواهُم لادَّعى الخَليّ[2] حرقة الشَّجي[3]، فتنوَّع المُدَّعون في الشُّهود، فقيل: لا تُقْبَل هذه الدَّعْوى إلا ببيِّنَة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[4]، فتأخَّر الخلق كلُّهم، وثبَت أَتْباع الحَبيب في أَفْعالِه وأَقْوالِه وأَخْلاقِه، فَطولِبوا بعَدالة البَيِّنَة بتَزْكِيَة ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾[5]، فتأخَّر أكثَرُ المُحِبِّين وقام المُجاهِدون، فقيل لهم: إنَّ نفوسَ المُحِبِّين وأَمْوالهُم ليست لهم، فهَلُمُّوا إلى

---

(1) مدارج السالكين: 2/215 ـ 216.
(2) الخَلِيّ من الرجال: الفارغُ البال من الهمّ، والخَلِيّ مَن لا زوجة له...
(3) الشَّجِيُّ: مَنْ شجَاهُ الهمُّ ونحوه، وفي المثل: «ويْلٌ لِلشَّجيِّ من الخَلِيّ».
(4) سورة آل عمران: الآية 31.
(5) سورة المائدة: الآية 54.

بـيْـعَـة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1]، فلما عَرفوا عظمَة المشتري، وفَضْلَ الثَّمَن، وجَلالَة من جَرى على يديه عَقْدُ التَّبايُع، عَرفوا قَدْرَ السلعَة وأنَّ لها شَأْنًا، فرَأَوْا من أَعْظَم الغَبْن أن يَبيعوها لغَيْره بثمَنٍ بَخْس، فعَقَدوا معه بيْعَة الرضوان بالتَّراضي، من غيرِ ثُبوتِ خِيار فقالوا: «فواللَّهِ لا نُقيلُكَ ولا نستقيلُكَ» فلما تمَّ العَقْد وسَلَّموا المَبيع قيلَ لهم: «مُذْ صارَت نفوسكم وأموالكم لنا رَدَدْناها عليكم أَوْفَر ما كانت، وأضْعافَها معًا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[2]..»[3]..

والحبُّ الصَّادِق الخالِص له رَسائِل تَنْثرُ عَبيرَها في حَدائِق المحبِّين الأَصْفِياء، فتُزْهِر النَّبضات وتَصْدَح بتَغاريدِ الحبِّ، وموَّالِ الحَنين والأَشْواق، وتَرْتقي بالمَشاعِر غَيْمات الفَرح، وتَسْتحِمُّ بهُطولِها العِذاب، وتَكْتُب الكلمات تاريخَها ونشيدَها الرَّنَّان..

والحبُّ الصَّادِق الخالِص يُدَوِّن أَحْداثَ وجودِه على سُطورِ الزَّمن، ويُسجِّل المَواقِف والتَّجارب عبر فُصولِ العُمْر، وله تَأَمُّلاتٌ ونظَراتٌ وعبَراتٌ عند مَحطَّاتِ العُبور، وفتَراتٌ مختلفة تَتحَرَّك خلالَها الأَنْفاس وتُدَنْدِن النَّبضات، وتَتقَلَّب في شِرْيانِها وتُبْطِئ وتُسْرِع، ثم تَمُدَّ طريقًا يصِلُها بتَباشيرِ الأمل المَوْعود

(1) سورة التوبة: الآية 111.
(2) سورة آل عمران: الآية 169.
(3) مدارج السالكين: 2/217.

ويُبَلِّغها مَرْساها الآمِن، تَدْعو المُحِبَّ إلى بَذْلِ الجُهْد لكَسْب رِضا مَنْ يُحِب وطاعَتِه، وإيثارِ مَحابِّه التي توصِلُه إل المُرْتقى والمُبْتَغى والمَطْلب..

«فإذا غُرِسَت شجَرة المَحبَّة في القلب، وسُقِيَت بماءِ الإخْلاص، ومُتابَعَةِ الحبيب أَثْمَرَت أَنْواعَ الثِّمار، وآتت أُكُلَها كلَّ حينٍ بإِذْنِ ربِّها، أَصْلُها ثابتٌ في قَرارِ القلب، وفَرْعُها مُتَّصِلٌ بسِدْرَةِ المُنْتَهى، لا يزال سَعْيُ المُحِبِّ صاعِدًا إلى حبيبه لا يَحْجبُه دونَه شيءٌ»(1)..

والحبُّ الصَّادِق الخالِص يحْمِل لذَّةً يجِدُها القلب بإِدْراكِ المَحْبوب ونَيْلِ المُشْتَهى، يتَولَّد عنها فرحَة تَزُفُّ الأرواحَ يقينًا وسُكونًا، وطمَأنينةً تُزَيِّن المُحَيَّا بالبسَمات، وما يسُرُّ النَّاظِر ويُبْهِج الخاطِر، تَشِفُّ عن مَحاسِنها وعن معاني اللَّطافَة والجَمالِ البَديعِ الصِّفات والخِلال..

«فلا شَيْء أحَقُّ أن يَفْرَح العبد به من فَضْلِ الله ورَحْمَتِه، التي تتضَمَّن المَوعِظَة، وشِفاءُ الصُّدور من أَدْوائِها بالهُدى والرَّحمَة (...) وما آتاها من ربِّها الهُدى الذي يتضمَّن ثَلج الصُّدور باليَقين، وطُمَأْنينَة القَلبِ به، وسُكونَ النَّفس إليه، وحياةَ الرُّوح به، و«الرحمة» التي تَجْلِب لها كلَّ خَيْر ولذَّة، وتَدْفَع عَنْها كلَّ شَرٍّ ومُؤْلِم، فذلك خيرٌ من كلِّ ما يَجْمَع النَّاس من أَعْراضِ الدُّنيا وزينَتِها، أي: هذا هو الذي يَنْبَغي أنْ يَفْرَح به، ومَنْ فَرِح

(1) مدارج السالكين: 2/217.

به فقد فَرِح بأجل مَفْروحٍ به، لا ما يَجْمع أهل الدُّنيا منها، فإنَّه ليس بمَوْضِعٍ للفرح، لأنَّه عُرْضَة للآفات، ووَشيكُ الزَّوال، ووَخيمُ العاقِبَة، وهو طيْفُ خيالٍ زار الصبَّ في المَنام، ثم انْقضى المنام، ووَلَّى الطَّيْف، وأَعْقَب مَزارَه الهجران»[1].

۞ ب ـ الحبُّ الصَّادق الخالص هو عطاءٌ مشترك..

الحبُّ الصَّادِق الخالِص يُزَيِّن القلوبَ بحُلَلٍ بهِيَّةَ المعاني، يَرْبِط بينَها بوَشائِج المودَّة والوِئام، ويَسْقي عُروقَها الضيِّقَة بغَيْث المحَبَّة والأُلْفَة، ويَرْوي الشِّفاه اليابِسَة من رَحيقِها المَسْكوب، فتَتفَتَّق النَّضارَة والصِّبا في الوجوه، وتَلْتَحِف الغُصونُ الذَّابِلَة أوراقَ الزَّيتون، ولا يَغْرُب رَفيفُ المشاعِر الصَّادِقَة عن مَآقي العيون والقلوب في المَشْهد والمَغيب..

فما أَجْمَل أنْ تُشارِك من تحِبُّهم لحظاتِ فَرحِك بأَشْيائِك مهما كانت صغيرة، وأنْ تتأمَّل مع من تُحِبُّهم أَسْرارَ الكون والكائنات، فتَشْعُر أنَّ إبْصارَك يتَّسِع ليَشْمل مساحاتٍ أَرْحَب، بتلك المشاركة التي تَدْعوكَ إلى اسْتِقبال الصُّوَر بإِحْساسٍ فريد، يَرْحَل بك عن وجودِك الضيِّق إلى وجودٍ يَحْتويكَ بالكامِل..

فأنت موجودٌ بوُجودِ مَنْ تُشارِكُهم الحياة بلا حَواجِز ولا

(1) مدارج السالكين: 2/332.

سُدود، ومعَهم أنتَ تتذَوَّق لذَّةَ المُشاهدَة وتَسْتمتِع بكلِّ مَنْظَرٍ جميل يَجْذِب بصَرك ووِجْدانَك..

وأنت موجودٌ بوُجودِ مَنْ تُشارِكُهم البَحْث والاكْتِشاف، الذي يَدْعوكَ إلى بَذْلِ الجُهْد لإِدْراك حقيقة الأشياء، ومَعْرفَة ماهِيَّتها وكُنْهِ مَعانيها، ولطائِف حُسْنِها وما بَلغَتْه من آثارِ الجَلال والإِبْداع..

فتتعَلَّم معهم كيف تَفُكُّ قُيودَ إِحْساسك الخَجول، وتتخَلَّص من الأنا والذَّاتِيَّة الطَّاغِيَة، وتتحَرَّر من حَبْسِ نفسِك في زنزانة الوحدة والاغْتِراب، والخُلود إلى التَّفكير المُغْلق والتفَرُّد بالتَّذَوق..

وأنت موجودٌ بوُجودِ مَنْ يتقاسَمون معَك مَشاعِر السَّعادة، ويَتذوَّقون معَك لذَّة العَيْشِ الرَّغْد، ويتنفَّسون معَك عِطْر الحياة، ويُشارِكونَك اللَّحظات الجميلة حين تَأْكُل وتَشْرب، وحين تُفَكِّر وتَحْلُم، ويَرْحَلون معك خارج نفَقِك الضيِّق..

وهذا الوجود المُشْترك بما يَحْمِله من معاني عظيمة، يَبْعَث في داخِل كلِّ فردٍ حياةً فُضْلى، تنْشَط بأَلْفِ فِكْرة وأَلْفِ حُلْم وأُمْنِية، تَشُقُّ طريقَها لبُلوغ الغاياتِ في أَقْصاها البعيد، وتَرْفَع صاحِبَها إلى القمَّة حيث يجِد مُبْتَغاه في جَوِّها البديع، وتتنفَّس أَحْلامُه النَّسيمَ العَليل، وتَتَّحِد روحُه بأرواح طاهِرَة انْسجمَت مع أَلْوانِه وأَطْيافِه..



2 ـ الحبُّ إحساسٌ فريد لا يَسْكُنُ أفُق الخيال والوهم

الحبُّ يهَبُك إحساسًا فريدًا تتمثَّلُ معانيه الطَّاهِرة، وتَصْدَح بتَغاريدِه الكلمات والحروف، وتضُمُّه الشِّفاهُ بضَمَّاتِ الفَرح والسُّرور..

والحبُّ ليس أفكارًا خادِعَات تجْذِبُك إلى السُّقوطِ في الهاوية والمُنْحدَرات، ويَرْحَل بخَواطِرك بلا حُدود ولا ضوابط مُحْكَمات..

والحبُّ ليس سلسِلةً من المُغامَرات الشَّائِقَة والحِكايات الجريئَة، تُغْريك أنْ تُدَوِّنَها بافْتِخار واعْتِداد على سُطورِ يوميَّاتِك، والحبُّ ليس سلسِلةً من الأَحْلام السَّاحِرَة تَحْياها لفَتْرَةٍ مُؤَقَّتَة، ثم تَصْحو منها لتَكْتشِف أنَّك كنتَ شارِدًا في مَتاهاتِ الجَهالَة والغَفْلة، غارِقًا في بُحورِ الوَهْم والضَّلالَة..

إنَّما الحبُّ كخَلَجاتِ أَنْفاسِك يعْلو ويَنْزِل، وكقَطراتِ دمِك يَجْري في عُروقِك، وكقطَراتِ الماء العَذْب يروي ظمأَك، وكسَنابِل الزَّرع والنَّخْل والشَّجَر يمُدُّ جُذورَك بالحياة في حُضْن الأرض، فيَسْكُن ارْتِجافُ وريدِك على مِهادِ وريدٍ آخر يشُدُّه إليه، ويوثق عُهودَه بالصِّدْق والوَفاء، بلا اهْتِزازِ المَشاعِر على حِبال الانْقِطاع..

والحبُّ هو الرِّباط المَتين الذي يَجْعلُك قريبًا من بعض الأشخاص فتَأْلفهم ويَأْلفونَك، وتجِد معهم فَرْحتَك وسُرورَك،

وتَشْعُر بسعادَتِك ووُجودِك، وانْشِراحك بمُجالسَتهِم والأُنْس بحَديثهم. .

وهذا الحبُّ لا يحتاج إلى مُبرِّرات ولا إلى أدِلَّة إثْبات تُخاطِب العقل وتُرْضِي المَنْطق، ولا يحتاج إلى فلسفَةٍ مُعَقَّدة، أو قِياساتٍ رياضِيَّة أو رقمِيَّة أو حِساباتٍ مادِّية، ولا يَسيرُ وَفْق نظام صارِم يَلْتزِم بشُروط، تَنْتَظِم في دائرة مُغْلقة ومُحيطٍ مَسْدود. .

بل هو إحساسٌ فريد ونبضٌ خافِقٌ ومُتَناغِم مع وِجْدانك، يَشْدو على أَوْتار قلبِك أَجْمَل الألحان، ويُرَدِّد مع أَنْفاسِك أَشجى الأَغاريد، ويتدَفَّق مع صَبيبِ دَمِك، ويَمْتزِج امْتِزاجَ روحِك بجسَدِك، فيَجْذِبُك إليه بخِفَّة حتى يَتملَّكَك حُرًّا طَليقًا بلا قيود، ويَحْتَويك كما يَحْتَويك الوطَن، فيه الأَمْن والسَّلام يَمْلأ أَرْكانَك وزَواياك ومُحيطاتك، ويسَعُ مِساحاتك وفَراغاتِك وحياتَك بالكامِل، بكلِّ أجزائِك وتَفاصيلِك وأَسْرارِك ودَفائِن نفسِك. .

وتلك هي العلاقة والمُناسَبة التي بها تَسْتحكِم المحبَّة، فإنَّ التَّناسُب والتَّوافَق بين الأرواح إذا وُجِد وتحقَّق، كان من أَقْوى أسباب المحبَّة والإخلاص «فكلُّ امرئٍ يصْبو إلى من يُناسِبُه». .

وإنَّ تَشاكُل النُّفوس وتَمازجُها في الطِّباع والأَخْلاق والأَذْواق، يَجْعل بينها تَقارُبًا وانْجِذابًا قوِيًّا، وانْعِكاسًا شَفَّافًا، حَقيقتُه ذاك التَّوافُق العَجيب، والتَّشاكُل والتَّمازُج في أَغْلب

الأَحْوال، فيَجْعَل كلّاً منهما يُبْصِر جَوْهَر نفسه في مرآة الآخر بلا حجُب ولا أَسْتار..

«فإنَّ مَنْ ناسَب قَصْدُكَ قَصْدَه حصَل التَّوافَق بين روحِك وروحِه، فإذا اخْتلَف القَصْد زال التَّوافَق، فأما التَّناسب الأصلي: فهو اتِّفاقُ أخلاقٍ وتشاكُل أرواحٍ وشَوْقُ كلٍّ نفسٍ إلى مُشاكِلها، فإنَّ شبه الشيء يَنْجَذِب إليه بالطَّبْع، فتكون الرُّوحان مُتشاكِلَتيْن في أَصْلِ الخِلْقَة، فتَنْجَذِب كلٌّ منهما إلى الأخرى بالطَّبْع، وقد يقَع الانْجِذاب والمَيْل بالخاصِّية، وهذا لا يُعَلَّل ولا يُعْرَف سَبَبُه كانْجِذابِ الحديد إلى الحجر المِغْناطيس»[1]..



3 ـ الحبُّ انْعِتاقٌ واخْتِيارٌ حُر..

الحبُّ انعِتاقٌ واخْتِيارٌ حُر وليس قرارًا تُصْدِرُه الفُصول والدَّساتير، وَفْق شُروط وقَوانين وأَحْكام إِلْزامِيَّة، بل هو كطَيْفِ خيالٍ ساحِرِ الإيماض يمُدُّ عِرْقَ وَصْلِك بالجِذْر، فيَسْري إليك شدَنُ الحَنين وعَذْب المناجاة، ويَعْزِف أَلْحانَه على قيثارِ صَدْرِك خافِقًا مع شهَقاتِك والزَّفَراتِ، مُتَناغِمًا مع مَشاعرِك على امْتِدادِ فصولِك والأيَّام..

(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين/ابن القيم الجوزية ـ دار الفجر، ط. 1426هـ ـ 2005م: ص66.

تتمَثَّلُه على فِطْرتِك النَّقية وطبيعَتِك الصَّافِيَة كما تتمَثَّلُه وجوه الأطفال، وتتلوَّن بأَلْوانِه الصَّادِقَة كما تتلوَّن تَقاسيمُ الأطفال بحُمْرَةِ الوَرْد، وتُعَبِّر عنه بأَشْواقِهِم التي طَبعَتْها الشَّمس بلَثماتِها في البُكور..

والحبُّ يُراوِدُك عن كثَب كأَحْلام الرُّعاة، فهي على طبيعَتِها النَّاعِمَة الفَتِيَّة، لا كأَحْلام الحضَر المُتْرفين بمدَنِيَّتِهِم الزَّائِفَة..

والحبُّ يَحْتويك كأحْلام الأطفال وتَساليهِم الجميلة، ورَغباتهِم السَّاذجة والبسيطَة، وآمالهِم المُعَلَّقة على ما أُسْدِل بينهم وبين الدُّمى والأَلْعاب، وما حُجِبَ عن أَبْصارهِم من صُوَر، يَخالونها مِنْ بعيد بحَجْم القمر، في ذاكرَتهم التي لا تتَّسِع مِساحتها لأَحْلام الكبار العَريضة ومَطامِعهم العظيمة..

والحبُّ بهذه المعاني يهَبُك السَّعادة التي تَكْفيك وتُغْنيك، فلا شَيْء يَشْغَلُك بعدها غير انْبِساطك بأَشْيائك القَليلة والرَّخيصَة في عُيونِ المُتْرَفين، ولا شَيْء بعدها يُثْقِل كاهِلَك إلا حَقائِب الحياة بما تَحْويه من كُتب، وكُنَّاشات، ودَفاتِر، وأقلام..

ويَكْفيك من الحبِّ ذاك الشُّعور بالاطْمِئنان، والنَّفْس الرَّاضِيَة التي تَسْكُن إلى الرَّاحَة بعد التَّعَب، لتَبْدأ فُصول حِكايات الليل مُثْقلةً بحِكايات النَّهار، كتلك الحِكايات القَديمة التي تَرْويها الأمَّهات والجَدَّات للأطفال، تدْعوك لتُصْغي إليها فيَغْمرُك الفَرح بالبِشْر والمسَرَّات، كما يَغْمُر نفوسهم الوادِعَة الهادِئَة، فيشِعُّ من عُيونهم بريقٌ وَقَّاد، لم يَلْحقه البُؤْس ولا الشَّقاء..

فللحُبِّ حِكاياتٌ تَتْلوها أصوات القلوب قبل النَّبَرات، وللحبِّ فُصولٌ يَنْسُجها الحِسُّ والوِجْدان، وبين كلِّ حِكايةٍ وحِكاية يُخَيِّم صَمْتٌ طَويلُ الاعْتِبار، تتحرَّك بين أَسْفارِه القُلوب وتَراتيلُ التَّسْبيح والذِّكر، كما تَتحرَّك حِكايات الأطفال على شِفاهٍ مَلأتْها تجاعيدُ الزَّمن، فرسمَت على حُمْرتِها الذَّابِلَة ابْتِسامةً رَزينة يَعْتريها الكُسوف، تُنْبِئ عن تلك الحِكْمة التي صقَلتْها الأيَّام والتَّجارب، فجَعلتْ الأمَّهات والجدَّات أَنْفَذ بصيرَةً وأَدَقَّ فِطْنَة، وأَصْفى ذِهْنًا كالمرآة المَصْقولَة، تُبْصِر في لمَعانِها وصَفائِها أَدقَّ التَّفاصيل الخَفِيَّة. .



4 ـ الحبُّ يَكْبُر ولا يشيخ كما تشيخ الوجوه

الحبُّ الذي يولَد نتيجَة التَّفاعُل والتَّأثير هو إعْجابٌ مُؤقَّت، له حَدٌّ يَنْتهي إليه حين تَضْعُف أسباب الإبْهار أو يَخْبو وهَجُه وتأَلُّقه. .

أما الحبُّ الصَّادِق الخالِص فهو لا يَخْضع لشُروطٍ مُرْتبطَة بالزَّمان المُؤَقَّت ولا المكان المُحَدَّد، بل يدور مع كلِّ الفُصول ويَطولُ امْتِدادُه ومقامُه اللَّطيف في القلوب، إذا اسْتَقامَ بلا اعْوِجاج ولا الْتِواء ولا انْحِراف عن الجادَّة. .

والحبُّ يَكْبُر ولا يشيخ حين يشُدُّ وِثاقَه بإيمانٍ يُحَرِّكُه، وسُلوكٍ حسَن ومُعاملات تَدُلُّ على إِشْراقِه وسمُوِّه، وامْتِدادِه

بمعاني الوفاء، والوِداد، والأُنْس، والاعْتِزاز بالكرامة، والشَّرف والعِرْض، ولا يَجْنَح إلى نَكْثِ العَهْد وإخْلافِ الوَعْد، فلو بطلت مسألة المحبَّة بهذه الصفات والمعاني: «لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطَّلَت منازِل السَّيْر إلى الله، فإنَّها روحُ كلِّ مقام ومنْزِلَة وعمَل، فإذا خلا منها فهو ميِّت لا روحَ فيه، ونِسْبَتُها إلى الأَعْمال كنِسْبَةِ الإِخْلاص إليها، بل هي حقيقَة الإخْلاص، بل هي نَفْس الإسلام، فإنَّه الاسْتِسلام بالذُّل والحُب والطَّاعَة لله، فمن لا محبَّة له لا إسلام له ألبَتَّة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يألهه العباد حبًّا وذُلّاً، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعةً له..»[1]..

والحبُّ يَكْبُر ولا يشيخ حين تُحَرِّكُ مَعانيه نَبضاتُ المَشاعِر قبل الحروف والكلمات، وحين يَكْتُب تاريخَه المجيد ويُخَلِّف آثارَه الخالدَة، لتظلَّ دالَّةً على مَعانيه الرَّاسِخَة في الذَّاكرة، الثَّابِتَة على أُصولِها وفُروعِها، المَشْدودَة إلى قِيَم الاحْتِرام المُتبادَل، والتَّجانُس والتَّفاني، والإِخْلاص إلى أَبْعَد الحُدود..

والحبُّ يَكْبُر ولا يشيخ حين يكون القلب صغيرًا كالبُرْعم، والحَنين يمُدُّ وَصْلَ الجِذْرِ بالمَنْبَت، فتظَلُّ فُصول الحُبِّ حَبْلى بأوراقِه من زمن الورد، والكلمات والحروف تَتوقُ إلى ميلادِه الجديد ليَصِل القلوبَ بصِلاتِه، ويَسْطع نورُه السَّاري إلى الأَعْماق، فيَمْتدَّ إلى أَقْصى مَداه في القُرْبِ والبُعْد بلا انْتِهاء..

(1) مدارج السالكين: 2/230.

وحين يَخْبو وهَج تلك المعاني، ويَنْطَفئ بريقُ الكلمات الصَّادِقَة، تَضيقُ مِساحَة العَطاء والبَذْل والتَّضْحِية، ويَحُلُّ مَحَلَّها الشُّعور بالأَنانِيَّة، وتَصيرُ المَصْلحة هي المُتحَكِّمَة، ويَصيرُ المَوْقف هو الحَدُّ الفاصِل في مَصير الحُبِّ واسْتِمراريَّتِه..

«فمن أحبَّك لأمْرٍ ولَّى عند انْقِضائِه، فداعي المحبَّة وباعِثُها إنْ كان غَرضًا للمحِبِّ لم يَكُنْ لمَحبَّتِه بَقاء، وإنْ كان أمْرًا قائِمًا بالمَحْبوب، سَريعُ الزَّوال والانْتِقال زالَت محَبَّتُه بزَوالِه، فإنْ كانت صِفَةً لازِمَة فمَحبَّتُه باقِيَة ببَقاءِ داعيها، ما لم يُعارِضْها مُعارضٌ يوجِب زَوالَها، وهو إمَّا تغَيُّر حالٍ في المُحِب، أو أَذى من المَحْبوب، فإنَّ الأَذى إمَّا أنْ يُضْعِفَ المحبَّة أو يُزيلَها»[1]..

قال الشاعر:

خُذي العَفْوَ منِّي تَسْتَديمي موَدَّتي
ولا تَنْطِقي في سَوْرَتي حينَ أَغْضَب
فإنِّي رأَيْتُ الحُبَّ في القلبِ والأَذى
إذا اجْتمَعا لم يَلْبثِ الحبُّ يَذْهَبُ

فالحبُّ إنْ لم يكُنْ موقفًا شُجاعًا لن يَفْرِض وجودَه بجُرْأة ولن يسْتمِر، بل سيظَلُّ خلفَ ستارِ الظِّل والعتمة مَجْهول الهوِيَّة..

(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ص 69.

«فأنت إذا تأمَّلت الوجود لا تكاد تجِد اثْنَين يتحابَّان إلا وبينهما مُشاكلَةٌ أو اتِّفاقٌ في فِعْلٍ أو حالٍ أو مَقْصِدٍ، فإذا تبايَنَت المقاصِد والأَوْصافُ والأَفعالُ والطَّرائِق لم يَكُنْ هناك إلا النَّفْرَة والبُعْد بين القلوب»[1]. .



5 ـ الحب ارتقاءٌ وفضيلة

الحبُّ يَسْمو بأَخْلاقِك ويَرْتقي بأَفْكارِك، ولُغَتِك ومَنْطِق لسانك، وهو مَخاضٌ عسير يُخْرِجُك من رحِم الحياة الضيِّقة، إلى حياةٍ فُضْلى برَحابتِها واتِّساعِها، فيُظْهِر أَفْضل ما تَحْمِلُه بداخِلك من مَشاعِر وأفكار، وخَواطِر، وأحلام، وذكريات، واخْتِيارات ذَوْقِيَّة وتعبيرِيَّة. .

وكلَّما كان حبُّكَ عظيمًا سيسَعُك ويسَعُ القلوبَ بلا سُدود، وسَيرحَلُ بك خارجَ الأَسْوار والحُدود، ويسافِرُ بروحِك إلى أَبْعَد مكان لا تحمِلُكَ إليه خُطاكَ البطيئَة، وسيُحَرِّر عقلك فيسَعُ الأفكار العظيمة، ويَرْتقي بك مَراتِب المجد بأَسْبابِ الطَّلَب، فيَزْدانُ تَفْكيرُك بتَحْصيل العلوم والمعارف. .

وستتعَلَّم حينَها كيف تُفَكِّر قبل أنْ تَتكلَّم، وكيف تَكْتُب وتُناقِش، وتُحَلِّل، وتُعَلِّق، وتَخْتار وتُقَرِّر. .

---

(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ص 73.

وستَتَعَلَّم متى تُوافِق ومتى تَعْتَرِض، فلا تَتَعَجَّل في إِصْدار أَحْكامِك بلا إقامَة الحُجَج والأَدِلَّة الرَّاجِحَة..

فالحبُّ والعِلْم يوهَب لمَنْ رفَع مقامَهما معًا وسَما بهما في العَلْياء، وأَنْصفَ في وُدِّهِما وبذلَ لهما أَنْفسَ الأوقات، وسَلك بهما طريقَ التعَقُّل والتفَكُّر والاعْتِبار، ووضَع يدَه البيضاء على ما بين العقل، والحِس، والوِجْدان، من الضَّوابط والحُدود، وجَمع بين الرُّوح والمادَّة، وبين العِلْم والعمَل، برباطٍ وَثيق يشُدُّ عَضُدَها، ويصِلُها برسالتِها النَّبيلة في الحياة، بفضل تلك الرُّوح العلمِيَّة الوثَّابة التي جَمعت بين كلِّ تلك المَحاسِن والخِلال..

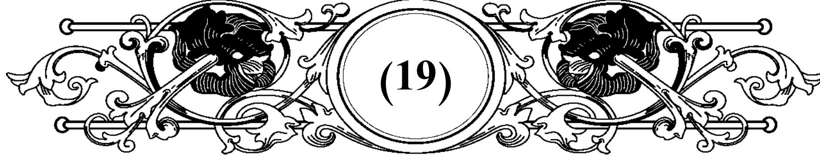
وذاك حالُ النُّفوس الشَّريفة الزَّكِيَّة العلْوِيَّة، فهي عاشِقَةٌ لصِفاتِ الكمال بالذَّات، لمُناسَبَتِها لجَوْهَرِها الصَّافي، ولتلك اللذَّة والسَّعادة التي تجِدُها في بذْلِ مَحابِّها، وما يحْمِلها عليه الجود والإحْسان، وفَرْطُ الحُبِّ الصَّادِق المَقْرونِ بالمعرفة والعِلْم والإيمان..

فعِشْق صفاتِ الكَمال من أنْفَع العِشْق وأَعْلاه، وإنَّما يكون بالمُناسَبة التي بين الرُّوح وتلك الصِّفات، ولهذا كان أَعْلى الأرواح وأَشْرفها أَعْلاها، وأَشْرفَها مَعْشوقًا كما قيل:

أنت القتيلُ بكلِّ مَنْ أَحْبَبْتَه
فاخْتَر لنَفْسِك في الهَوى مَنْ تَصْطَفي(1)



(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ص 69.



الحب.. والخروج عن المألوف

إننا لا نلتقي في الحياة عبَثًا، ولا لمجرَّدِ إشْباعِ الرَّغَبات والنَّزوات الجامِحَة، أو لتَلْبِية المَطامِع التي تَسْكُن أرواحَنا، بل لأجل تلك الحقيقة التي تَمْتلِك مشاعِرَنا، وخواطِرَنا، وتفكيرَنا بالكامِل، وتُوَلِّد بداخلنا انْجِذابًا فَريدًا اتجاه بعض الأشخاص، ممَّن امْتَلكوا القِيَم والفَضائِل، وكان لكَدْحِهِم رسالة عظيمة في الحياة، اسْتَحقَّت جِهادهم في سَبيلِها وصَبْرهم على شَدائدِها ومِحَنها، مع احْتِفاظِهم بطَبائعِهم وصفاتهم الإنسانِيَّة وفطرتهم النَّقِيَّة، وارْتَقائهم بالحبِّ الخالِص الصَّادِق مَقاماتٍ ومنازِل عُلْيا..

حيث يتحول الحب من شعورٍ وجداني فردي لا يتجاوز العلاقة الثُّنائِيَّة، إلى شُعورٍ يتحَدَّى الأنا والآخر ويَنْشُد غاياتٍ أَسْمَى، تشمل الحُبَّ الذي يُؤسِّس لبِناء الأسرة الصَّالحة، التي ستكون نواة المجتمع الصَّالح، وبناء الجيل الصَّالح الذي سيُقيم قَواعِد الحب، على أُسُس تَحْترم القِيَم والفَضائِل، والأُصول والثَّوابت، وأَحْكام الدِّين والشَّريعة، ومَقاصِد الوُجود التي تَشْمل الأفراد جميعاً، ضِمْن غاياتِ الوُجود الكبرى، التي تُحافظ على

الشَّرف والمَبْدأ، كما تُحافظ على مُمارسَة الحُرِّيات المُلْتَزمة بضَوابطها، غير المُتَفلِّتة من عِقالها، ولا الشَّارِدَة وسَط مَزالِق الدُّروب الوَعْرَة، التي تَسوقُ الإنْسانيَّة إلى مَثْواها الأخير..

إلا أنَّ الحبَّ قد يتحَوَّل عن هذه الغايات حين يَدْخُل في قَوالِب شِعْريَّة، ذات طُقوس مَعْرفيَّة مختلفة لا تَخْشى الاقْتِراب من الأفكار، ولا المَشاعِر، ولا ممَّن يَحْمِلونها على اخْتِلاف تَلوُّناتهم، وتوجُّهاتِ مَذاهِبهم وفَلْسفاتِهم المُتَعدِّدَة، ولا تَهابُ أن تَدْخُل قلبَ المعركة الفاصِلَة بين الماضي والحاضِر والحقِّ والباطل، ولا تَهابُ أن تَلِج قلبَ الصِّراع بين الرَّأْي والرَّأْي المُخالِف لنَقْده وتَقْويمه، ولا تَرْضى بالثَّبات على التَّصَور التَّقليدي ولا بالمحافظَة على التُّراث، أو إحْداث ثَوْرة تُنْتِج قراءَة جديدة مُنْفَتِحَة على الثَّقافة الحديثة..



فنتفاجَأ بصورة جديدة للحب، لا نَدْري من أين انْبعَثَت؟ !!

إلا أنَّها تَحْمِل ما هو مُخالِف لتصَوُّرنا الكلاسيكي، في التَّعبير عن ذَواتِ النَّفس والحديث عن مَواجِد شَخْصِيَّة، فيصبح الحبُّ ذا معاني مُرْتَبِطة بنَظْم القصيدة، وهي تَحْمِل عُمْقَ المَزْج بين «الإحساس» وبين «الفِكْر»، في اعْتِراف غير مُباشِر خارج مِنَصَّة القَضاء والمُرافَعات..

وهي تتلوَّن بتلك الأَلْوان التي يَحْمِلها النَّاظِم والشَّاعر، داخل نَسيج تتحكَّم فيه ما تتقاذَفُه من تَجاذُبات مَعْرِفِيَّة وثقافِيَّة، وفلسفِيَّة، وما يرفُّ له قلبه وعقله من أفكار وأحاسيس، وخَواطِر ورُؤى، وما يتمثَّله شِعْرًا..

وتَمثُّل الشِّعْر كما يتصوَّرُه الشَّاعر صلاح عبدالصبور هو: «اعترافٌ بمعنى مكثَّف، ولأنَّ تجربة الشَّاعر تجربة متعَدِّدَة الجَوانِب، ولدى كلِّ شاعر ما نُسَمِّيه بمَخْزن، هذا المَخْزن هو ما نُسَمِّيه ذكرياته، وقراءاته، وأفكاره، وما عاينَه، وكل ما مَرَّ به في حياته، وهذا المَخْزن غير مُرَتَّب، ولكن ما يكاد الشَّاعر يَلْتقِط مَطْلع القصيدة، ويبدَأ في نظام قصيدته، حتى تتَكوَّن حول هذا المَطْلع عشرات الأفكار والصُّوَر.. كأنَّ هناك إناء فيه مادَّة مُشْبعَة، أو فوق مُشْبعَة، مُذابَة في ماء، فكأنَّك أَلْقَيت في وسط هذا الإناء حَبْلاً، تتجَمَّع حوله كلُّ هذه البِلَّوْرات، مُتَّخِذَةً أشكالاً غريبة، لامِعَة، ويأتي هذا من غِنَى الشَّاعر الدَّاخلي، غِناهُ بالثَّقافة وبالتَّجربة، وبالإحساس، وباللُّغة..»[1].

كما تَحْمِل صورة الحب لدى الشَّاعر معاني تتحَدَّى النَّمَطِيَّة في بَثِّ الإِدْهاش والإِعْجاب، لتَنْقُل بين تَلوُّناتها وأَشْكالها المختلفة صدى تلك الرُّوح الوَثَّابة، وصَوْت الإنسان وهو يتحَدَّث، ويَحْلُم، ويُفكِّر، وهو يَسْتعمِل اللُّغة كفَنٍّ من فنون

---

(1) آخر حوار مع صلاح عبدالصبور ـ أجرى الحوار: حسان عطوان، أكتوبر 1981م: في ظل الذاكرة، حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة» ـ العدد 100، فبراير 2016م ـ: ص 228 ـ 229.

التَّعبير، يُلْقي بإِضاءَة تُشْرِق على الحياة التي يَحْتويها القلب والوِجْدان، والعقل والإدراك لتقديم صِياغَة جديدة..

فالشَّاعر حين يَكْتُب عن الحب، تَجِدُه يَبْحث عن تلك الصِّياغَة الجديدة، لتَغْيير نِظام الأشياء من حوله، وهنا تظهر شخصية الشاعر «نزار قباني» كنموذج للشَّاعر الذي طالما تغَنَّى ونظَم قصائده، وطافَ بها حَوْل دائرة المرأة واعْتَبرها مَصْدر إِلْهامِه، وهي وطنه الذي يَحْلُم أن يُحَرِّره من كلِّ القيود، وإنْ كان هذا الوطن حُرًّا بلا قيود..

بل هي الأرض التي كان يَجْتَثُّ منها جُذور الهويَّة، ليَصْنع لوجودِها وحياتها هويَّة دخيلَة ومُسْتوردَة، وكانت وسيلَتُه في ذلك هي الكلمة، بعد أن فشل أن يكون موسيقيًّا أو رسَّاماً، وقد ذكر ذلك وهو يتحدث عن نفسه، فقال: «لم يَكُن صوتي جميلاً، ولكن كلُّ إنسان يتَصوَّر أنَّ صوته جميل، كنت أشعر ذاك الحين أنَّه يُمْكِن التَّعبير بالموسيقى عن النَّفس الإنسانية، وحاولت بالفِعْل أن أتعَلَّم الموسيقى، لكن ثبتَ لي أنِّي سأكون موسيقِيًّا فاشِلاً، وأنا لا أَقْبل أَنْصاف الحلول، فانْتَقلت إلى الرَّسْم، غرقت في الألوان والأَصْبغة واللَّوحات، وكنت أرسم حتى حيطان البيت، بعد عامين من الرَّسْم بالألوان والأَصْباغ، بعدهما كنت في الخامسة عشر من عمري، ثبتَ لي أنَّ اللَّون أَخْرس، يعني ليس له لسان، مثلما الموسيقى يجب أن تُتابِعَها بالإدراك النَّفسي، وليس باللَّمْس، عندئذ اكتشفت الكلمة هي مُبْتغاي، شعرت أنَّ الكلمة هي الأَقْدَر على أن تعبِّر عن عَواطِفنا، لأنَّها لغة الإنسان للإنسان، وهي لغة مباشرة، ليست لغة محدودة،

مثل الموسيقى أو الرَّسم، وهكذا انتقلت إلى الشِّعر..»[1]..

لهذا نَجِدُه يُعَبِّر بالكلمة شِعْرًا وهو يَتغنَّى بالحب، ويَعْتبِرُه نوعًا من التحَدِّي والمواجهة، ونوعًا من النَّقْد لما أَسْماه بالقوانين الجاهِزَة، والأفكار الحجَرِيَّة، لإيصال صوت الحقيقة إلى الناس..

ولكن، ما هي الحقيقة التي كانت تُغْريه بأنْ يُغامِر بالشِّعْر، كي يثور ويصول ليُغيِّر نظام الأشياء من حوله؟ !!



إنَّه «الخروج عن المألوف»..

لأن وظيفة الشاعر في تصَوُّره الخاص وفلسفته الثَّورية، هي: «أن يكون قنبلة مَوْقوتَة، توضَع تحت سَريرِ أهل الكهف، وتحت أَسِرَّة المُتَخلِّفين والانْكِشارِيَّة..»[2]..

بل إنَّه «الخروج على القانون»، إنما على أيِّ قانون هو خارج؟ !!

الجواب عن هذا السؤال، يَظْهر من خلال عَرْضِ تَأمُّلاتِه الخاصَّة، حين يتحَدَّث عن شِعْره فيقول: «لا شِعْر حقيقي إلا في الخُروج على القانون، والقانون الذي أخرج عليه، هو

(1) المرجع نفسه ـ: ص 38.
(2) المرجع نفسه ـ: ص 35.

القانون البالي، القانون الخطأ، القانون الذي يحاول أن يُبْقِي الإنسان العربي واحِدًا من أهل الكهف، مُسْتسلمًا للغَيْبوبة، وهذا يَرْفضُه الشِّعر..»[1]..



وأكثر من ذلك إنها «ثورة تغيير»..

تَسْعى إلى أنْ تُحْدِث تَحوُّلات كثيرة، وأنْ تُنْتِج تَأْثيرات في المنطقة العَربِيَّة، مهما وجَدت من مقاومة أو مواجهة من طرف مَنْ أَسْماهم «بأهل الكهف»، أو وجَدت معارضة من أولئك الذين لا يريدون للحياة العَربِيَّة أن تتطَوَّر، فلا بُدَّ من تَحْقيق التَّغيير المَنْشود، ومُواصَلة الكفاح في منطقَة عَربِيَّة كان يرى أنَّ لها قوانينها الجاهِزَة، ولها طُقوسها واحْتِفالاتها، لأنَّ الشِّعْر من وجهة نظَرِه هو: «صراعٌ، وتحَدٍّ»[2]..

وهذا يعني بالنسبة له: «أنَّ كل كلمة مَكْتوبة لا بُدَّ أن تصِل، ولا بُدَّ أنْ تُشْعِل حَرائِق، ولا بُدَّ أن تُغَيِّر التَّركيب الأساسي للإنسان العربي»[3]..

لأنَّه في اعتقاده، «لا جَدْوى للشِّعر بدون تغيير للنِّظام

(1) المرجع نفسه ـ: ص 36.
(2) المرجع نفسه ـ: ص 36.
(3) المرجع نفسه ـ: ص 36.

العام، بما في ذلك حَرْق كل الأوثان، واقْتِلاع الخُرافات من جُذورِها، وفَضْح التمثيلِيَّة الزَّائِفَة، وفَضْح الممثِّلين..»[1]..

وبالتالي، فالشَّاعر «نزار قباني»، كان على خِلافٍ مع مَنِ كانوا يقولون إنَّ الثورة يجِب أنْ تَبْدأ اقتصادِيَّة أو اجتماعِيَّة، فكان يرى: «أنَّ الثورة ينبغي أن تبدأ بتَحْريرِنا لأَنْفُسِنا ولأَجْسادِنا»[2]..

وهنا تتحوَّل الثَّوْرة من تَغْيير للنِّظام العام، إلى ثَوْرة للتَّحَرُّر من الدِّين، والتقَّاليد، والأَعْراف الاجتماعِيَّة، وثَوْرة على مَنْظومَة القِيَم والأَخْلاق، وانْسِلاخ عن الأصول والثَّوابت..

ولقد اتَّخذ المرأة هي البطلة التي تُؤَجِّج مَشاعِر القصيدة، وتَبْعَث إِلْهام الفِكْرة وتُحَرِّك مَخاض القلم وعاصفة الحب، ولأنَّه كان يَنْظر إلى المجتمع العربي في عصره ومرحلته على أنَّه مجتمع متخَلِّف، فالحَل الوحيد أمامه ليتقَدَّم ويَنْهض هو أنْ تتحَرَّر المرأة، ولهذا كان يَفْتخِر لأنَّه اسْتَطاع أن يُعَبِّر عمَّا يَخْتلِج في ذاتِها، ولأنَّه تَوَلَّى تَرْجمة عَواطِفها، وتَرْجمة ما كانت تُريد أنْ تقولَه بقوَّة وشجاعة..

وهكذا سخَّر شِعْره ليُحَرِّر المرأة، وصار يرى نفسه هو المَسْؤول عن إِنْقاذِها، وهو من سيَخْلع عنها القيود والأَغْلال..

وأكَّد على ذلك في غير مناسبة فقال: «مضَت عصورٌ على

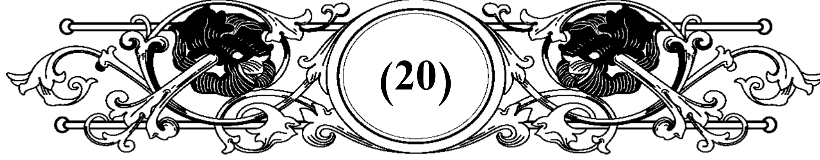
(1) المرجع نفسه ـ: ص 36.
(2) المرجع نفسه ـ: ص 39.

المرأة وهي مَحْبوسَة في زجاجة، ومَخْتوم عليها بالشَّمْع الأحمر، يعني مَمْنوعَة من الكلام، ومن التصرُّف، وهكذا حاوَلْت في شِعْري أن أُنْقِذها من هذه الوَرْطة، ومن هذه الزِّنْزانَة الانْفِرادِيَّة، فأنا أعتقد أنَّ المرأة مخلوقٌ يُعادِلُنا ذِهْنًا وعقلاً، وأحاسيس وشعورًا..»[1]..

بل صارت المرأة تحتوي ذاكرتَه «بحجم الوطن»، بل هي الغاية التي كان يَطْمح إليها، ومن خلالها كان يتحَدَّث عن الحب بكلِّ ألوانِه وعن مختلف القضايا، دون أن يُجَرِّد المرأة من تلك «القداسة» إلى حَدِّ الإفْراط في التَّعَرِّي، والانْسِلاخ عن كلِّ ما يحفظ للحبِّ عُذْريَّته وعِفَّته وطَهارته، ويُحَصِّن المرأة من التحرُّر السَّاقِط، الذي لم يَكُنْ إلا ثَوْرة لنَشْر الفوضى، والانْحِراف عن تَطْبيق النِّظام، ومخالفَة الطَّبيعة والفِطْرة والهُوِيَّة..



(1) المرجع نفسه ـ: ص 40.



الصديق.. الفكرة والأمل

خرج يبحث في هذه الحياة عن صديق يَجْمع بين رِضا رَبِّه وراحَة نفسِه، فاحْتارَ بين عَواطِفه وهي تَثورُ على حافَةِ صَمْتِه وقَلْبِه المَكْسور الحَزين، وأَفْكاره التي تَرِفُّ لخَواطِره وخَلجاتِ أَنْفاسِه، فَوجَد النَّاس تَتحَرَّك في الشَّوارع، وحَدَّق في الوُجوه فلم يَجِد مَلامِح تُشْبِهُه، ولا كَلمات تُطْرِبه ولا حُروفًا تَضمُّها الشِّفاه بضَمّات الفَرح .

فالسِّرُّ في جَمال الطَّبيعة يَتدفَّق على مَنْ يَهْتزُّ طَرَباً للمَعاني الجميلة، كما يَهْتزُّ مُحِبٌّ وجدَ مع مَنْ يُحِبُّه أَسْبابَ سَعادتِه واغْتِباطه. .

والسِّرُّ في تلك النَّفس الرَّاغِبَة الطَّامِحَة إلى بُلوغِ مَهْد الجَمال والنُّور، والتَّنَعُّم بنَظراتٍ تُسَبِّح تَعْظيمًا لمَنْ خَلَقَ هذا الجَمال البَديع الصِّفات. .

والسِّرُّ في تلك الخُطَى التي تَتحرَّك في ثَباتٍ وانْتِظام، وفي تلك العُيون التي تُضيء في وَجْه الظَّلام وتَسْطع كالنُّجوم، وذاك

اللِّسان الذي يتكلَّم بمَدْح وثَناء ولا يَفْتر يذْكر الله آناء الليل وأطْراف النَّهار..

والسِّر في هذا الإنسان الذي خرجَ يَبْحث داخِل مَمْلكتِه الإِنْسانيَّة عن صديق يُشارِكه فصول الحياة، والنَّظَر في أَسْرار الكون والكائنات، والتدبُّر في نظام الطَّبيعة المُحْكم بإِتْقان عجيب، في انْعِكاس أَلْوانِها على أَلْوانِ النَّفس في رَوْضِها المُخْصِب، مَزْهُوَّة بوشاحِها الأَخْضر وطِراز الأرض، وروائِح السَّعادة تُعَطِّر الجوَّ والقلوبَ بنَفحاتِها وأريج أَفْراحِها..

والسِّرُّ في هذا الصَّديق الذي خلَع عنه أَسْماله وارْتَدى للحياة لباسَ التُّقى والفَضيلة، فاصْطَفاه وآثَرَه ولم يَجِد نُظَراءَه في سَجاياه ومَحامِده، وروحِه النَّقية التي لم يُخالِط صفاءَها إلا ما يُخالِط الفِطْرة من نَقاءٍ وطُهْر، كأنَّ أَشِعَّة الشَّمس قد أَلْبسَتْه سِتارًا ظَليلاً، وأَرْخت على روحِه سِدْلاً أَبْيض لامِعًا..

والسِّرُّ في هذا الصَّديق المؤمن الذي يُسَجِّل معه تاريخَ الحياة السَّعيدة، لأنَّ لوجودِه فرحةٌ تَرْحل بأَشْواقِه إليه، كما يَرْحل المُهاجِر الغريب بأَشْواقِه إلى وطنِه فتظلُّ الرُّوح في غاية الانْتِشاء، لأنَّه فرحَة العيد وبَهْجة الحياة، التي تُزَيِّن الشِّفاه بالبسَمات والضَّحكات، ولأنَّه مَرْفأ الأمان ومَرْسى السَّلام الذي يَسْكن إليه، فيَشْعُر بالرَّاحة والاسْتِجْمام، فتَتخلَّى روحه عن المَشاق والأَثْقال، وتَنْفك عن قيود الرِّق والاسْتِعباد..

فهو أمامَه بكامِل حُرِّيته يَتكلَّم ويُعَبِّر، ويَصْرُخ ويَثور ويَغْضب، ولا يَحْتاج إلى أَلْوان تُنْتِجُها المَصانع البَشريَّة، بل

تَكْفيه ألوانُ النَّفس على سَجِيَّتها وطبيعَتِها، وألوانُ الحَقيقة عند ظُهورِها وتجَلّيها بلا زَيْفٍ ولا خِداع..

وهو أمامَه بصِفاته وحالاته البَشريَّة، كأنَّه مَوْلودٌ صَغير خرج للدنيا فبَدأ يُعَبِّر بلُغَته الغامِضَة، وإشاراتِه الغَريبة، عن وُجودِه في عالم الكبار..

وهو أمامه إنسانٌ حقيقي على فِطْرته وطبيعته، يَتقلَّب بين فُصول الحياة ويُسَجِّل تاريخَه الكامِل، وحكاياته التي يَنْسُجها الحبُّ بنَسيجِ الحياة المُشْتركة، التي تهَبُ المُحِبَّ أَسْبابَ التَّعَلُّق بالآمال العَريضَة وأَحْلام المُحِبّين الأَصْفِياء.

فيظلُّ يُردِّد معه: هكذا تكونُ لغةُ المُحبّين للمُحبّين، وهكذا تكونُ لغةُ الجمال المُلَوَّن بأَلْوان الشَّمس الدَّافِئَة، وهكذا تكونُ لغةُ الرّوح التي تَنْبِض من عِرْق النُّور، المُنْبَعِث من العَين، والشَّفَة، والأُذن، وكلِّ الحواس، وهكذا يكونُ الحبُّ صادِقًا خالصًا، وهكذا يكونُ الوَفاء حين تُحَرِّكُه روحُ حامِلها في أَبْدع تَصْوير، وهكذا يكون الإحْساس الذي لا تَجِد له تَفْسيراً ولا ترجمَةً، ولا لُغةً إلا أنَّه خُلِق على طَبيعتِه من إبْداع الصّانِع سبحانه..

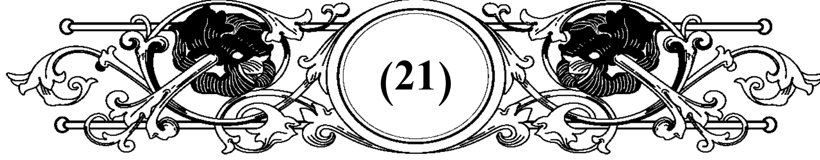
وتَمرُّ السّاعات في اجْتِلاء الفَرح، كأنَّهما في عالمهِما الخاص خارجَ دائِرَة الزَّمن وحَركتِه، حيث لا صَوْتَ يُسْمَع إلا صوتُ القلب، في نظام دَقّاتِه الخافِقَة بالحُب الصَّادِق الخالص، الذي يَحْمِل أَسْرارَ الحياة ومَعانيها التي تَحْتوي كلّاً منهما كما يَحْتويهما الصَّدْر الرَّحيب..

فلا يمَلُّ أحدهما من ثرثرة الآخر أو حَديثِه، ولا يتَذمَّر من زَلّاتِ لسانِه ولا من سَقَطاتِه، ولا من ثورةِ جُموحِه وبُرْكان غضَبِه..

فكم نحتاج في حياتنا إلى مِثْل هذا الصَّديق، الذي يَأْمُرنا بالخير ويَنْهانا عن المنكر، ويكون صادِقًا ولا يَخْدَع، ومُحِبًّا وفيًّا لا يَحْسُد ولا يُبْغِض ولا يَكْره..

وكم نحتاج في حياتنا إلى مِثْل هذا الصَّديق التَّقِي، ليُشارِكنا الأَفْراح والأَتْراح، ويَتقاسم معَنا الأَحْلام والآمال والأَهْداف النَّبيلة، ويَسْعى معَنا في طريق الجِدِّ والعمَل، لنتَقدَّم إلى الصُّفوف الأماميَّة في كلِّ مجالاتِ الحياة، ونَنْهض بأمَّتِنا ونُحَقِّق انبِعاثًا حَقيقِيًّا للقِيَم والفَضائِل والعُلوم والمَعارف..





الصَّرح الشامخ . .

حين تكتب المرأة عن الرَّجُل فهي تقِف عاجِزَة أمام هذا الصَّرْح الشَّامِخ، الذي يُتَمِّم نِصْف شُموخِها ويَمُدُّ وَصْلَ شِرْيانها بالحياة، في تَكامُلٍ وتَمازُج يَرْبِط بينهما برِباط الوَفاء، ويَصِلهُما بعُهودِ الصِّدْق والإِخْلاص للرِّسالة النَّبيلة التي يَحْمِلانها، والتَّآلُف الذي يُوَثِّق العُرى بينهما، ويَرْبطهُما بأَواصِر المَودَّة والرَّحمة والوِداد، لأَجْلِ تَحْقيق التَّعايُش المُنْسَجِم مع تمَثُّلهما لمَعاني العُبودِيَّة في أَسْمى مَراتبِها، والارْتِقاء بوُجودهِما المُشْترك لإِرْساء قَواعِد البيت النَّاجِح، وبِناء الأُسْرة الطيِّبَة الأَعْراق، وتَنْشِئَة الجيل الصَّالح النَّافِع لمُجْتمَعِه وأُمَّتِه . .

ومهما أَدْركت المرأة من فُنون التَّعبير البَديع، وامْتَلكت فصاحَةً في اللِّسان، وبَيانًا مُحْكمًا ومَنْطِقا رَشيدًا ورَأْيًا سَديدًا، تظلُّ قاصِرَة عن بُلوغ تلك القمَّة التي يقِفُ الرَّجُل عند حَدِّها، لأَنَّه كيانٌ مُسْتقِلٌّ بذاتِه كما أنَّ لها قمَّة تَرْتفِع إليها، وكيانًا ووُجودًا مُخْتَلفًا عن وُجودِه . .

وهذا الاخْتِلاف والتنوُّع لا يحُطُّ من قَدْرِها، كما لا يُضْفِي على الرَّجُل صِفَة الكَمال والتَّمام الذي لا يعْتَريه النُّقْصان، إنّما صِفَة التنوُّع والاخْتِلاف مُرْتَبِطة بالتَّكوين النَّفسي والتَّركيب الفيسيولوجي، المُوافِق لمُعْطَيات الفِطْرة والطَّبيعَة التي جُبِل عليها كلٌّ منهما..



1 ـ الرَّجُل والمرأة يمثِّلان كيانًا مشتركًا

وهذا الكيان المُشْترك أساسُه التَّكامُل والانْسِجام بينهما، وغايَتُه الارْتِقاء والتَّسامي في القَوْل والفِعْل والسُّلوك العام..

۞ أ ـ معاني الارْتِقاء عند الرَّجُل:

يتمَثَّل الرَّجُل معاني الارْتِقاء عند احْتِوائه للمرأة التي هي أمُّه، أو ابْنَته، أو زوجته، أو من أَصْل قرابَتِه ورَحِمه..

وحين يُحَقِّق لوُجودِها قوَّةً وتَمْكينًا، ويَحْفظ لكيانها الطُّمَأنينة والأمان والسَّلام، ويُلبِّي حاجاتِها الضَّرورية ويُوَفِّر لها أَسْبابَ الحياة الكريمة، ويصون كرامتَها من الإهانَة والابْتِذال، ويَذود عن شَرفِها ويَحْمي عِرْضَها فلا يُداس..



۞ والرَّجُل يَرْتقي القمَّة. .

عندما يَنْعكِس نورُ إيمانِه الباطِني على ظاهِره وعلى مَنْ حوله، وعندما يُمارِس التديُّن الحقيقي ويُطبِّق أحكامَه في كلِّ شُؤونِ حياته، فيَصيرُ أَهْلاً لحَمْل الرِّسالة وأَهْلاً للتَّكريم والرِّفْعَة وعُلُوِّ المكانة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1]. .

وحين يحثُّه هذا الاصْطِفاء على التقدُّم إلى صُفوفِ القِيادَة والرِّيادَة، والالْتِزام بواجِب التَّكليف والوِلايَة، تَطْبيقًا وإقْرارًا بعُهودِ الالْتِزام بحِفْظ الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[2]. .

فيَسْتَحِق أنْ يكونَ في زُمْرَة مَنْ اخْتارَهُم الله وفضَّلهم بشَرفِ القِوامَة، وذكَرهم في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3]. .

۞ والرَّجُل يَرْتقي القمَّة. .

عندما يَخْتار لوُجودِه هدَفًا عَظيمًا وغايةً أَسْمى، تَجْعله يَرْتفِع إلى أَعْلى دَرجاتِ الاسْتِقامة، فيتحَلَّى بمَكارِم الأَخْلاق

(1) سورة الإسراء: الآية 70.
(2) سورة الأحزاب: الآية 72.
(3) سورة النساء: الآية 34.

وأَحْسن السَّجايا والخِلال، ويَعِفُّ نفسَه عن الجَهالة وخَوارِم المُروءَة، ويَحُثُّ الخُطى على الأَخْذ بأَسْباب الجِدِّ والنَّشاط في العمَل، والدَّأْب على السَّعْي لبُلوغ مَراتِب الإِنْصاف والعَدالة، والسَّخاء والبَذْل والجود بالعَطايا، والإيثار والإحْسان للغَيْر مع فَضْلِ الزِّيادة، وغَضِّ الطَّرْف عن التَّجْريح والإِساءَة..

۞ والرَّجُل يَرْتقي القمَّة..

حين يُدْرِك أنَّ المرأة تُشاركه الحياة وهذا الوجود، ولها مَكانَتُها ومَنْزِلتُها التي تَليقُ بها، فيُحافِظ عليها كحِفْظِه لنَفْسه ومَكانتِه، ولا يُقَلِّل من شَأْنِها، ولا يُنَقِّص قَدْرَها ولا يَخْفِض مَنْزلتَها، ولا يُهين كرامتَها، ولا يُنْكِر ما خَصَّها الله به من حُظْوَة وعِنايَة، ولا يَبْخَس حَقَّها وما لها من أَفْضلِيَّة، تُزَكِّي أَفْضَلِيَّته وتُتَمِّمُها وتَرْفع دَرجاتِه وتَسْمو بها، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]..

فلا أَفْضَلِيَّة لرَجلٍ فقَدَ تلك المعاني وصَدَّ عن تلك الغايات النَّبيلة، وسَعى في الأرض عُتُوًّا وفَسادًا، وجَبروتًا وطُغْيانًا..

ولا أَفْضَلِيَّة لرَجلٍ اسْتَبدَّ به التَّعَصُّب للتَّقاليد والأَعْراف، التي وَرِثَها عن أجداده وليس لها في حُكمْ الدِّين من عُرْفٍ أو انْتِساب..



(1) سورة البقرة: الآية 228.

ب ـ معاني الارْتِقاء عند المرأة

كما أنَّ المرأة تَتمثَّل معاني الارْتِقاء باتِّصافِها بالحَياء والطَّهارة والعِفَّة، واحْتِفاظها على طبيعَتِها وفِطْرتِها النَّقِيَّة، وإِحْساسِها الرَّهيف وقَلْبِها الدَّافئ، وعاطِفَتها الجيَّاشَة التي تَحْتوي زوجها فتُسْعِدُه وتَسُرُّه، وتَحْتوي بيتَها وأُسْرتَها وأَبْناءَها ومَنْ حَوْلَها..

۞ فالمرأة تَرْتقي القمَّة..

حين تُعين الرّجُل على طاعَةِ الله، فتَحْميه من الوُقوع في مَراتِع الفَساد، وتصُدُّه عن السُّقوط في شرَكِ الضَّلال، وتَصْرفُه عن مَواطِن الانْحِراف..

وحين تَرُدُّه عن كلِّ غائِلَة تَحُطُّ من قَدْرِه ومَكانتِه، وتُقَوِّي عَضُدَه وتَشُدُّ ساعِدَه، وتُحافِظ على كرامَتِه وهَيْبتِه، وتَرْفَع ذِرْوَة شُعورِه بنَخْوتِه، وتُزَكِّي اعْتِدادَه بنَفْسِه، وتُعينه على مُواجهَة الخُطوب والشَّدائد وهَزْم مَصارعِ الأهواء..

۞ والمرأة تَرْتقي القمَّة..

حين يشِعُّ نورُها في الأرض كالشَّمس أَوَّل انْكِشافها وظُهورِها، فتَغْمُر مَنْ حَوْلها بالدِّفْء وتَبْعث فيهم الشُّعور بالفَرح والسَّعادَة..

وحين تُذيع الحَقَّ بلِسانها وتُقِرُّه بسُلوكِها، وتَنْصاعُ له

بجَوارحِها إيمانًا وتَصْديقًا، وحين تُقْبِل على الله بقَلْبِها وروحِها وسائِر أَعْضائِها، وتَتمسَّك بحَبْلِه المَتين وتَصون ميثاقَ الالْتِزام، الذي من شُروطِه كما قال النبي ﷺ: «**إذا صَلَّت المرأة خمُسَها، وصامَت شَهْرها، وحَفِظَت فَرْجَها، وأطاعَت زوجها، دخلَت جنَّة رَبِّها**»..

۞ والمرأة تَرْتقي القمَّة..

حين لا يَتملَّكُها الرَّجُل بضعف إيمانِه، ولا يَجْرِفُها إلى نزَعاتِ أَهْوائِه، ولا ينْحرِف بها إلى ما اسْوَدَّ من رغَباتِه، بل هي من تَتمَلَّكُه بقوَّة إيمانِها، وحُسْنِ سَريرتِها، وما آتاها الله من شَرفٍ وعِفَّة..

وحين تَصيرُ هي قَلْبَه النَّابِض وعَقْلَه الرَّشيد، ووَقودَه ومُحَرِّكَ طاقَتِه ونَشاطِه، وهي مَنْ تَشْحَذ هِمَّته للمُضِي نحو القِمَّة في سُلوكِه ومُعامَلاتِه..



2 ـ التَّكامُل بين الرَّجل والمرأة في الأهداف والغايات

لا يَمْلِك الرَّجُل والمرأة أنْ يُحَقِّقا معًا التَّكامُل في الأَهْداف النَّبيلة والغايات العَظيمة، حتى يصِلا معًا إلى إِدْراك معاني الارْتِقاء، ويصير بُلوغ القِمَّة بالنِّسبة لوُجودهِما المُشْترك كِفاحًا مُقدَّسًا لنَيْل المَطالب بنَزاهَة وشَرف، وليس بالاسْتِبداد أو

الاسْتِعباد بالقَهْر، أو إثْبات القوَّة بالقَسْر، لأنَّ البَقاء في القمَّة للأَصْلَح والرِّفْعَة والعُلو للأَقْوَى بالحقِّ والعَدْل، أمَّا ما يَحْمِلُه الإنسان من طينَةِ الأرض وخَبَثِها فمَآلُه إلى زَوال واضْمِحلال، كالزَّبَد يَطْفو على السَّطْح ثم لا يَلْبث أنْ يتحَلَّل ويصير جُفاءً..

وهذا مَصيرُ مَنْ كان أَصْل ظُهورِه التمسُّك بالباطِل، ومَصْدر قُوَّتِه الغلبَة والبَطْش، فالجَوْر مهما بلَغ سُلْطانه لا يَلْبث أنْ يضعف ويَتَبدَّد، وليس لصاحِبه بعد صُعودِه إلى القمَّة إلا السُّقوط إلى الهاوية، مِصْداقًا لقَوْل الحَق سُبْحانَه الذي وضعَ الميزان بالقِسْط والعَدْل فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(1)..

فليست القمَّة ساحَة حَرْبٍ ونِزال بين الرَّجُل والمرأة، إنَّما القمَّة مَرْتبةٌ عُلْيا لا تُدرَك بأَدْنى المَطامِح وأَحَطِّ المَطامِع، بل بما يتمَثَّلانِه من قِيَم وفَضائِل، وعلى قَدْر اسْتيعابِهِما لحَقيقة وُجودِهِما المُشْترك وغاياته، وعلى قَدْرِ سَعْيِهِما معًا لتَحْقيق التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، مِصْداقا لقَوْلْ الحَق سُبْحانَه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(2)..

فيَتقاسَمان المَهام والوَظائف والمَسْؤولِيَّات بحسَب ما يَنْسجِم مع طبيعَة كلٍّ منهما، ليَعْملا سَويًّا على النُّهوض برسالة التَّغيير والإصلاح، وسُلوكِ الطَّريق الوارِيَة لبُلوغ مَراتِب القمَّة، في القَوْل والفِعْل كما في السُّلوك والمعاملات..

---

(1) سورة الرعد: الآية 17.

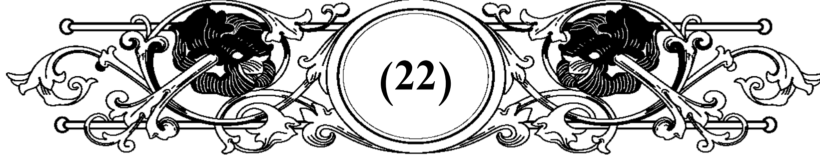
(2) سورة المائدة: الآية 2.

ويكفي التدبُّر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾[1]..

فهذه الآية تُؤكِّد على مِصْداقيَّة تلك الحقيقَة الخالِدَة، التي جعَلت كلّاً من الرَّجُل والمرأة في ميزان التَّكْليف والتَّشْريف والمَسْؤوليَّة، إلا أنَّ لكلٍّ منهما أَفْضليَّتُه المُرْتبِطَة بخَصائِص طَبيعَتِه الفِكْريَّة، والنَّفْسيَّة، والاجْتِماعِيَّة، والجسَدِيَّة، كما أنَّ لكلٍّ منهما دَرجَتُه ومَرْتبتُه من الثَّواب والرِّفْعَة التي تُناسِب المُهِمَّة التي أُنيطَت به..



(1) سورة النساء: الآية 32.


(22)

صفحات من الذاكرة

لا يَكْفي أنْ تَحْمِل المرأة القلم لتُعبِّر عن معاناةِ الرَّجُل، بل عليها أنْ تَقْترِب من عالمِه لتَسْبر أَغْوار أَسْرارِه المُخْتبِئَة خلفَ سِتار صَمْتِه المُطْبِق، وأنْ تَفْتح أَدْراجَ ذاكِرَتِه المُثْقلَة بالشَّدائد، وتَقْرأ ما دَوَّنه على سُطورِ حَياتِه، وتُعْمِل النَّظَر خارج ذاكرَتِها المُنَعَّمَة بأَحْلامِها الطُّفولِيَّة، وأنْ تَتخلَّص من اسْتِغراق تَفْكيرِها في التَّرَقُّب، وإمْعانِ النَّظَر في الآتي المُؤَمَّل، وانْتِظار قُدوم ذاك الفارِس الذي تَخالُه سيَزُفُّها إلى مَوْكِب عُرْسِها، وسيَفْتح أَمامها أَبْوابَ السَّعادة الزوجِيَّة..

فكَمْ من الصَّفَحات والرَّسائِل الخامِلَة الذِّكر، التي تَحْتاج أنْ تَكْسِر طَوْق صَمْتِها، وتَفُكَّ عُقْدَةَ الإِفْصاح عن مَعانيها الغامِضَة..

وكَمْ من الصَّفَحات والرَّسائِل التي تَحْتاج أنْ تَلْتفِت نَحْوَها الذَّاكرة، كي تَسْتبين مَعالِمَها وتَكْشِف دَلالة معانيها، التي تَنْتَظِم على سُطورِها تلك المشاعِر الحَيِّة..

إنَّه الإِحْساس الصَّعْب والعَسير الذي يَعيشُه الرَّجُل والمرأة يومِيًّا، حين يصبح الاخْتِلاط واقِعًا في حياتهما، ويجُرُّ فِتَنًا عَظيمة تُلاحِقُهما ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(1)..

وأمام هذا الواقِع الجارِف الذي تَفْقِد فيه النَّفس القُدْرَة على السَّيْطَرة، والقِيادَة، عليها أنْ تَتسَلَّح بالإيمان لِيُحَصِّنَها ويُقَوِّي فيها طاقَة الصُّمود والتَّحَدي، حتى لا تَنْكسِر أو تضعف..



1 ـ رسالة تدعو إلى الطَّهارَة والعِفَّة:

إنَّها رسالة رجُلٍ غَيورٍ على دينِه، قد دَعاه الإِباء والنَّخْوة والشَّهامَة إلى الإِفْصاح عمَّا يُخالِجُه من عنَتٍ ومشَقَّة، وما يَتعرَّض له من فِتَن الاخْتِلاط، وما يتَجرَّعُه من كُؤوسِ الإغْراء، التي تَجْعلُه يَتقَلَّب بين إيمانٍ يَقْوى ويَضْعف، وأَهْواء تَتَنازعُه في سِباق أفكارٍ تُوقِظ أَشْواقَه الوارِفَة، وعَواطِف تَميلُ به مَيْلةً واحِدَة، ويَتوقُ إلى لذائِذ الشَّهَوات والمُتَع تَوْقًا شديدَ المَطْمَح، فيَسْقُط في مَراتِع التِّيه والزَّلَل..

(1) سورة النور: الآية 40.

وصدق رسول الله ﷺ حين نبَّهَنا إلى اتِّقاء الشُّبُهات، وصَوْنِ القلوب والذَّوْدِ عن المَحارِم والأَعْراض فقال: «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشبهات لا يَعْلَمُها كثيرٌ من النَّاس، فمن اتَّقى المُشبَّهات اسْتَبرأ لدينِه وعِرْضه، ومن وقَع في الشُّبهات كراعٍ يَرْعى حولَ الحِمى يوشِك أن يُواقِعَه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حِمًى، ألا إنَّ حِمَى الله في أَرْضِه مَحارِمُه، ألا وإنَّ في الجسَد مُضْغَة إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسَد الجسَد كلُّه، ألا وهي القلب**»[1]..

وهذه الرِّسالة تَكْشِف عن واقِع أولئك الذين اسْتَعْبَدَتْهُم قداسَة ما يَجِدونَه من لذَّةٍ عابِرَة، في وُجودٍ ضَجَّ من مَطارِق الاخْتِلاط، لأَجْل الاعْتِبار وسُلوكِ طَريقِ الاهْتِداء، فلا تَنْساق النَّفس خلفَ العاطِفَة المُتَأجِّجَة والإِحْساس الوَثَّاب، ولا تَغْرق مع مَنْ غَرَقوا في مُسْتَنقَع الأَوْحال..

وهذه الرِّسالة تَكْشِف كذلك عن مُعاناةِ أولئك الرِّجال، الذين ضاقوا ذَرْعًا بعالَمِهِم المَشْحون بما يُوَتِّر الحِسَّ والأَعْصاب، فطلَبوا العَفاف وراموا إلى التَّحَرر من الانْجِراف وراءَ ما اسْوَدَّ مِن الرَّغَبات، والصُّدود عن التَّعَلق بما انْتَشر من الرَّذائل والمُغْرَيات..



(1) أخرجه البخاري في صحيحه (52)، ومسلم في صحيحه (1599) من طريق النعمان بن بشير.

۞ وهذه الجُرْأَة في الحق. .

لا توهَب إلا للفُرْسان مَنْ وَلَجوا مَيْدان الكَدِّ والكفاح، وتَخَلَّوا عن أَوْزارهِم والأَحْمال التي تُثْقِل الظَّهْر والكاهِل، وتُضْعِف ساعِد الجِدِّ والهِمَّة، كي تَسْتقيم حياتهم على مِنْهاج الهُدى والطَّريقة المُثْلى في الاتِّباع. .

۞ وهذه الجُرْأَة في الحق..

لا تَسْتَقِرُّ إلا في القُلوبِ المُعَلَّقة بالآخرة، التي تَسْتَمِدُّ مَكامِن قُوَّتِها من إيمانها، لتُواجِه اضْطِرامَ الفِتَن وتُخْمِد دَمْدَمة المَلذَّات، وتُطْفِئ نيرانَها المُشْتعِلَة، وَمُنْتهى آرابِها وغايَة آمالها أنْ ترْقى المَراتِب العُلْيا في الخُضوع والطَّاعَة للفَوْز بالجَنَّة. .

وتلك هي القُلوب التي لا يَعْتريها الوَجَل ولا الخَوْف ولا الجزَع، ولا الشُّعور بالهَوان والضَّعف. .

فالإيمان هو مِحْوَر ثَباتِها في القَوْل والعمَل، وهو أساسُ صُمودِها في وَجْه الباطِل، وسِلاحُ انْتِصارها على الأَسْقام والعِلَل التي توهِنُ النَّفس، مِصْداقًا لقوله تعالى :﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾(1). .

والإيمان هو باعِثُ التَّشَوُّق إلى الارْتِواء من يَنابيع العُلوم وحِياضِ المَعارِف، والدَّافِعُ الحَثيث إلى الاجْتِهاد والمُثابرَة في

(1) سورة آل عمران: الآية 139.

العمَل، ومواصلَة الطَّريق لبُلوغِ مَراتِب النَّجاح والفَلاح، والتمتُّع بالحَلال الطيِّب من النِّعَم..

والإيمان هو باعِثُ التَّشَوُّف إلى العَيْشِ الرَّغْد والحياة الفُضْلى، التي يكونُ فيها واجِبُ التَّكْليف رِسالَة، وحِفْظُ الكَلِمة أمانَة، وأَداؤُها إِقْرارٌ بواجِب الالْتِزام لشَرفِ الدِّيانَة، وتَحْلِية النَّفْس بمَحاسِن الخِلال ومَكارِم السَّجايا.



2 ـ الاخْتِيار العَسير..

إنَّ هذه الرِّسالة ليسَت إلا مِثالاً من بين مجموعَة رَسائِل تضَعُنا أمامَ اخْتِبارٍ عَسير، فحين تَقْرأ تلك السُّطور وتُمْعِن النَّظَر في فَحْواها، ستَشْعُر حَتْمًا بما يَشْعُر به مَنْ أَصْغى إلى ذاك الرَّجل، وهو يَحْكي عمَّا يُقاسيه من كَرْبٍ شَديد أمام هذا المُنْكر الغالِب، والفِتْنَة الظَّاهِرَة لكلِّ عَيْنٍ ناظِرَة، والإغْراء الفاضِح للعَوْرات الذي يَجْذِب إليه النَّفس الأمَّارَة بالسُّوء، فتَسْقُط إلى القاع وتَنْزِل إلى مَدارِك الغِوايَات، ولا يُلْجِمُها إلا إغْلاقُ الباب بالرِّتاج والمِزْلاج، والإعْراض عن الإسْراف في المُخالطَة طَلبًا للصَّوْنِ والعَفاف .

إنَّ هذه الفِتَن الشَّديدة تَجْعَلُنا في حاجَة إلى التَّفكير المُلْتَزِم فيما يَحْدُث حَوْلَنا، حتى وإنْ عَدِمْنا أسبابَ التَّغْيير والإصْلاح أو لم نَكُنْ له أَهْلاً..

فالرَّسائل التي تَصِلُنا في الحياة إنَّما هي مِنَحٌ تَسُرُّنا، أو مِحَنٌ تُعَلِّمنا وتُذَكِّرُنا بغاياتِ وُجودِنا في الحياة، وكلُّ فَرْدٍ منَّا هو مَسْؤولٌ عن حَمْل أمانَة الاسْتِخلاف على الأرض، فعَليه أنْ يُذيعَ الخَيْر ويَنْهَض بالمَهام المَنوطَة به، وعليه أنْ يَأْخُذ العِبَر والدُّروس من تلك القصص والحكايا في الماضي والحاضِر، فلو لم يَكُنْ في هذا العالَم مثل هذه الرَّسائل، بما تَحْمِلُه من تعَدُّد وتنَوُّع التَّجارِب والخِبْرات بين الخَلائِق، ما كان للحياة مَعْنى للذَّةِ العَيْش وعِمارَة الأرض، ولا قيمَة لأداء واجِب الاسْتِخلاف..

فوُجود الضِّد وضِدِّه هو الذي يُوَلِّد الحاجَة الدَّائِمَة إلى الاخْتِيار ما بين الخَيْر والشَّر، والتَّمييز ما بين الحَلال والحَرام، والشَّيء الإيجابي والسَّلبي.



3 ـ المرأة قُطْب الرحى..

وهذه الرِّسالة لا تَخْتلِف كثيرًا عن تلك الرَّسائل التي تُعَدُّ فيها المرأة قُطْب الرَّحى في حياةِ الرَّجُل المَفْتونِ بها، فأيَّةُ حَسْرة أكْبَر من فِتْنَة امْرَأة الْتَحفَت رِداءَ الحُسْنِ والجمال، ولم تَصُنْه في خِدْرِه عن أَعْيُنِ الرِّجال الأَغْراب، وادَّعَت باسْمِ الحَداثَة والحُرِّية ما لها من حُقوق يجِب أنْ تُصان..



ولكن أيَّة حُرِّية، وأيَّة حقوق تَنْشدُها المرأة بجسَدٍ عارٍ من كلِّ عِفَّةٍ وفَضيلة؟!

إنَّ الحُرِّية إذا لم يَكُنْ لها ضابِطٌ يَحْميها، وقَيْدٌ يُحافِظ على غاياتِ وُجودِها، ومَعالم تَهْدي صاحِبَها إلى سُلوكِ الطَّريق المستقيم، ستتَحوَّل تلك الحُرِّية إلى فَوْضى وجاهِليَّة..

والمرأة منذ أنْ سلبَ لُبَّها بَريقُ الحُرِّية، وهي تَنْساق مع مَنْ انْساقوا خلفَ الشِّعارات المُزَيَّفة، وتَشُنُّ حَرْبًا سافِرَة على الرَّجُل، وتناسَت أنَّ تلك النَّشْوة بالانْتِصار إنَّما هي نشْوةٌ مُؤَقَّتَة سيَعْقُبها الخُنوع والاسْتِعْباد، وأنَّ الحُرِّية التي تَطْمح إليها لنْ تَلْبَث أنْ تَجْذِبَها إلى القاع، وتَسْلخها عن وُجودِها الإِنْساني..

فكيف للمرأة أنْ تُرَتِّقَ مَسام الفِتَن المُنْفَتِحَة على عالَم مُمْتَلِئ بمُخْتَلف أَشْكال الإِغْراء، والمُتَلوِّن بشَتَّى أَلْوان الحياة المادِّية الآسِرَة للقلب والوِجْدان المَسْلوبِ الإرادَة؟!

إنَّ الحقوق التي تَنْشدُها المرأة لا تُؤْخَذ بإِشاعَة الباطِل والفَساد، ولا بهَتْكِ سِتار العِفَّة والحَياء، ولا بخَلْع حِجاب القِيَم والفَضائِل، ولا بالإِعْراض عن الالْتِزام بالأُصول والثَّوابِت، وإلا لن يَتبقَّى في ذِمَّتها ما يَدْعوها لصَوْنِ ما يَسْتحِقُّ أن يُصان..

فحين يتحَوَّل التلذُّذ بالحُرِّية لدى المرأة إلى سُعارٍ لا ينْهَد وعطَشٍ بلا رَواء، فإنَّ مصيرَها السُّقوط في بُؤْرَة الضَّعَة والهَوان، لتَضيع منها هُوِيَّة الانْتِساب إلى شَرَفِ الأَمْجاد، ولتَحْيا حياة الاسْتِعباد والاسْتِلاب..

ولا خَلاص للمرأة من كلٍّ ذلك إلا بالرُّجوع إلى تَطْبيق أَحْكام الشَّريعَة، التي رفَعَت عنها الحَيْف والجَوْر، ومَنحَتْها التَّشْريف والتَّكْريم الذي تَسْتحِقُّه، وحافظَت على ما لها من حُقوق وواجِبات، وسَنَّت لأَجْلِها المبادئ والضَّوابط التي تَحْكُم علاقتَها بالرَّجل، وتَرْقى بمُسْتواها في السُّلوك والمُعامَلات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].



4 ـ المرأة حامِلَة لأمانَة الحياة والاسْتِخلاف ومُلْتَزِمة بمَسْؤولِيَّتها:

لقد ظلَّت المرأة تتقَلَّب بين تَجاذُبات تَتحَكَّم بتَفْكيرِها ومَشاعِرِها، وبلغَت الذِّرْوَة في الإِبْهار وإِغْراء الرَّجل وصَدِّه عن الاهْتِداء، ففقَدت بذلك مُقَوِّمات شَخْصِيَّتها وعَظمة غاياتِها، ولن تَرْقى قمَّة المَجْد والافْتِخار إلا بما تَحْمِلُه من مُثُل عُلْيا وقِيَم سامِيَة، وبما تَبُثُّه إلى شريك حياتِها من مَشاعِر السَّعادة الزوجِيَّة، كي يُقْبِل على الطَّاعَة والعِبادَة والتفَوُّق في الحياة..

ولن تَسْمو مَكانة المرأة ويَعْلو شَأْنُها إلا إذا ارْتبطَت بمَبادئ الإسلام إيمانًا واعْتِقادًا، وتَطْبيقًا وممارسَة، وتشَبَّثَت

(1) سورة الروم: الآية 21.

بأَحْكامِه، وسلكَت الطَّريق الصَّحيح الذي يُمَكِّنها مِن ممارسَة حُقوقِها وأَداءِ واجِباتها، والحِفاظ على هَيْبتِها ووَقارِها وكرامَتِها واعْتِزازها بنَفْسِها، وكانت سيرَتُها حسَنة ومُشَرِّفَة تَظْهَر في أَقْوالِها وأَفْعالِها، وسَعْيِها النَّبيل وجِهادِها في الحياة لأَجْل تَحْقيق هَدفٍ عَظيم، وغايَةٍ تَرومُ الحقَّ حيث كان.

كما على المرأة أنْ تَتحَرَّر من تلك الرُّؤْيَة الغامِضَة لذاتها جسَدًا وروحًا، وأنْ تَنْظُر لكَيانِها ككُلٍّ لا يَنْفصِل عن الرَّجُل، في تَحمُّل مَسْؤوليَّة التَّكليف والرِّعاية، والتَّعاوُن ضِمْن وَحْدة الهدَف والغاية، داخِل وجودٍ مشْترَك يهَبُ كلّاً منهما حُقوقًا ويُلْزِمه بأَداءِ ما عليه من واجِبات، وإِذْعان كلٍّ منهما لما يَنْسَجِم مع فِطْرتِه وطَبيعة خِلْقَتِه، وبحسَب ما يَصْلُح له ويُوافِق مُكَوِّنات جِنْسِه وتَرْكيبه النَّفْسي والفيسيولوجي..

كما على المرأة أنْ يَتَّسِع تَفْكيرُها لرُؤْيَة واضِحَة، تَفْتح أمامَها آفاقًا رَحْبَة للفَهْم والتَّحْليل والاسْتِنتاج، لتَتحَرَّك خارج البُعْد الواحِد المُقَيَّد بالتَّبَعِيَّة الجاهِلِيَّة، والتَّقليد لكلِّ ما هو دخيل ومُسْتَعار، وأنْ تُفْسِح لأَفْكارِها أنْ تَدْخُل التَّاريخ من بابِه المُنْفَتِح، وأنْ تَمْتلِك الشُّعور الحِسِّي بمُحاسبَة النَّفس على ما يَصْدُر عنها وإيقاظ الضَّمير من غَفْلتِه، وأنْ تضَع أمامها ميزانًا عادِلاً يَحْكمُها ويَضْبِط سُلوكَها وتَصرُّفاتِها، ويُنظِّم عَلاقاتها مع الرَّجل ومع مَنْ هم من جِنْسِها من النِّساء..

فروحُها أمانَة ووَديعَة ستُرَدُّ إلى خالقِها، وجَسدُها ليس حقًّا خالِصًا تَتحكَّم فيه كما تَشاء، ولا مِلكًا مُطْلقًا تتَصرَّف فيه كَيْفَما

تَشاء، بل هي تَحْمِلُه على قَيْد الالْتِزام بالتَّقْوى مِصْداقًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿1﴾﴾(1).

وهي مُكَلَّفة كالرَّجُل بحَمْلِ أمانة الاسْتِخلاف، فتُثاب إنْ أَحْسَنت وصانَت ما اسْتَأْمنَها الله عليه، وتُعاقَب إنْ أساءَت أو فَرَّطَت في حِفْظ تلك الأمانَة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾(2).

وهذا التَّكْليف يَجْعَل المرأة تَعي غاياتِ وُجودِها وأنَّها لم تُخْلَق عبثًا ولا سُدًى، مِصْداقًا لقوله تعالى :﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿36﴾﴾(3).

والإنسان يَشْمَل الرَّجل والمرأة معًا في خِطاب التَّكليف، وعلى هذا الأساس والغايَة فهي حامِلَة لأمانَة الحياة ومَسْؤوليَّتها، وعليها أنْ تَسْعى لبِناء صَرْح شامِخ، وَفْق بِناءٍ مُنَظَّم يقوم على التَّوحيد والحَق والعَدْل، والعمَل لأَجْلِ الصَّالِح العام الذي يَشْمَل البَيْت والأُسْرَة، والأَبْناء، والرَّجُل والمرأة، والمجتمع..

وإنَّ رسالة المرأة هي أَكْبَر مِن ذاك المُحيط الضيِّق، الذي تتَحرَّك داخِلَه كدُمْيَة جميلة للَّعِب والمرَح، أو كأَداةٍ مُسَخَّرة

(1) سورة النساء: الآية 1.
(2) سورة آل عمران: الآية 195.
(3) سورة القيامة: الآية 36.

لتَسْلية الرَّجُل، وللتمتُّع والتهَتُّك خارج العَلاقة التي تَرْبطهُما بميثاقِ الزَّواج الغَليظ، ورباطِ الشَّرفِ المَتين..

وهي ليست جسَدًا خَواءً من جَوْهَرِه الماس ودُرِّه النَّفيس، ولا تمثالاً للعَرْض والزِّينة وتَجْميل الأَمْكِنَة، ومَلْء الفَراغ والحيطان بلوحات ذات رَسْم جميل يُبْهِر الرَّائي والنَّاظِر..

بل هي ربَّة الأُسْرَة وأمُّ الأَوْلاد، وهي عُضْوٌ أساسيٌّ في بناءِ المجتمع، واجِبُها أنْ تَأْمُر بالمَعْروف وتَنْهى عن المُنْكر، وتُساهِم في مُخْتَلف المَجالات والأَعْمالِ النَّافِعَة والمُفيدَة، وأنْ تُقيم قَواعِد الحياة المتينَة، مِصْداقًا لقول الحقِّ سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(1).

وإذا أَدْرَكَت المرأة مَسْؤوليَّتها في رِعايَة البَيْت والأُسْرَة، ستُساهِم في تَأْهيل جيل نافِع لتَنْمِية المجتمع، وستُساهِم في تَأْهيل الرَّجُل الكُفْء الذي سيَتَمَثَّل معاني القِوامَة الحَقيقِيَّة، وسيَقومُ بواجِب التَّكليف والوِلايَة بضَوابطِها الشرعِيَّة، وسيَلْتَزِم بمعاني التَّدْبير والحِفظ والصِّيانَة، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾(2)..

وستَحْتاط من أيِّ تَقْصير يَنْعكِس على تَرْبية أَبْنائها، لأنَّهم

(1) سورة التوبة: الآية 71.

(2) سورة النساء: الآية 34.

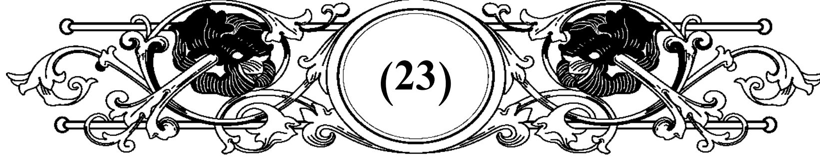
لبناتُ الأُسْرة الصَّالحَة لإقامَة قواعِد المجتمع الصَّالح، ولأنَّ أيَّ انْحِراف داخِل البَيْت سيَنْتقِل إلى الشَّارع فيُفْسِدُه.

فالمرأة إذا سخَّرَت نَفْسَها كأداة للغِوايَة أَنْتجَت لنا جيلاً فاسِدًا ومجتمعًا فاسِدًا، والرَّجُل إذا انْحَرف وفسَدت أَخْلاقُه أَنْتَجَ لنا رَجُلاً غير صالِح للقِوامَة ولا القِيادَة، وغيرَ صالح للبِناء وتَأْسيس البَيْت والأُسْرَة، وغَيْر صالح للنُّهوض برسالتِه داخِل المجتمع، فيَصير بذلك عالَةً على نفسِه وعلى من حوله .

وبالتَّالي، فالمرأة إمَّا أنْ تكون سببًا لبِناء الحَضارة، والارْتِقاء بالثَّقافة، وإِشاعَة العُلوم والمَعارف، وتَحْقيق التمَدُّن المَطْلوب والتَّقدم والنَّماء، أو تكونَ مِعْوَل هَدْمٍ لصَرْح الحضارة، وبناءِ الثَّقافة، وأَحْكامِ الشَّريعَة والدِّيانَة. .

فعلى المرأة أنْ تَحْرِص على التديُّن الحق، والتَّمَسُّك بالإسلام ومبادئه، وتحافِظ على حُقوقِها في العَيْش الكريم، وتَأْخُذ بالأَسْباب التي تُمَكِّنها من وظيفَتِها الحقيقِيَّة بحسَب ما يُناسِب مُؤَهِّلاتها، لتَتبَوَّأ المكانَة التي تَليقُ بها، وأنْ تَنْهَص برِسالَة التَّغْيير والإِصْلاح، من داخِل البَيْت والأُسْرة أوَّلاً قبل أنْ تَنْهَص بها في الخارج. .

فالمرأة الصَّالِحة هي نَواة الكُتَّاب والمَدْرسة والجامِعَة، وهي مَنْ تُعِدُّ أَبْناءَ هذه الأمَّة الإِعْداد الطَّيِّب الأَعْراق والسَّجايا، وهي مَنْ تُمَهِّد لبناءِ مجتمعٍ كبير وعَظيم وحافِلٍ بالإِنْجازات والأَمْجاد. .



الأطفال البؤساء.. ورؤية تحتاج إلى الرعاية

هناك ملايين من الأطفال بالشَّوارع يُكابِدون الأَحْزان ويَتجَرَّعون الآلام، ولا بَيْتَ يَأْويهم ولا أُسْرَة تَكْفلهُم، فتَراهُم يَتَغَلْغَلون في الأزِقَّة، ولا يُبالون بما يَعْرِفونَه وما لا يَعْرِفونَه من مَدارِك الحياة ومَعارفِها، فيَلْعبون تارَة ويَتَهاوَشُون ويَتَشاحَنُون تارَةً أخرى، ولا يَنْتَسِبون في لَهْوهِم ومَرحهِم إلى الطُّفولَة المُنعَّمَة، فهم كالشَّوكة المَبْثوثَة بين لِدَّاتِهِم من الأطفال، الذين شَبُّوا وتَرعْرَعوا في ظِلال العِزِّ والتُّرف..

وتَراهُم يَنْطلِقون على سَجِيَّتِهم بلا قُيودِ النَّشْأة والتَّربية على الأُصول والقَواعِد المَأْلوفَة، وتَراهُم يَتعلَّمون كيف يَنْبَعِثُون في الحياة انْبِعاثَ السَّهْم بلا جُسور، ويَشِبُّون على الصَّلابَة والشِّدة كما يَشِبُّ الشِّبْلُ في عَرِين الأسَد، لا كما يَشِبُّ أولئك الأطفالَ المُنَعَّمين بَحياة الدَّلال والبَذْخ، ويَتَلَقَّوْنَ الدُّروسَ والعِبَر من مدرسة الحياة القاسِيَة، التي تَبُثُّ في نُفوسهِم الفَتِيَّة عَناصِر

القوَّة، وتَمُدُّهم بأَسْلحة الدِّفاع عن النَّفس، وتُحيطهم بسِياج يَحْميهِم من تَكالُب الأَعْداء وغَدْرهِم، وتُحَصِّنهم بحِصْنٍ مَنيع ودِرْعٍ حديدي شَديد، يَصُدُّ عنهم الشُّرور وتَسَلُّط الأَقْوِياء على الضُّعَفاء من أَمْثالهِم..

فيتَعلَّمون كيف يتوسَّدون الأرض ويَلْتَحِفون السَّماء، ولا يَأْبَهون لحَرِّ الصَّيْف ولا لبَرْد الشِّتاء ولا عَصْفِ الرِّياح، ويَبيتون على الطَّوَى بأَطْمارهِم البالِيَة ومَلابسهِم المُرقَّعَة، حتَّى تَعْتادَ أَجْسامهم الصَّغيرة على صَلابَة الحياة، وتَنْضَج جُلودهُم اللَّيِّنَة النَّاعِمَة، وتَنْسَل عن قِشْرها الرَّطْب، وتَلْبَس للحياة لِباسَها السَّميك، وتَلْتحِف جِلْدَها الخَشِن كجِلْدِ الحِذاء، حتى توشِك أنْ لا تمَيز بين أَعْضائِها التي رُكِّبَت بَعْضُها فوقَ بعض وبين الطُّوبِ والحجر، بعد أنْ تَيَبَّسَت وتَوَقَّحَت في بناءِ الحياة، التي تَراص فيه اللَّبِنات وتَلْتحِم ببَعْضِها في غير اتِّساقٍ أو انْتِظام..

كما يَتعَلَّمُون أنْ يَسْلكوا دُروبَ الحياة الضيِّقَة، وأنْ يَمْضوا في طَريقِهم الشَّاق وقد جَمعوا قُوَّةَ الكبار الأَشِدَّاء، لا قُوَّةَ الأطفال المُتْرَفين المُنَعَّمين، ويتَدفَّقُون على الدُّنيا كتَدَفُّق النَّهْر الهَادِر، وبداخلهِم هُموم الرِّجال وهم لم يتَجاوَزوا بعد سِنَّ المَدارِس، ولا أَدْركوا مَناط التَّكليف والالْتِزام، فيَشِبُّون أشقِياء برُجُولَتِهم قبل أَوانِها، ويَتجَرَّعون مرارَ الحِرْمان منذ طفولَتِهِم، ويُقاسون ذُبولَ أوراقهِم في أُملودِها الريَّان، ولا يَجِدون ما يَنْقِمون به أو قَصاصًا عادِلاً يُنْصِفهُم، إلا أنْ يَتظاهَروا على بعضهِم ولا مَطامِع لهم في الحياة التي ضاقَت بهم وبأَمْثالهم، ولا يَنْشُدون إلا لُقَيْماتٍ يَسُدُّون بها الرَّمَق، وهي تَكْفِي بُطونًا لم

تَعوَّد على أنْ تَشْبَع، بل تعوَّدَت على ما يَشُدُّ السَّاعِد لرَدْع صَوْلَة الغالب..

إنَّهُم أطفالٌ بَراعِم قد نشَأت بينهم الحُروب في ساحاتِ الحياة ومَعاركها، فأفْسَدَت فِطْرتهُم النَّقِية وحَوَّلت براءَتهُم إلى شَقاوَة وحِقْد دَفين، إزاءَ مَنْ يَحْيا حياةَ النَّعيم والتَّرَف..

إنَّهُم أبناءُ الحياةِ وأبناءُ الأرضِ التي خالطَ ترُابها وطينُها رَسْم وجوهِهِم وتَقاسيمها، فشاخَ الصِّبَا في عُنْقُودِهم الرَّطْب، وكتبَ الفَقْر بقَلمِه الجاف على أَغْصانِهِم، كما كتبَ الخَريف الذُّبولَ على الزَّهور فتَساقطَت أَوْراقُها..

إنَّهم يعيشون ويموتون ولا تَعْرِف أرواحهُم دِفْءَ الأُسْرَة، ولا حياةَ الاسْتِقرار والنِّعْمَة السَّابغَة، ولا أحَد يَذْكرهُم بخَيْرٍ أو شَر، أو يَدْري عنهم وعن أحوالِهِم شيئًا، فقد حِيلَ بينهم وبين حياةِ أبْناءِ الأُسَر والمدارس أَسْتارٌ وسُدود مانِعَة، وحيلَ بينهم وبين حياةِ الجُفاة الغِلاظِ القُلوب حُصونٌ وحجُبٌ كِثاف، فتَبَرَّؤوا منهم ومن سلوكهِم وبُؤْسهِم مخافَة أنْ تُصيبَهُم عَدْوى الفَقْر، أو يَصِمَهُم البُؤْس وشَظف العَيْش بوَصْمَة ذُلٍّ وعار، أو تَلْدَغَهُم عَقارِب أَحْزانهِم فتُهْلِكَهم..

وإذا طَرقوا أَبْوابهم أو بسَطوا إليهم أَيْديهم، طَمعًا في زادٍ قليل أو كِسْرَة خُبْزٍ جاف، تَراهُم يَسْتقبِلونَهُم كما يَسْتقبِل الغَريمُ غَريمِه، وإذا الْتَمَسوا منهم مالاً بخْسًا أو عَطاءً، لم يَجِدوا عِنْدَهم ما يَرْوي العطَش أو يَبلُّ الرِّيق أو يسُدُّ الرَّمَق، ولم يَجِدوا عندهم إلاّ بُخْلاً أعْظَم مِنْ بُخْلِ البُخَلاء..

وتَرَى جيوبَهُم مُثْقَلة وخَزائِنَهم مُكَدَّسة، ولا يجودون منها إلاّ على أَمْثالِهم ليَزْدادوا غِنًى على غِناهُم، وكأَنَّها تَرِكَةٌ يَتَقاسَمونها ويتَوارثونها فيما بينهم، حتَّى لا يَتَبَقَّى منها نَصيبٌ لهؤلاء الأَطْفال البُؤَساء، ليَسْتَعينوا به على قَضاءِ حاجاتِهِم وتَبْدِيدِ ظَلامِ لَيْلِهِم..

وإن جادُوا عليهم لم يجودوا إلاّ بما يَصْرِفهُم عن وُلوجِ مَنازلِهِم وطَرْقِ أَبْوابِهِم، وما يَدْفَع عنهم مُلاحقَتَهُم في غدُوِّهم ورَواحِهِم، وما يُبْعِد عنهم شَرَّ نظَراتِهِم النَّاقِمَة، حتى لا يُصِيبَهُم حسَدٌ فيُؤْذيهِم، أو طلَبًا للشُّهْرة والسُّمْعَة وإِرْضاءِ ضَمائرِهِم العَليلة..

ولكنَّ ضَمائرهم الميِّتَة لنْ تُريحَ أَرْواحهُم السَّقيمة، ولنْ تُريحَ أَجْسادَهم فلا يُجافيها النَّوْم، وقد جاروا على مَنْ هم أَضْعَف منهم وهَضَموا حُقوقَهم، وحَرَموا مَنْ هم في حاجَة إلى صَدقاتِهم وزَكاةِ أَمْوالِهم، فكأَنَّ تَقلُّبهم في أَعْطاف العَيْش الرَّغْد وبالاً عليهم، وكأَنَّ الجَزاء من جِنْسِ عمَلِهِم السَّيئ..

إنَّ مَنْ يَشْهَد حياةَ هؤلاء الأَطْفال البُؤَساء، سيَعْلم أَنَّهم كبارٌ برُجولَتِهِم وأَشِدَّاء بصَلابتِهم وكفاحِهِم، ومَنْ يَشْهَد حياةَ الكِبار البُخَلاء سيَعْلم أَنَّهم صِغارٌ برَخاوَتِهِم ولِينِ شَكيمَتِهِم، وأَنَّهم ضِعافُ العُقول بأَنانيَّتِهِم، وجُبَناء ببُخْلِهِم وغَطْرَسَتِهِم..

ولقد سألت نفسي وأنا أتدبَّر أحوال هؤلاء الأطفال البؤساء: كيف لا يَصِل الأَغْنِياء هؤلاء الفقراء والبُؤَساء بصِلاتِ الرَّحمة، التي أَوْدعَها الله في قلوبِ الرُّحَماء؟؟

وكيف امْتَلأت أَفْواهُهُم بالنِّعْمَة السَّابِغَة فزادَتْهُم شَراهة، فصاروا يَأْكلون في بَطْنَيْن لا في بَطْنٍ واحِدَة؟؟

وكيف يَمْضي الأَغْنياء في طَريقهِم، ويَسْعَون إلى تَحْقيقِ غاياتهِم ولا يَعْبَأون بهؤلاء الأَطْفال البُؤَساء؟؟

ولكنَّني عَلِمْت أنَّ الله سبحانه لا يَنْسى عِبادَه، فيُرْسِل ملائكة يَصْعَدون ويَنْزِلون، ويَشْهَدون حياةَ هؤلاء المُنْكَسِرة قلوبهم وحياةَ أولئِك الجُفاة القُساة، فيُحْصون لكلِّ عامِلٍ ما قَدَّمَت يداه من خَيْرٍ أو شَر، ومَنْ بسَط يدَه بالعَطاء ومَنْ جعَلها مَغْلولَةً إلى عُنقِه، فيُثيب المُحْسِن على إحْسانِه وصَنيعِه، ويُعاقِب المُسيئ على سوءِ صَنيعِه، ويَشْمَل السُّعَداء مِنْ عِباده الرُّحَماء بنَفحاتٍ من كَرمِه ورَحْمتِه، فيَسْتعمِلهُم في نَشْر الخَيْر والنَّفْع، ويُسَخِّرهم لمَدِّ يَدِ المُساعدَة والعَوْن إلى المُحْتاج والفَقير، ويُخَفِّفون الآلام عن المُتَألِّمين، ويَبْعثون الآمال ويَشْحذون الطُّموح في قلوب البُؤَساء والمَحْرومين، فتَجْري في أَوْصالِهم حَرارة الحياة الرَّاكِدَة..

وخاطَبْتُ نفسي والضّمير الإنساني فقلت: لا تَبْكِي يا عَيْني ويا قلبي على هؤلاء الأَطْفال البُؤَساء، فهم كِبارٌ بصَبْرهِم وجَلَدِهم على قَساوَةِ الحياة، وهم أَقْوِياء إذْ نَبتَ زَرْعهُم في أرضٍ جَدْباء، إنَّما البُكاء على أولئك الكِبار بأَجْسامهِم وطولِ قاماتهِم، والجُبَناء بنَدالتهِم وخِسَّتهِم ومَواتِ ضَمائرهِم..

ثم نَطَقْتُ بلِسانِ الحِكْمَة فقلت: يا عَجَبًا كيف يَحْيَا هؤلاء وأولئك حياة واحِدَة، فيَشْقى هؤلاء بنَعيمِهِم ويَنْعَم أولئك

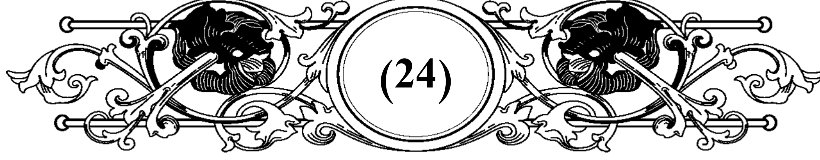
بشَقاوَتِهم، ويَتضَوَّر هؤلاء بسُعارِ شَهْوتهِم وكلَّما شَبِعوا تَفَتَّقَتْ بُطونهم فازْدادوا شَراهَة، ويتضَوَّر أولئك بلدَغاتِ جوعهِم فإذا أَكلوا تَكْفيهِم لُقَيْماتٌ لتُشْبع بُطونَهم الفارغَة..

فعَلِمْت أنَّ مَنْ عرَفَ النِّعْمَة ولم يَقْنَع بما أوتِي منها، ولم يتَذَوَّق حَلاوَتها فهو بها شَقيٌّ مَحْروم، ومَنْ حُرِمَ منها ورُزِقَ حَلاوَة الرِّضا والشَّبَع، وأوتِي القَناعة فهو في فضْلٍ وكرامَة، مُعافى من عَوارِض الأَسْقام النفسِيَّة وأَوْصابِها..

وعَلِمْت أنَّ علينا أنْ نَسْعى لتَحْقيق التَّغْيير والإِصْلاح حتى تَسْتقيم لنا الحياة، ونَحْكُم الأَغْنياءَ والفُقَراءَ بقانونٍ سَواء، فنُوَفِّر للأَطْفال البُؤَساء والفُقَراء المُعْوزين حياةً كريمة، ونُمَكِّنهم من أسباب التَّعَلم والدراسة، ونُوَفِّر لهم مَصْدرًا شريفًا للرِّزق، حتى لا يكونوا عالَةً على غيرهم..

كما نوجِّه الأغنياء والأثرياء كي يَسْتقيموا على صِفاتِهم الإنسانِيَّة وأن نُصْلِح ما أفْسَده التَّرف، وحينها ستتَلاشى الفَوارِق الطَّبَقية، وسيتَحاكم الجميع إلى قانونٍ إلهي عادِل، يُلْزِمهم بكلمَة الحقِّ والواجِب لا بالكلمَة الواحِدَة، وبقوَّة الإيمان والضَّمير الصَّاحي لا قوَّة اليَد الطُّولى والبَطْش..





الإعاقة بين الحقيقة والوهم

يضيع عُمْر الإنسان هَباءً وهو يُقَلِّب صَفحاتِه السَّوْداء، وما انْطَوت عليه النَّفس البشَريَّة من نزَعات وقِوَى الشَّر، ويَشْغَل اهْتِمامَه بالنِّصْف الأَسْود المُظْلِم، ويَغُضُّ الطَّرْف عن النِّصْف الأَبْيَض المُشْرِق، ويَهْتمُّ بالنُّقْصان وعَدم التَّمام، ويتَكاسَل عن طَلبِ الزِّيادَة والسَّعْي للزِّيادَة، ويُطيل النَّظَر في الصُّوَر الكَئيبة والحَزينة، ويَغْفُل عن صُوَر الجَمال والحُسْن، ويُقْبِل على ما يَضُرُّه ويُفْسِد حياتَه، ويَصُدُّ عمَّا يَنْفعُه ويُسْعِده..

وتَمْضي ساعاتٌ نَفيسَة وهو مَشْغولُ الذِّهْن، بأدَقِّ المعاني والتَّعَمُّق في أَغْوار سَحيقة من دَفائِن النَّفس، والتَّفكير في الزَّائِد عن حاجَةِ التَّفكير من فُضولِ الكلام، والاشْتِغال باللَّوْم والعِتاب، والنَّقْد للعُيوب والمَساوِئ وتَتَبُّع العَوْرات والأَخْطاء، والتَّرْكيز في البَحْث على الأُمور الثَّانَوية، وإِغْفالِ الأُمور الأَوَّلية والأساسِيَّة، والتَّعَلُّق بالقِشْر الظَّاهِر لا باللُّبِّ والجَوْهر الآسِر..

فعَلى قَدْر ما تتَّسِع الحاجات الزَّائِدَة، وتتنوَّع طَوايا النَّفس

السَّيِّئَة، تتَّسِع الهُموم وتَكْثُر الأَكْدار لخُمول الحِس وتبَلُّد الفِكْر، وتَعلُّق النَّفس بالوَهْم والخَيال..

وما أحسن قول الشاعر محمود سامي البارودي:

لَا تَـرْكَـنَـنَّ إِلَـى الـزَّمَـانِ؛ فَـرُبَّـمَـا
خـدعـتْ مـخـيـلـتـهُ الـفـؤادَ الـغـافـلا
وَ اصـبـرْ عـلـى مـا كـانَ مـنـهُ؛ فـكـلـمـا
ذهـبَ الـغـداةَ أتـى الـعـشـيـةَ قـافـلا
كـفـلَ الـشـقـاءَ لـمـنْ أنـاخَ بـربـعـهِ
وَكـفـى ابـنَ آدمَ بـالـمـصـائـبِ كـافـلا



1 ـ أسُس التَّقييم والتَّصنيف الحقيقي بين الناس

لا غَرْو أنَّ أحكامَ الشَّريعة قد أَلْغَت الفَوارِق بين النَّاس قاطِبَة، على اخْتِلاف أَلْوانهِم وأَشْكالهِم وأَجْناسهِم، وسعَت من خلال ذلك إلى أنْ تُوَفِّر للجميع الحياةَ الكريمَة، وأَسْبابَ العَيْش في أمانٍ وسَلام، واسْتِقرارٍ داخِل الصَّف الواحِد والأمَّة الواحِدَة، فعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: خطبنا رسول الله ﷺ وسط أيام التشريق، حجَّة الوداع، فقال: «**يا أيُّها النَّاس! ألا إنَّ ربَّكم واحد، ألا إنَّ ربَّكم واحد، ألَا لا فضل لعجميٍّ على عربي، ولا لأسودَ على أحمر، ولا لأحمرَ على أسود إلَّا بالتَّقوى، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلَّغت؟**

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **فَلْيُبَلِّغ الشَّاهد الغائب**».

لذلك ليس لنا الحَق أنْ نُقَيِّم النَّاس بحسَب حالاتهِم الصِّحية أو المَرضِيَّة، ولا بحسَب الشَّكْل والمَظْهر والصِّفات الخِلْقِيَّة، ولا بحسَب امْتِلاكهِم لأَسْباب القُوَّة، وما أوتوا من سُلْطان أو جاه أو بسطَة في العِلْم والجِسْم..

إنَّما نُقَيِّم النَّاس ونَرْفعهُم إلى مَراتِب عُلْيا، بحسَب صَلاحهِم واسْتِقامَتهِم على مَنْهج الهِدايَة، واتِّباعهِم للطَّريق المستقيم..

كما أنَّ التَّقدير والتَّشْريف الحقيقي يَسْتحِقُّه أولئك الذين سَخَّروا طاقاتهِم البَشريَّة للارْتِقاء بمُجْتمعاتهم، وسَلكوا بالأُمَّة طريقَ التقدُّم والرِّيادَة، ووَظَّفوا مَلكاتهِم ومَواهِبهم في نَشْر الخَيْر والنَّفْع العام..

وقد أَرْشَدنا الحَق سُبْحانه إلى الميزان العادِل في التَّقْييم الصَّحيح فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[1].

فهذا هو الميزان العادِل للتَّصْنيفِ بين النَّاس، وهذه هي الحُدود والقواعِد المُثْلى في إنْزال النَّاس في المَنازِل التي تَليقُ بهم، وتُحافِظ على مَكانتهِم وكَيانهم المُتكامِل..

وشَتَّان بين إنسانٍ يَحْكمُه المَبْدأ والضَّمير والأَخْلاق القائِمَة

(1) سورة الحجرات: الآية 13.

على العُنْصر التَّكريمي لإنْسانيَّتِه، وبين إنسانٍ لا يَحْكمُه إلا المَبْدأ المادِّي، وشَتّان بين من جمَع قُوَّتَه في إيمانِه ويَقينِه، وبين من جمَع قُوَّتَه في سَيْطرتِه وجَبروتِه..

فالقَويُّ بإيمانِه قويٌّ بالله وقويٌّ مع الله، والقَويُّ بسَيْطرتِه قَويٌّ على الأَفْراد، والشُّعوب، والمُجْتمَعات التي يَسْتغِلُّها ويَهْضِم حُقوقَها ويَسْتعبِدُها، فيَخْسر نَفْسَه ودينَه، ويَخْسَر أمَّتَه، ويَخْرُج من دائِرَة التَّكْريم الإلهي.

وشتَّان بين مَنْ يَعيشُ هَملاً بلا رِسالَة ولا هدَف، ولا تاريخ يُسَجِّل أَعْماله وإِنْجازاته، وبين مَنْ يَعيشُ صانِعًا لمَجْدِه ونَجاحِه وانْتِصاراتِه، فيَسْتحِقُّ أنْ يُسَجِّل اسْمَه في كتاب الحياة بحِبْرٍ من ذهَب، ويَنْقُش مَواقِفَه وبُطولاتِه على صفحاتِ تاريخِه..

فالإنسان بدينِه وأَخْلاقِه هو كائِنٌ جميل، ذا بصيرَة نافِذَة تُنَشِّط حاسَّتَه وذائِقتَه الجَماليَّة، وتُشْبِعُها بالرُّقي والسُّمُو، فتَبْعث فيه الإِحْساسَ الشَّفيف بجَمالِ الكون، والاسْتِمْتاعَ بعظَمة الخالِق وصانِع هذا الجَمال، الذي أَحْسنَ كلَّ شيءٍ خَلْقَه وصُنْعَه..

والإنسان بخَصائِص إِنْسانيَّتِه هو إنسانٌ سَويٌّ بكَيانِه الكامِل، جِسْماً وروحًا، وعَقْلاً وعاطِفَةً، وهو إنسانٌ سَويٌّ بحَقِّه في الحياة وحَقِّه في الكرامَة الإِنْسانيَّة، وحقِّه في التَّفكير والتَّعبير، وحَقِّه في التَّديُّن والاعْتِقاد، وحَقِّه في التَّعَلُّم والانْتِفاع، وحَقِّه في الكِفايَة والأَمْن من الخوف، وكلِّ الحُقوق التي كفلَها الله له.

والإنسان بخَصائِص إنْسانِيَّتِه هو سَويٌّ بأَفْكارِه اللَّامِعَة، وأَخْلاقِه الرَّشيدَة، وهِمَّتِه العالِيَة، فلا تُعَطِّله آفَة ولا تُقْعِدُه عاهَة، ولا تَكْسِرُه مِحْنَة ولا توقِفُه شِدَّة عن مُواصَلة طَريقِه في الجدِّ في العمَل والإِنْتاج..

أما الإنسان الذي فقَد تلك الخَصائِص كلِّها فماذا تبقَّى له ليظَلَّ إنسانًا سَويًّا؟

لقد تبَقّى له أن يكون مُعاقًا بصِفاته السَّلبية ونَظْرتِه الدونِيَّة وتَكاسُلِه وخُمولِه..



2 ـ حقيقة الإنسان السَّوِي والإنسان المُعاق

لا يَخْفى على كلِّ صاحِب عَقْلٍ رشيد ورَأْيٍ سَديد وحِسٍّ إِنْساني رَفيع، أنَّ الإِعاقَة الحَقيقيَّة لا تَعْني فُقْدانً أهليَّة الحياة الطبيعِيَّة، وإنْ كان قد شاعَ وذاعَ ذاك المعنى بين النَّاس، وانْتَشر في الأَوْساط الطِّبية، ولدى المجتمع المَدني والمُنَظَّمات الصِّحية، حيث صارَت الإِعاقَة تُطْلَق لَفْظًا واصْطِلاحًا على مَنْ أُصيبَ بعاهَة جِسْميَّة، أو ذِهْنيَّة، أو فِكْريَّة، أو نَفْسيَّة، كما تُطْلَق على مَنْ أُصيبَ بالعَجْز في وظيفَة من وَظائِف الجِسْم أو هَيْكله..

في حين أنَّ الإعاقة الحَقيقيَّة تَشْمَل أصحابَ التصَوُّرات الخاطِئَة عن غاياتِ وُجودهِم ورسالتهِم في الحياة، الذين فَقَدوا

المَشاعِر النَّبيلَة والقِيَم الإِنْسانِيَّة، وضاعَت ضَمائِرهُم وأَخْلاقهم، وأُصيبوا بالخُمول في التَّفْكير، والعَجْز عن إِعْمال العَقْل، وتعَطَّلت وَظائِفِ حَواسِّهم عن أداءِ العمَل بإِتْقان، وتكاسَلوا عن تَقْديم الإِنْتاج الجَيِّد والإِبْداع والابْتكِار، وقَصَّروا في الحُقوق والالْتِزام بالواجِبات، وتَخلَّفوا عن الرَّكْب والتقدُّم نحو الأمام، وانْشَغَلوا عن إِصْلاح الفرد والمجتمع..

فالإنسان مُعاقٌ بجَهْلِه بخالقِه وبأَسْرارِ خَلْقِه، والإنسان معاقٌ بغَيْبوبَتِه عن عالمِه وانْفِصاله عن واقِعِه ومُحيطِه وبيئتِه، ليَحْيا حياةَ الضَّياع والتِّيه بلا أَهْداف ولا غايات، مُعْجَباً بحالِه ومَرْكزِه إلى حَدِّ الغُرور والخُيَلاء، ومُتجاهِلاً للمثُل العُلْيا والقِيَم، ومُخالِفًا للقَوانين والتَّقاليد والأَعْراف الاجتماعيَّة..

والإنسان مُعاقٌ بغاياتِه السَّاقِطَة التي يَطْمَح من خِلالها إلى ضَمانِ حقِّه في البَقاء والوُجود، والوُصول إلى مَراكز السِّيادَة، وتَحْقيق الشُّهْرة والسُّمْعَة، وامْتِلاك السُّلطَة والنُّفوذ، وإشْباع الرَّغَبات والشَّهَوات، شَأْنُه في ذلك شَأْنَ مَنْ وصَفهُم الله تعالى فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1]..

أما الإنسان السَّوي في ميزانِ الدِّين والشَّريعَة فهو من كان عالِمًا بغاياتِ وُجودِه، وكانت له وظيفَة في الحياة ورِسالَة وَفْق ما قَرَّره الله وسنَّه، ووَفْق ما أَلْزمَه به بحسَب القدُرات التي رَكَّبها فيه..

(1) سورة الأعراف: الآية 179.

وتحدَّثت آياتٌ كثيرة عن وظيفَة الإنسان ورسالَتِه في الحياة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿30﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿31﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿32﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿33﴾﴾[1]..

فهذه الآيات تَحْمِل الإجابة الشَّافِيَة الكافِيَة، التي تُحَدِّد حقيقَة الإنسان السَّوي، فهو كائِنٌ عظيم القَدْر عند خالقِه، الذي اخْتارَه واصْطَفاه واسْتَخْلفَه على الأرض وخَصَّه بحَمْل الأمانَة، وسَخَّر له الأسبابَ والوَسائِل والمؤهِّلات لتَوْظيف العَقْل والحِس على الوَجْه المُرْضي والنَّافِع، وزَوَّده بطاقاتِ المَعْرفة والإرادَة الضَّابِطَة لوُجودِه وأَفْعالِه، وزَوَّده بطاقَة القُوَّة الفاعِلَة للصُّمود أمام الشَّهوات ومُقاومَة الضَّعْف البشري، وزَوَّده بطاقَة القُدْرَة على مُواجهَة قِوى الشَّر إضافة إلى طاقات أخرى، جعَلت أساسَ تَكْريمِه إنسانًا سَويًّا هو آدَمِيَّتُه وإنْسانِيَّتُه، كما وصفَه الحَقُّ سُبْحانه فـقـال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿70﴾﴾[2].

---

(1) سورة البقرة.

(2) سورة الإسراء: الآية 70.

وكما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿4﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿1﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿2﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿3﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿4﴾﴾[2].

وقوله تعالى في أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿1﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿2﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿3﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿4﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿5﴾﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿72﴾﴾[4].

وبهذه الخَصائِص يَسْتحِقُّ أنْ يكونَ إنسانًا سويًّا، ويَسْتحقُّ التَّكريم والتَّكليف والتشريف، وأنْ يَتحمَّل المسؤوليَّة والطَّاعَة والاسْتِسلام للتَّوجيه الربَّاني، ليكونَ سَيِّدًا بعُبوديَّتِه وخُضوعِه، وليكونَ سَيِّدًا باسْتِقامَتِه ومَعْرِفَتِه للحَقِّ والواجِب، وتَمْييزِه للخَطِّ الفاصِل بين الظُّلم والعَدْل، وبين الحُرِّية والعُبودِيَّة، وبين الصَّواب والخطأ، وبين الحَلال والحَرام، وبين الطَّاعَة والمَعْصِية، وبين التَّكْليف والتَّشْريف، وبين الشِّدَّة واللُّطْف، والغِلْظَة والرِّقَّة..

(1) سورة التين: الآية 4.
(2) سورة الرحمن.
(3) سورة العلق.
(4) سورة الأحزاب: الآية 72.

وحين يَفْقِد الإنسان خَصائِص الالْتِزام بمُهمَّتِه الحَيويَّة في تَنْظيمِ حياتِه وحياةِ من يشاركُه حَمْل أمانَة الاسْتِخلاف على الأرض، سيَتحَوَّل إلى كائنٍ غَريب ومُخْتَلِف عن أصْل خِلْقَتِه في أَحْسَنِ تَقْويم، ومُغايِر لفِطْرتِه وسَجِيَّتِه وطَبيعَتِه السَّوية، وسيُصْبِح إنسانًا مُعاقًا في ذاتِه وروحِه، وجَوْهَرِه، ومُشَوَّهًا في مَبْطنِه ومَخْبَرِه ومَظْهَرِه..

وستُصْبِح صورَة الحياة بالنِّسبة له وبالنِّسبة لمجتمَعِه مُشَوَّهة، حيث يَحْدُث الانْحِلال والفَوْضى، وتَنْتَشِر حالاتُ الإعاقة وحالات مَرضِيَّة تُهَدِّد بالاخْتِلال في المبادئ والأَخْلاق، والانْفِصام عن الرَّوابِط التي تصِلُه بالدِّين، وتَصِل الدِّين بشُؤونِ حَياتِه..



3 ـ الإعاقَة.. وتعْطيل الطَّاقات

ما زالت الإعاقَة تسَجِّل تاريخَها على صَفحاتٍ سوداء، تَحْمِل سُطورًا من الأَوْجاع والآلام، قد قصر العقل عن إدراكِ كُنْهِها، وتبَلَّد الحِس عن الشُّعور بإيحاءاتِها ودَلالاتِها، وتَلَهَّى عنها البصَر بالظَّواهِر المادِّية والأَشْكال الجَذَّابة، وعزَف عن النَّظَر إليها بعَيْنِ البصيرة الكاشِفَة لبَواطِن معانيها..

وما زالت الإِعاقَة تَنْحَصِر في مُحيط ضَيِّق، دونَ تَحْديد للسُّبُل الأَفْضَل والأَنْجَع لاحْتِوائِها واحْتِواء مَشاكلِها وهُمومِها، والعمَل الحَثيث للوُصولِ إلى إيجادِ حُلول مُناسِبة لها، وصار

لكلٍّ الحقُّ الكامِل في أنْ يَبُتَّ في شَأْنِها، وأنْ يُصْدِر أَحْكامَه بحسَب هَواه ونَظْرتِه القاصِرَة، التي لا تخْدُم مَصْلحَة أولئك الأَشْخاص الذين هم بحاجَة إلى المُساعدَة والدَّعْم المادِّي والمَعْنَوي، بدَل الشَّفقَة المَذْمومة التي تُعَطِّل الطَّاقات وتُقيم السُّدود الفاصِلَة، وتَصْنَع الفَوارِق بين الإنسان القادِر على مُزاولَة نَشاطاتِه اليومِيَّة بشَكْلٍ طبيعي، وبين الإنسان العاجِز عن ذلك أو مَنْ يجِد صُعوبَة في أداءِ مَهامِّه، بسَبب مشكلة في وظيفَة من وَظائِف جِسْمه أو تَرْكيبِه النَّفسي أو الفيسيولوجي..

۞ إنَّنا نحن من نَصْنع المُعاق داخِل مُجْتمعاتِنا..

إنَّ النَّظْرة السَّلبية للمجتمع وللأسرة، والمُحيط الذي يَنْشَأ فيه الإنسان المريض، أو الشَّخص الذي يُعاني من قُصور أو عَجْز، أو ضَعْف كلِّي أو جُزْئي في قدُراتِه الجِسْميَّة أو الفِكْريَّة، هي التي تَحُدُّ من مُشاركَتِه في مَجالاتِ الحياة المُخْتَلفة، وهي التي تُقَيِّد عَلاقاتِه الاجْتِماعِيَّة، وتحُدُّ من نَشاطاتِه العِلْميَّة والعمَلِيَّة، فلا يتمَكَّن من الحُصول على حَقِّه الطَّبيعي في العَيْش الكريم، ويُعاني من ذاك الاحْتِياج الخاص إلى مَعونَة ومساعدَة الآخرين، بدَل تَأْهيلِه لتَحْقيق الاكْتِفاء الذَّاتي، والتَّكَيُّف مع واقعِه وحَياتِه اليَومِيَّة والعمَلِيَّة..

۞ وإنَّنا نحن من نَصْنع المُعاق والسَّوي داخِل مُجْتمعاتِنا..

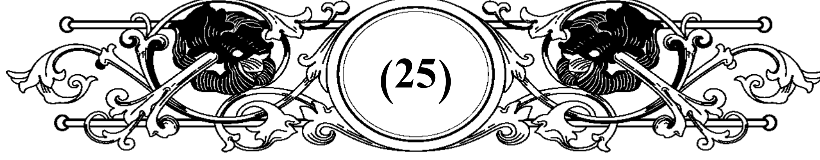
بسَببِ أَفْكارِنا الخاطِئَة ونَظْرَتِنا السَّوْداوِيَّة، وأَحْكامِنا

الجائِرَة، فنَتَسبَّب في نَشْر حالاتٍ نَفْسِيَّة ومَرضِيَّة..

ونحن من نُحَوِّل الإِعاقَة إلى ظاهِرَة اجْتِماعِيَّة، تَهْدِم كيانَ المجتمع وتَهْدِم كيانَ الأَفْراد، ونحن من نُحَوِّل أَشْخاصًا يُعانون من قُصورٍ فيزيولوجي أو سيكولوجي إلى أَشْخاص فاشِلين في الحياة، عاجِزين عن الانْدِماج في مُجْتَمعاتهِم..

ونحن كذلك من نَصْنع الإنسانَ السَّوِي في المجتمع السَّوِي، بإِشاعَة الدِّين والأَخْلاق، وحَثِّ الأَصِحَّاء والمَرْضى سَويًّا على العمَل والإِنْتاج، وَفْق طاقاتهِم وكفاءاتهم ومُؤَهِّلاتهِم، ليَحْيا الجميع حياةً مُسْتقِرَة وآمِنَة، وتتحَقَّق فيهم العَدالة الاجْتِماعِيَّة..





التكافل الاجتماعي والترابط الفكري السلوكي

يؤسِّس التَّكافُل الاجْتِماعي في الإسلام بناءً فِكْريًّا مُتَكاملاً، شامِلاً لمَنْظومَة أَخْلاقِيَّة تُلَبِّي حاجاتِ الإنسان، وتَرْبِط الفَرْد بالمُجْتمَع، وتُؤَلِّف بينهم بصِلاتِ المَودَّة والرَّحمة، ووَشائِج التَّعاون والإِشْراف، والمُساندَة والتَّكافُل المُشْتَرك، إِذْعانًا للتَّوجيه الإلهي الرَّشيد، وعمَلاً بما وصَف به أَحْوال المؤمنين والمؤمنات كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[1]..



(1) سورة التوبة: الآية 71.

1 ـ التَّرَف داء القلوبِ الضَّعيفَة

لقد خلقَ الله سبحانه الإنسان وأحاطَه بسِياج التَّشْريف والتَّكْريم، وألْبَسَهُ حُلَلًا من سُنْدسِ الفَضائِل، ودَلَّه على ما يُتَمِّم مَحاسِن التَّشْريف بالاهْتِداء، وسَما بروحِه عن النَّقائِص بالاسْتقامَة على طريق الصَّلاح، ليَعْصِمَه من الشُّرور التي تُلْقِي بأَهْلِها في مَصارِع التَّهْلكَة والانْزِلاق، وأَلْهَمَه أَسْبابَ النَّظَر والتَّدَبُّر في أَجْزاءِ الكون والكائِنات، ليُدْرِك مَدى ارْتِباطه بهذا النِّظام الكَوْني بأَجْزائِه وأَقْسامِه، ومَدى اتِّصاله بمَنْ حَوْلَه بوَشائِج التَّكافُل والتَّعاوُن، تَطْبيقًا لأَحْكام الشَّريعَة الإلهية الشَّامِلَة لقِيَم المُساواة بين مُخْتَلف طَبقاتِ المُجْتَمع في الحُقوق والواجِبات، ولتَهْذيب النَّفس البَشريَّة الطَّاغِيَة وإِضْعاف قُوَّة بَطْشِها، والحَدِّ من سُلْطانِها الغاشِم، والتَّقْليل من ثَرواتِها الزَّائِدَة، لأَجْلِ تَحْقيق التَّوازُن المَطْلوب بين احْتِياجاتها ومُتَطَلَّباتها الضَّروريَّة، ورَدْعِها عن الإِفْراط في الإِقْبال على الشَّهوات والمَلَذَّات..

إلا أنَّنا صِرْنا نُعاني اليوم من مَظاهِر التَّرَف، والثَّراء الذي لا يَنْتهي عند حَدِّ التَّوَسُّط والاعْتِدال، ممَّا أَلْحَق الضَّرَر بالنِّظام البَشَري وأَثَّر على أَجْزائه المُتَرابِطَة، بسَبب أولئك الذين ملَكَتْهُم الحياة بزُخْرفِها الماتِع وإِغْرائها الفاضِح، فأَشْبعَتْهُم التُّخْمَة في المَأْكَل والمَشْرب، حَتّى فَقَدوا لَذَّة الطَّعام والشَّراب، ولبِسوا أَفْخَم اللِّباس وأَغْلاه، حتى مَلُّوا من التَّنَعُّم بمَلْمَس الحَرير والدِّيباج، وحالَ بينهم وبين الشُّعور بالشَّبَع والارْتِواء، كَثْرةُ التَّمَني المَشْبوب بنَيْل المَطالب دونَ اقْتِصاد، وانْطَلقوا في دُنْيا

العَبيد هائِمين، يَرْكضون خَلْف أَخْيِلة الغُرور والخُيَلاء، ويَتعلَّقون بأَطْياف أَحْلامهِم العِجاف وآمالِهِم العِذاب وهم في جَهْلِهِم وغَيِّهِم تائِهين، يَتوسَّمون ما يُثير في خَلجاتِهِم لذَّةً كلذَّةِ أولئك البُسَطاء، أو سَعادةً كسَعادةِ أولئك القانِعين في دُنْياهم بأَسْباب العَيْش القَليل..

ولكنْ أنَّى لهم أنْ يُدْرِكوا ما أَدْرَكوه، وقلوبهم لم تَسْلَم من العِلَل والأمراض؟ !!

وأنَّى لهم أنْ يتَقاسَموا معهم تلك الطَّفْرَة من الانْتِعاش بمَلذَّاتهِم القَليلة، وهم في تنَعُّمهِم الوافِر قد تَذوَّقوا من كلِّ أَصْناف اللَّذائِذ إلى حدِّ الشَّبَع والتُّخْمَة؟ !!

وأنَّى لهم أنْ يُدْرِكوا ما أَدْركَه أولئك البُسَطاء، وقد اسْتَعبدَهُم التَّرَف فسَلبهُم تلك السَّعادَة التي يتَشوَّقون إليها، وظَلَّت الكآبَة تُلاحِقهُم في تَنعُّمهِم بما جمَعوا بين أيديهم؟!!

فما نَيْل المَطالب بالتَّمني، إنَّما تُدْرَك المطالِب والغايات بجِهاد النَّفْسِ للنَّفس، وإذا تَخفَّفَت الأَرْواح والأَجْساد من أَثْقال الأَوْزار والآثام..

وإنَّ للعِزِّ والتَّرَف وَجْهًا عَبوسًا حين يَزيدُ الطَّمَع عن حَدِّ الطَّلَب والاحْتِياج، فيتحَوَّل إلى طاقَة وحَيويَّة فائِضَة تَبْحث لها عن مُتَنفَّس لتَصْريفِها، ولو في مَواطِن الشُّبَه أو بسُلوك الطُّرُق

والـمُـنْعَـرجـات الـمُـلْتَـويـة، والأَخْـذ بـالأَسْـبـاب والـوسـائِـل غَـيْـرِ المَشْروعَة..

وما نَيْل السَّعادَة بالمَطْمَح اليَسير، بل تُدْرَك السَّعادَة بالمُضِي في طَريق النِّضال والكِفاح، ولن ينْعَم أهل العِزِّ والتَّرَف بتلك السَّعادَة التي يَنْشُدونَها، حتى يَدِبُّوا على الأرض كما يَدِبُّ أولئك الفُقَراء والبُسَطاء، الذين شَغلهُم السَّعْي والكَدُّ لأَجْل الكَسْب وتَوْفير لُقْمَة العَيْش، وأنْ يُشارِكونَهم لحظات تَرقُّبهِم وانْتِظارهِم الطَّويل، ومُلاطَفتهِم لأَحْلامهِم المُؤمَّلة..

ولن ينْعَم أهل العِزِّ والتَّرَف بتلك السَّعادَة، حتى يُدْرِكوا ما أَدْركَه أَهْل الضَّمائِر الحَيَّة، وأَصْحابُ النُّفوس الزَّكية، والأَرْواح الطَّاهِرَة العَفيفة، الذين عَلِموا أنَّ لغَيْرهم مِنَ الفُقَراء والمُحْتاجين حُقوقًا في مُمْتَلكاتِهِم، فتَقيَّدوا بقُيودِ النِّظام الإسلامي في ضَبْط تَصرُّفاتِهم الماليَّة، وإِدارَة مُكْتَسباتهم ونَفقاتهِم ومُدَّخَراتهم، والْتَزموا بتَشْريعات تُحافِظ على مَقاصِد المُشاركَة ووَحْدة الجَماعة والأمَّة، وتُراعي الحُقوق في مُمْتلكات الفَرْد وثَرْوتِه، بالقَدْر الذي حَدَّده الإسلام سَواء في أَحْكام فريضَة الزَّكاة، أو في تَشْريع نِظام الهِبات والصَّدَقات والنَّفَقات، والأَحْباس والأَوْقاف، وغَيْرِها من أَحْكام المَصاريف التي أَوْجبَت تَوْزيع الثَّروة وعدَم تَكْديسها في يَدٍ واحِدَة، وحَصْرِ تَداوُلِها بين الأَغْنياء لتَقْليل التَّفاوُت الحاصِل بين الطَّبقات الفَقيرة والغَنِيَّة..



2 ـ التَّكافل الاجْتِماعي يؤسِس لبناء جيل قوي ومُتَماسِك

يَسْعى التَّكافُل الاجتماعي إلى إِخْراج جيلٍ قَوِي ومُتَماسِك البِناء، كما وصَفهُم الرسول ﷺ فقال: «**المؤمِنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ، يشُدُّ بعضُه بعضًا، ثم شبَّك بين أصابِعِه**»[1]، وقوله ﷺ: «**مَثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثلُ الجسدِ إذا اشتكَى منه عضوٌ، تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى**»[2]..

وقد رَسَّخَ الإسلام هذه الصُّورَة التَّكافُلِيَّة المُشْرِقة، ووضَع الرَّسول ﷺ قَواعِدَها في أَمْثِلة يُحْتَذَى بها، في حِفْظ النِّظام العام للمُجْتَمع والأَفْراد، فعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[3].

---

(1) رواه البخاري (481)، و(6026)، و(2446) ومسلم (2585).

(2) رواه البخاري (6011)، ومسلم (2586) واللفظ له.

(3) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الشركة (2493)، وأخرجه أيضاً في كتاب الشهادات، باب القرعة في المشكلات (2686)، بلفظ: «مثل =

إضافَةً إلى نُصوص أُخْرى كثيرة في كتابِ الله عَزَّ وجَل وسُنَّة نَبيِّه ﷺ، تَحُثُّ المسلمين على التَّآلُف والتَّكافُل، وأنْ تَجْمعَهُم كلمَة سَواء قائِمَة على هُدى الله عزَّ وجَل، لا على شِعاراتٍ جاهِليَّة تُفَرِّقهم وتُشَتِّت كلمَتهُم، وتُقَرِّق وَحْدَة صفِّهم..

لإِخْراج جيلٍ يَتحَمَّل المَسْؤوليَّة المُشْتَركة في الإِصْلاح وإِحْداثِ التَّغْيير المَنْشود، والسَّعْي لتَهْذيب النَّفس وتَزْكِيَتِها، وحِفْظِها ورِعايَتِها بحِفْظِ الأُصول والثَّوابِت، وإرْشادِها إلى كَوامِن الحُبِّ الصَّادِق الخالِص، والتَّعالي عن الرَّذائل والأَحْقاد والمَساوِئ..

ولإِخْراج جيلٍ يُدْرِك حَقيقة التَّكافُل في عظَمة غاياتِه، وفي سَعْيه لتَبادُل المَنافِع المادِّية والمَعْنَوِيَّة، والعِلْميَّة والثقافِيَّة، والاقْتِصاديَّة والسِّياسِيَّة، وتَطْبيق القَواعِد التي أقَرَّها الحقُّ سُبْحانَه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]..

ولأَجْلِ تَحْقيق التَّوحيد بين المُجْتَمعات الإِنْسانِيَّة، على اخْتِلاف أَجْناسِها وأَلْوانِها، وتَعَدُّد لُغاتِها، وتَنوُّع ثَقافاتِها، ولصَوْنِ المَبادِئ والفَضائِل التي تَرومُ إلى رَبْطِ كلِّ مُجْتَمعٍ بما

= **المدهن في حدود الله والواقع فيها...**» وأخرجه الترمذي في الفتن (2173) وأحمد (4/268)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (10/91)، (0/288)...

(1) سورة الحجرات: الآية 13.

يحْفَظ كرامتَه وهُوِيَّتَه وكيانَه المُسْتَقِل، ويَحْمي حُقوقَه وحُرِّياتِه الخاصَّة والعامَّة..

ونحن كذلك علينا أنْ نُرَسِّخ هذه الصُّورَة التَّكافُلِيَّة، وأنْ نُتَمِّم هذا البِناء التَّكافُلي العَظيم، ونُخَلِّف لمَنْ سَيأْتي بعدَنا آثارَ أَعْمالنا، لتَكون لهم مِنْهاجًا في الاحْتِذاء والاقْتِداء، ولِنُشْعِرهم بأَنَّنا خُلِقْنا للعِبادة ولتَبْليغ رسالَة الإسلام العَظيمة، التي تَدْعونا للتَّضامُن والتَّعاوُن على حِمايَة مَوارِدِنا، والحِفاظ على ما نَمْتَلِكُه من طاقات، وأنْ نَضَع الزَّرْع والسَّمادَ الطَّيِّب في التُّرْبَة الطَّاهِرَة، التي ستَمْتَدُّ جُذورها في الأَعْماق وتَتَشابَك أُصولها بالفُروع، وأنْ نَشُق لهذه الأمَّة طريقًا مَفْروشًا بالانْتِصارات، التي تَشُدُّ وثاقَ الخُطى بخُطى الأَجْيال، في صُوَر ومواقِف إِنْسانِيَّة مُثْلى للتَّكافُل الشَّامِل للاعْتِبار..



3 ـ التَّكافل الاجْتِماعي في شموليَّة مقاصِدِه وغاياتِه

وهذا التَّكافُل بشُموليَّة مقاصِدِه وغاياتِه، هو ما نَحْتاج إلى تَأْصيل قَواعِده لِحَلِّ مَشاكِلِنا، ومُواجهَة تَحَدِّياتِنا المُعاصِرَة ومُكافحَة ما يُهَدِّدُنا من مَخاطِر، والتي من أَشَدِّها ضَراوةً أنْ يَفْقِد جيلُ الحاضِر ارْتِباطَه الوَثيق بتلك العَلاقة المُتبادَلة بين طبقَة الأَغْنِياء والفُقَراء، وأنْ يَفْقِد جيلُ الحاضِر بَصيرتَه فلا يُدْرِك تَبِعات تَصرُّفاتِه السَّلْبِيَّة وآثارها الوَخيمة على أَجْيال المُسْتَقبل

وأَبْناءِ الأمَّة، وأنْ تَرْتفِع الفَوارِق بين أولئك الذين أَغْرَقوا في الإقْبال على المَلَذَّات والشَّهَوات، وأَسْرَفوا في التَّنَعُّم بأَسْباب التَّرَف والرَّخاء، وبين أولئك الذين أَغْرَقوا في تَجَرُّع غُصَص الآلام والحِرْمان..

وأنْ تَبْرُد جَذْوَة المَشاعِر الإنْسانِيَّة لدى أولئك الذين تَقَلَّبوا في أَعْطاف العَيْشِ الهَنيء والنِّعْمَة السَّابِغَة، فلا يَتقاسَمون مَلَذَّاتهِم وما أُتيحَ لهم من أَسْباب الحياة السَّعيدَة، مع مَنْ ضاقَت عليهم مَنافِذ الحياة فتَضَوَّروا من المَواجِع، وتَقَلَّبوا في أتونِ المِحَن والشَّدائِد..

لهذا نَبَّه الإسلام لتَحْقيق التَّكافُل والتَّضامُن والتَّعاوُن بين أَفْراد الأمَّة وأَبْنائِها، ووَجَّه الحقُّ سُبْحانه خِطابَه لإشاعَة قِيَمِه ومَبادئِه في نُصوص كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾[2].

فالواجِب يُحَتِّم علينا أنْ نُجَدِّد العَلاقة فيما بيننا، وأنْ نُراعِي المَصالِح التي تَجْمَعُنا وتُوَحِّد صُفوفَنا، وأنْ نَجْعَل لها امْتِدادًا يَصِل مَصالِح أَجْيال الحاضِر بأَجْيال المُسْتَقبل، وأنْ

(1) سورة الحج: الآية 40.

(2) سورة الحشر: الآية 10.

نَجْمَع شَتات ما انْقَطع وما تَفَرَّق مِنْ شَمْلِنا، فقد فَرَّطْنا في أَداءِ الحُقوق والواجِبات، وقَصَّرْنا في الالْتِزام بواجِب التَّكليف والرِّعايَة، وقَطَعْنا ما بيننا مِنْ رَوابِط، ومَزَّقْنا ما بيننا مِنْ صِلات المودَّة والإِخاء، حتى خَلا كلٌّ مِنَّا إلى نَفْسِه وآثَرها على مَن سواه، وتَخَلَّى عن مُجالسَةِ الأَهْل والأَقْرِباء، وعَزف عنْ مَدِّ يَدِ المَعونة للإِخْوان والأَصْدقاء..

واكْتَفى كلٌّ مِنَّا بخِدْمَة مَصالحِه وقَضاءِ حاجاتِه، وما يَجْلِب إليه المَنافِع ويَصْرِف عنه المَضار والمَفاسِد، مُعْرِضًا عن شُؤون غَيْرِه ومُقَصِّرًا في حَلِّ القَضايا والمُشْكلات..

وإنْ لم نَتدارَك هذا التَّقْصير في حُقوقِ الله وحُقوقِ العِباد، ستَنْخر الشَّيْخوخَة أَرْواحَنا قبل الأَجْساد، حتى لا يَتبقَّى من تآلُفِنا إلا أَشْياء يَفْتَرِق لأجْلِها النَّاس بعد اجْتِماع..

فحينَ يَتسلَّط البُخْل والجَشع بقَوْم يُقْبِلون على التَّجَمُّل وحُبِّ الظُّهور، ويَبْلُغ بهم التَّكَلُّف كلَّ مَبْلغ فلا يَقْتصِدون في التَّباهي والتَّفاخُر، ولا يَقْنَعون إلا بالحُظوظ السَّاقِطَة، حتَّى إذا جَدَّ وَقْت الجِد ووَقْت الفَوْز بأَنْواع الفَخار، غابَت عن وجودهم إشْراقَة روح العَدالة والوِئام..

وإذا افْتَقَدتهُم لم تَجِد عندهم إلاّ الأَسى والحُزْن، واليَأْس وخَيْبَة الأَمل، وإذا تلَمَّسْتَ خُطاهم لم تَجِد آثارًا تَدُلُّك على مَعْروفٍ أو إِحْسان، ولم تَجِد إلا سَراباً يَحْسَبُه الظَّمآنُ ماء..



4 ـ أضرار التَّرف والتخلِّي عن التَّكافُل الاجْتماعي:

إنَّ مَنْشَأ كثير من الجَرائِم والمَفاسِد التي عَمَّت مُجْتَمعاتِنا، هي من نَتائِج أَعْراض التَّرَف وزِيادَة الفائِض في الطَّاقَة المُتَوفِّرة عن تَكْديسِ الثَّرَوات، والغَفْلة عن أَداءِ رِسالَة الاسْتِخلاف، والتخلِّي عن حِفْظ أمانة الحُقوق والواجِبات، وصَدق الحَقُّ سُبْحانَه حين حَذَّرَنا من الانْسِياق وراءَ مَظاهِر التَّرَف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿16﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿64﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿116﴾﴾[3]..

فمن نتائِج التَّرف ما تَتَخَبَّط فيه الإِنْسانِيَّة اليوم من مَشاكِل مُسْتَعصِية، إيذاناً باسْتِدراج الأمَّة إلى دَمارٍ وهَلاكٍ شامِل، لا نَجاة لها منه إلا ببَعْثٍ جديد يَجْتَلِي صُوَر الطَّبيعة ويُحْيي الفِطْرة الرَّاكِدَة، ويُخَلِّصُها من فائِض الإِنْتاج والادِّخار، ويُوَجِّهها إلى الاسْتِهلاك بالقَدْر الضَّروري الذي يَكْفي حاجَة الفَرْد والمجتمع، ويُحَصِّنها من الإِسْراف في مَظاهِر البَذْخ، والتَّباهي والتَّفاخُر

(1) سورة الإسراء: الآية 16.
(2) سورة المؤمنون: الآية 64.
(3) سورة هود: الآية 116.

بالامْتِلاك الزَّائِد للمَلابِس الفاخِرَة، والسَّيارات الفارِهَة، والدُّور الفَخْمة، ويُحَرِّرها من المُغالاة في تَبْديد الثَّروات، والاسْتِهلاك المُفْرِط للمَوارِد..

والارْتِقاء بسُلوكها عن التَّنافُس البَغيض في تَقْديسِ المادَّة، للتَّنَعم بالاحْتِواء والدِّفْء بعَيْش كريم، تتحَلَّل فيه الأَجْساد والأَرْواح من الانْغِماس في مَباهِج الحياة بلا ارْتِداع، وتتخَلَّص من الخُمول والتَّقاعُس عن المُجاهَدة وخَوْض مَعارِك الحياة، والاجْتِهاد في النُّهوض بالكَفاءات المُنْتِجة والعالِمَة، وتَوْظيف سَواعِد الشَّبيبَة العامِلَة، وفَتْح قنَوات الإِنْتاج الوطني وحِرَفِ التَّكوين المِهَني، وتَشْجيع المُنافسَة الحُرَّة الشَّريفَة، والحِفاظ على المَوارِد والثَّرَوات الطَّبيعية، واسْتِثْمار الأموال في مَشاريع رائِدَة في مجالات التَّقَدم والازْدِهار..

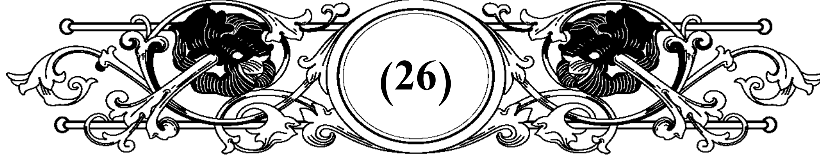
كما أنَّ الواجِب يُحَتِّم علينا أن نُحْيي عاداتٍ حِسان، من مُتْعَة المُكاتَبَة والتَّزاوُر واللِّقاء المُباشِر الذي يَضُمُّ القلوب بضَمَّات المودَّة والحبِّ الخالِص، فقد صِرْنا لا نَلْتقي إلاّ لِقاءَ الغُرَباء، ولا نَتواصَل إلاّ وصْلاً يَشوبُه الجَفَاء، وسَقَطْنا في هُوَّةٍ سَحيقة لا سَبيل إلى عُبورِها إلاّ إذا تَجاوَزْنا أَسْبابَ التَّنافُر والقَطيعة، وما مِنْ شَأْنِه أنْ يُخْزِينا ويُسيئ إلى غايات وُجودِنا..

وأنْ نَرْتقي بالإِنْسان عن ذاك التَّرابُط الضيِّق الذي يصِلُه بنَفْسِه وذاته، ليتَحوَّل إلى تَرابُط مُحْكَم يسَع نَفْسَه ومَنْ حَوْلَه، فيَجْتهِد أوَّلاً في نشْرِ قِيَم التَّشارُك والعمَل الجماعي بين أَفْراد وعَناصِر أُسْرَتِه، ويُرْشِدهُم إلى سُبُل تَوْزيع المَهام والمَسْؤولِيَّات

فيما بينهم، والتّشارُك في القِيام بتَكاليف الرِّعايَة داخِل البَيْت وخارِجَه، وبين الرَّجُلِ والمرأة على حدٍّ سَواء، بما يَضْمَن قِيامَ أُسْرَة مُتَآلفة ومُتَعاوِنَة على البرِّ والتَّقوى، فالرَّجُل راعٍ في بَيْتِه وهو مَسْؤولٌ عن رَعِيَّته، والمرأة راعِيَة في بَيْتِ زَوْجِها وهي مَسْؤولَةٌ عن رَعِيَّتها..

ثم يتحوَّل بهذا التَّرابُط المُحْكَم ليَصِل مَنْ هم خارِج مُحيطِ بَيْتِه وأُسْرَتِه، فتَمْتَزِج المَصْلحَة الفَرْدِيَّة بالمَصْلحَة العامَّة، ويَتضامَن الأَفْراد فيما بينهم ويَتقاسَمون حَمْل أثْقال الحياة والنُّهوض بالأَعْباء، ويَتَحَرَّكون بروح المَحبَّة التي تُحَتِّم عليهم الالْتِزام بالنِّظام العام، وحِفْظ الأَعْراض والحُرمات، وكَفالة الحُقوق للجميع، وضَمان الحُرِّيَّات المَشْروعَة، وتَجَنُّب ما يُسِيء إليهم أو يُعَطِّل مصالِحَهم أو يَضُرُّ بمَنافعهِم ومَطامِحهم النَّبيلَة..





(26)

الوقف وأثره في تنمية المجتمع الإسلامي

إنَّ التَّنمية في المَفْهوم الإسلامي تقوم بالدَّرجة الأولى على العُنْصر البشري مُرْتكَزًا ووسيلةً، وهَدفًا، وتحقيق التَّنمية البشريَّة يَنْبني على تحقيق مقاصِد الشَّريعة الخمسة، وكِفايَة المسلم في دينِه، ومالِه، ونفسِه، وعَقْلِه، ونَسْلِه، من خلال تنمية مجموعة من المجالات: كمجال تنمية الحياة الدِّينية، ومجال تنمية الحياة الثَّقافية والتَّعليمية، ومجال تنمية الأحوال الصِّحية، ومجال التنمية الاقتصادِيَّة، وتوفير مناخ فكري وإداري وتكافُلي مُناسِب لتحقيق التَّنمية الشَّامِلَة، ومؤسَّسة الوقف هي من المؤسَّسات النَّشِطَة، التي ساهَمت في تحقيق هذه التَّنمية الشامِلَة، وتَغْطِية نفَقات عدَّة مجالات ومَرافق..



1 ـ أثر الوقف في مجال تنمية الحياة الاجتماعية:

تتمثَّل أهَمِّية الوقف في الجانب الاجتماعي في الإِنْفاق على المَشاريع الخَيْريَّة ذات الطَّابع الإنساني، وتَنْدرِج في جملة

العمل الصَّالح الذي يشمل نفْعُه عامَّةَ النَّاس، وبناء الحضارة الإسلامِيَّة على أساس المبادئ التي أقرَّها الإسلام، وحَضَّت عليها نصوص الشَّريعة.

۞ أ ـ الوقف والخدمة الاجتماعية:

ساهمت الأوقاف ـ باعتبارها صدقةً جاريةً ـ في تنمية مجال الرِّعاية الاجتماعِيَّة، وتحقيق الضَّمان الاجتماعي، فلم يَخْلُ بلدٌ إسلامي ولا عَصْرٌ من عُصورِ الإسلام، من إِنْجاز مشاريع لكَفالة المُعْوِزين والمُحْتاجين، كفالةً تضافَرت فيها المُبادَرات الجَماعِيَّة مع المُبادَرات الفَرْدِيَّة، والمُبادَرات الرَّسْمِية للوُلاة والأُمَراء.

۞ ـ ففي المجتمع المصري:

كانت المدن في العصر المملوكي تَكْتَظُّ بجمهور كبيرٍ من الباعَة والسَّقائين والمُعْدَمين، وأَشْباه المُعْدَمين، ومَن يعيشون في ضيقٍ وعُسْر، فكان الوقف يُوَفِّر لهؤلاء الرِّعاية الاجْتِماعِيَّة، ويُخَصِّص لهم نَصيبًا مُحَدَّدًا من ثروة الأغنياء، كما جاء في وثيقة وَقْف السُّلطان حسن: «خلاص المَسْجونين، ووفاء دَيْن المَدينين، وفَكاك أَسْرى المسلمين، وتَجْهيز مَن لم يُؤَدِّ فَرْض الحَج لأداء فَرْضِه، وتَجْهيز الطُّرَحاء من أَمْوات المسلمين، وإِطْعام الطَّعام، وتَسْبيل الماء العَذْب، والصَّدقة على الفُقَراء والمساكين، والأَيْتام والأرامل، والمُنْقَطِعين والعُمْيان، وأَرْباب العاهات، وذَوِي الحاجات من أَرْباب البيوت، وأَبْناء السَّبيل

على ما يراه النَّاظِر، إنْ شاءَ صرَف ذلك نَقْدًا، أو كِسْوَةً، أو طَعامًا، أو غير ذلك، ومُداواة المرضى»[1]. .

كما ساهَمت الأوقاف ـ في بعض فترات العصر المملوكي ـ في تَقْديم خِدْمات اجْتِماعِيَّة، كتَغْسيل فُقَراء المسلمين، وتَكْفينهم ودَفْنهم، وصُنْع التَّوابيت لنَقْل المَوْتى، وقد خَصَّص سلاطين المماليك أَوْقافًا لإِنْشاء المُصَلَّيات وتجديدها، لتَغْسيل الأَمْوات والصَّلاة عليهم[2]، وكان من أَشْهر هذه الأوقاف: «وقف الطرحاء»[3]، الذي أَنْشَأه السلطان الظَّاهر بيبرس، فَضْلاً عن كثيرٍ من مجالات الرِّعاية الاجْتِماعِيَّة التي اهْتَمَّت الأوقاف في هذا العصر بالإِنْفاق عليها، منها: رِعايَة النِّساء اللَّاتي طُلِّقْنَ أو هُجِرْنَ، حتى يتزوَّجْنَ أو يَرْجِعْنَ لأَزْواجِهِنَّ صِيانةً لهنَّ، وإيداعِهِنَّ في رِباط «كرِباط البَغْدادية»، الذي أَنْشَأته السَّيدة «تذكار باي خاتون» ابنة الملك الظَّاهر بيبرس وذلك سنة 684هـ[4]. .

وفي عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي خُصِّص وقفًا لإِمْداد الأُمَّهات بالحليب اللَّازِم لأطفالهن، وجُعِل في أحد

(1) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648 ـ 923 هـ/1250 ـ 1517م)/محمد محمد أمين ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة، ط الأولى 1980م: ض 133 ـ 138.

(2) المرجع نفسه: ض 105.

(3) الطرحاء: جمع طريح، وهو المتروك المُهمل.

(4) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر: ص 139.

أبواب قَلْعة دمشق ميزابٌ [1] يَسيلُ منه الحليب، وميزابٌ آخر يسيل منه الماء المُذاب بالسُّكَّر، فكانت تأتي الأُمَّهات يومين من كلِّ أسبوع، يَأْخُذْنَ لأَطْفالهنَّ ما يحتاجون إليه من الحليب والسُّكَّر[2]..

۞ ـ وفي بلاد السودان:

تحدَّثث أحمد بابا التنبكتي السوداني عن بعض مظاهِر الوقف، من خلال ما شاهَده في أقاليم السُّودان، وما كانت تتميَّز به من وَفْرة طعام أَهْلها، فكان يَنْدُر فيها الجوع والمَسْغَبة، لأَنَّهم كانوا يَعْمدون إلى ما يَتبقَّى من طعامهم، فيَضعونه على حُصُرٍ نظيفة عند الجامع، فيُصيب منها الجائع والمُحْتاج حاجتَه[3]..

۞ ـ وفي المغرب:

شَمِلت الأوقاف مجالات اجتماعيةً كثيرة، منها :

ـ أنَّ الواقِفين كانوا يوقفون أموالاً بصندوق خاص، يُسْعَف به كلَّ ولدٍ يَتعلَّم صَنْعةً ما، ومن تَنْكسِر له آنِيَة خَزفِيَّة، فيخاف

(1) الميزاب/المِزرَابُ، قناة أو ماسورة عموديّة يجري فيها الماء منصرفًا من أسطح الدُّور أو المواضع العالية، فينسكب على الأرض بعيدًا عن جدرانها...

(2) اشتراكية الإسلام/د. مصطفى السباعي. طبعة القاهرة: ص 21.

(3) الوقف في الفكر الإسلامي/محمد بن عبدالعزيز بن عبدالله ـ منشورات وزارة الأوقاف المغربية: 1/ 131.

من عِقاب مُعَلِّمه[1]. .

ـ كما كان الوقف يُخَصَّص لإقامَة دِيار للشُّيوخ العَجَزة، ولتَعْريس المُسْتَضْعَفين من الرِّجال والنِّساء المَكْفوفين، ولمن يريد إقامَة وَلائِم الأَعْراس من المُتَوسِّطين والضِّعاف، وقد اهْتَمَّ السلطان أبو الحسن المريني وابْنُه أبو عنان بهذه الدِّيار وتَجْهيزها، وكانت مُنْتَشِرةً في كثيرٍ من المدن المغربية، كمدينة فاس، ومكناس، وتازة، وغيرها[2]. .

وكان من بين هذه الدِّيار أربع دُور وَقْفِيَّة بمدينة فاس، تَبْتدئ من دار بدَرْب السعود في حَيِّ الجزيرة بفاس، وقد جُهِّزت كلُّ واحدة منها بالفُرش والأثاث اللَّائِق بوَليمة التَّزْويج، وكان هناك قصر بفاس يحمل اسم: «دار الشُّيوخ»، وآخر عند زُقاق رِياض جُحا بين الصَّاغَة ورَحْبَة قَيْس، أُعِدَّت لتَعْريس المَكْفوفين الذين لا سكَن لهم، ولإقامَة مَراسيم الزَّفاف، ولتَجْهيز وتَزْيين العَرائِس. .

وكان بمدينة مراكش دارٌ مُخَصَّصة للنِّساء اللَّاتي يقع بينهنَّ وبين أَزْواجهنَّ خِصامٌ وتَنافُر، يُقِمْنَ فيها آكِلات شارِبات، حتى يزول هذا الخِصام والتَّنافُر، وكان لهذه الدَّار أوقاف عديدة للإِنْفاق عليها، وعلى المُقيمات فيها[3]. .

---

(1) البعد الثقافي والمجتمعي للوقف الخيري في الإسلام/السعيد بوركبة: مجلة دعوة الحق ـ العدد (363 ـ 365)، السنة 2002م: ص 85.
(2) البعد الثقافي والمجتمعي للوقف الخيري في الإسلام: ص 83 ـ 84.
(3) الوقف في الفكر الإسلامي/محمد بن عبدالعزيز بن عبدالله: 1/140.

ـ واعْتاد المَرينِيُّون إِعْذار اليتامى من الأطفال كلَّ سنة، ويُخَصِّصون يوم عاشوراء مَوْعِدًا له، وهي مَبَرَّة عُرِفَت بالمغرب منذ العصر المُوَحِّدي، ومنذ أيام السلطان يعقوب المنصور الموحدي[1]..

ـ كما اهْتَمَّ الواقِفون المغاربة بإِنْشاء دُور يُسْتَضاف فيها الغُرَباء المارُّون، وإِنْشاء المَلاجِئ الخَيْرِيَّة لمَنْ لا سكَن لهم ولا مَأْوى، يَقْطنون فيها مَجَّانًا ويُزَوَّدون بالطَّعام والملابس صَيْفًا وشِتاءً[2]..

۞ إضافةً إلى المَبرَّات الإِحْسانِيَّة التي كان يعتني بها المُحْسِنون والمُحَبِّسون المغاربة منها:

* الأوقاف الخاصَّة بقَضاء دُيون الغُرَماء المُعْسِرين، مثل:

ـ أوقاف السلطان أبو عنان المريني، الذي الْتزَم بأداء دُيون المُعْسِرين المَسْجونين من ماله الخاص بسائِر الجِهات المغربية، وإِطْلاق سراحهم، وقَضاء دُيون مَنْ تُوفِّي وعليه دَيْنٌ من الدُّيون من بيت المال[3]..

ـ الأوقاف الخاصَّة بإِنارة الدُّروب المُظْلِمَة كما كان بمدينة فاس، وقد تَضمَّنت «الحوالة العبدالرحمانية» لائِحةً لعَددٍ من

(1) البعد الثقافي والمجتمعي للوقف الخيري في الإسلام/السعيد بوركبة: ص84.
(2) المرجع نفسه: ص84.
(3) المرجع نفسه: ص84.

السَّوامِر (الفَوانيس)، التي كانت تُوقَد بعد غروب الشَّمس، لإنارة الأَمْكِنة المُظْلِمَة من مدينة فاس، مَصْحوبَةً بلائِحَة المَوْقوفات على ذلك[1]. .

ـ والأوقاف الخاصَّة بتَوْفير المِياه، وحَفْر الآبار والعُيون وتَحْبيسها، وإقامَة السَّقايات المُسبلة، ومَدِّ القَنوات لنَقْل المِياه من مَنابعِها إلى أَماكِن اسْتِعمالها، وتَجْهيز المدن بالمياه، ودور الوضوء والحَمَّامات وغيرها، وقد ذكَر الشَّيخ محمد المكِّي النَّاصِري أنَّ الحَمَّامات يَرْجِع أَكْبر عَدد منها في المدن المغربية إلى الأَحْباس، لأنَّ المُحَبِّسين كانوا يَعْتبرونها مَراكِز للطَّهارة الإسلامِيَّة، فكانت أَكْرِيَتُها مُنْخَفِضة، وأُجْرَة الاسْتِحمام بها رَخيصةً[2]. .

ـ كما شارَكت أوقاف النِّساء في تنمية المجتمع، ورِعاية وتَنْشِئة وتَرْقِيَة بنات جِنْسِهِنَّ، ضِمْن المَنافِذ المُتَعدِّدَة التي وُجِّهَت إليها أَوْقافُهنَّ، فقد خَصَّصْنَ جانِبا كبيرًا من عائِدات أَوْقافِهِنَّ لصالح رِعاية اليتيمات ماديًّا، ومَعْنويًّا، وتَرْبويًّا، لضَمان حُسْن تَنْشِئتهنَّ، فعلى سبيل المثال:

ـ اشْتَرَطت السيدة جليلة طوسون «في وَقْفِيَّتها عام 1927م» صَرْفَ عائِد 138 فدَّان بعد وفاتها، على مَلْجأ لتربية الفتيات اليتيمات، يُسَمَّى: «مَلْجأ السِّت جليلة»، واشْتَرَطت في وَقْفِيَّتِها على تَعْليم فتيات المَلْجأ الكتابة والقراءة، وحِفْظ جُزْأَين

(1) المرجع نفسه: ص84.

(2) المرجع نفسه: ص84.

من القرآن على الأَقل حِفْظًا جَيِّدًا، وتَعْليم القراءة في المصحف الشَّريف، ومبادئ الحِساب، وفنون الطَّبْخ، والخِياطَة والتَّطْريز، وتَعْليمهنَّ الفنون، وما يُناسِب حالة الإناث من أَناشيد وأَغاريد[1]..

ـ كما خصَّصت الأوقاف النِّسائية بعض مَنافذِها، لصالح السَّيدات الأَرامِل، والعَجائِز، والمُطَلَّقات، من غير القادِرات على إِعالَة أَنْفُسهنَّ[2]..

وتَنوَّعت الخَلْفِيَّات الاجْتِماعِيَّة والاقْتِصاديَّة للواقِفات، واتَّجَهت مُساهَماتهُنَّ نحو مجالات متنوعة، كان من أَهمِّها المَرافِق العامَّة، وتَعْضيد الرَّوابط الاجْتِماعِيَّة والأُسَريَّة.

ب ـ الوقف والرِّعاية الصِّحية:

اهْتَمَّ الوقف الإسلامي برِعاية المسلم بَدَنيًّا وعَقْليًّا، وخَصَّص أَغْنِياء المسلمين الأَحْباس الواسعة لإِنْشاء المستشفيات، وكُلِّيات الطِّب التَّعْليمية، وتَطْوير الطِّب والصَّيْدلَة والعُلوم المُرْتَبِطة بها، والإِنْفاق على تأليف كُتُب الصَّيْدلَة والطِّب، ككِتاب: «الكليات في الطب» لابن رشد..

(1) أوقاف النساء: نماذج لمشاركة المرأة في النهضة الحضارية، دراسة للحالة المصرية في النصف الأول من القرن العشرين/ريهام أحمد خفاجي: مجلة أوقاف ـ العدد (4)، السنة 1424 هـ ـ 2003م: ص 22.

(2) أوقاف النساء/ريهام أحمد خفاجي: ص 22.

كما أَوْقَفوا الأوقاف الكاملة للمُجَمَّعات الصِّحية، التي عُرِفَت باسم: «دُور الشِّفاء»، و«دُور العافِيَة»، و«البيمارِسْتانات» الخاصَّة بمُعالجَة الأمراض النَّفْسِيَّة والعَقْلِيَّة والعَصبِيَّة، وبِناء أَحْياء طِبِّية مُتَكامِلَة الخدمات والمَرافق، لتقوم بمَهامِّها على أَحْسن وَجْه[1]..

۞ ـ ففي مصر:

اهْتَمَّ بعض وُلاة مصر ـ منذ فجر الإسلام ـ بتَقْديم الرِّعاية الصِّحية لمُخْتَلف طبقات الشَّعب، وكان أَوَّل بيمارِسْتان أُنشِئ في مصر في عصر وُلاة الأَمويِّين، في دار «أبي زبيد» بزقاق القناديل بالفسطاط، ثم أُنشِئ بيمارِسْتان «المعافر» سنة 247 هـ، وبيمارِسْتان «أحمد بن طولون» أَنْشَأه سنة 259 هـ، وأَوْقَف عليه دَخْل بعض الأَبْنِيَة، وكان المَرْضى يتناولون به الأَغْذِية مَجَّانًا، ويظَلُّون به حتى يَتِمَّ شِفاؤهُم[2]..

ومن هذه الأوقاف كذلك ما رُصِد للبيمارِسْتان المَنْصوري، الذي أُنْشِئ سنة 682 هـ لعِلاج الملك والملوك، والكبير والصَّغير، والحُر والعَبْد، وجُعِل في هذا البيمارِسْتان لكلِّ مريضٍ

(1) أثر الوقف في تنمية المجتمع/نعمت عبداللطيف مشهور ـ مركز صالح عبدالله كامل للاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر 1997م: ص 89 ـ 90.

(2) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648 ـ 923 هـ/1250 ـ 1517م)/د. محمد محمد أمين ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة، ط الأولى 1980م: ص 155 ـ 177.

فَرْشٌ كامِل، وعُيِّن له الأَطِبَّاء والصَّيادِلَة والخدَم، وزُوِّد بمَطْبخ كبير، وكان المريض إذا ما برَأ وخَرَج، تَلقَّى مِنْحَة وكِسْوَة[1]..

وامْتَدَّ أَثر الأوقاف فشَمَل حتى الفُقَراء في بيوتهم، فقد نَصَّ السلطان قلاوون في كتاب وَقْفه: على أنْ تَمْتدَّ الرِّعاية الصِّحية إلى الفُقَراء في بيوتهم، فيُصْرَف لهم ما يَحْتاجون إليه من الأَدْوية، والأَشْرِبة، والأَغْذِية، بشَرْط عدم التَّضْييق على المَوْجودين بالبيمارِسْتان[2]..

كذلك اعْتَنت النِّساء بالوقف في مجال الحِفاظ على الصِّحة العامَّة، ولصالح دَعْم المستشفيات، وعِلاج المُحْتاجين من المَرْضى، فعلى سبيل المثال:

أَوْقَفَت زوجة السلطان سليمان القانوني مستشفى من أموالها الخاصَّة، وأَوْقَفَت العَديد من المحَلَّات التِّجارية للإِنْفاق عليه، وكان يَحْتوي على مدرسة للطِّب[3]..

واسْتَمرَّت النِّساء في العصور المُتَأَخِّرة ـ داخل مصر وخارجها ـ في تَخْصيص جزءٍ كبير من أَوْقافهنَّ للاعْتِناء بالصِّحة العامَّة، فقد قامت السيدة نبيهة بإِنْشاء مستشفى باسْمِها في الدلتا عام 1931م، وخَصَّصت السيدة حنيفة السلحدار جُزْءًا من ريع وَقْفِيَّتها لعِلاج فُقَراء المسلمين المَرْضى في مستشفى قصر العيني بالقاهرة[4]..

(1) أثر الوقف في تنمية المجتمع/نعمت عبداللطيف مشهور: ص 88.
(2) المرجع نفسه: ص 90.
(3) أوقاف النساء/ريهام أحمد خفاجي: ص 89.
(4) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

۞ ـ وفي المغرب:

أَنْشأ المغرب كذلك البيمارِسْتانات، وجَعل لها أَوْقافًا تقوم بمَهامِّها أَحْسَنَ قِيام، ويرى الباحث المغربي محمد بن عبدالعزيز بن عبدالله، أنَّ أَوَّل بيمارِسْتان عُرِف بإفريقيا الشَّمالية، هو الذي أسَّسه السلطان المنصور الموحدي مراكش، قبل تأسيس مدينة القاهرة بقرن تقريبًا(1). .

واسْتَمرَّت هذه البيمارِسْتانات حتى آخِر الدَّولة المَرينِيَّة، وكان هذا العهد زاخِرًا بهذه المَصحَّات.

وذكَر الدكتور عبدالهادي التازي(2)، أنَّه كان للسلطان أبي الحسن المريني فَضْلٌ في تجديد البيمارِسْتان في مدينة فاس، واقْتَفى أَثَره السلطان أبو عنان المريني في العِناية به والتَّحْبيس عليه. .

وهكذا ومنذ القرن السادس الهجري، انْتشَرت البيمارِسْتانات تَدْريجيًّا في مُخْتَلف الحَواضِر الكبرى بالمغرب، منها بفاس: مارستان «سيدي فرج» أُسِّس في القرن السَّابع الهجري، واسْتَمرَّ العمَل به إلى القرن العشرين الميلادي، وكان يَعْتني بصِحَّة الإنسان والحيوان والطَّيْر، وخُصِّصَت به أوقاف لعلاج الطُّيور، خاصَّةً طيور اللَّقْلاق إذا انْكسَرت أو أُصيبَت بأَذى، ويُصْرَف من هذه الأوقاف على مَنْ يُضَمِّدها ويُداويها ويُطْعِمها. .

---

(1) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

(2) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

كما رُصِدَت أوقاف للموسيقِيِّين الذين يَعْزِفون للمرضى كلَّ أسبوع، ليُخَفِّفوا عنهم آلامَهم، ويُنْفَق من هذه الأوقاف على ما يَتطلَّبُه غَسْل المَوْتى الغُرَباء وتَكْفينهم وإِقْبارهُم(1)..

ومارستان «محمد الغازي» بالرباط، كان يَؤُمُّه المجانين من أَنْحاء المغرب بقَصْد العلاج والاسْتِشفاء، وكان له أوقاف خاصَّة لهذا الغرض..

كما خُصِّصت إقامات حَبْسِيَّة لبعض أصناف المُعاقين، والمُصابين بالأمراض المُعْدِيَة والمُسْتَعْصِية العلاج، فكان بفاس رَبْضٌ يَسْكنه المَجْذومون، ولهم رئيسٌ يَجْمِع مداخيل العقارات المَوْقوفَة عليهم، ويُوَفِّر لهؤلاء المرضى كلَّ الضَّرورات، بحيث لا يَحْتاجون إلى شيء(2)..

ومن هذا القبيل أيضًا: «وَقْف سيدي أبي العباس السبتي» المُخَصَّص للعُمْيان والزَّمْنى في مراكش(3)..

۞ ج ـ الوقف والحِفاظ على هُويَّة المجتمع الإسلامي واسْتِقلاله:

اسْتَطاع الوقف على مَرِّ العصور أن يُحافِظ على هُويَّة المجتمع الإسلامي، ويَضْمن اسْتِمرار صِفاته الرُّوحية والعقَدِيَّة، والاجْتِماعِيَّة، والاقْتِصادِيَّة، وأن يُحافِظ على روح الإسلام،

(1) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.
(2) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.
(3) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

وحَيويَّة المجتمع الإسلامي وفَعالِيَّته، واسْتِقلال الكثير من الوَظائف، فلا تَخْضع إلا لسلطان الشَّريعة، وبالتَّالي حَفِظ للأمَّة حَضارتها وهُويتها الإسلامية، من خلال تحقيق المَقاصِد الشَّرْعية والقِيَم الإِسْلامِيَّة، وحماية الثَّروات والأموال من ظُلْم المُصادَرات، والوُقوف ضِدَّ رغَبات الاسْتِعمار السِّياسي والفِكْري والدِّيني، والحِفاظ على تَماسُك المسلمين..

۞ ـ ففي الهند:

ساهَم الوقف في الحِفاظ على جَذْوة الإسلام مُتَّقِدة، والإِبْقاء على تمَاسُك المسلمين، ومُحاربَة الاستعمار الإنجليزي، من خلال مقاومة رجال العِلْم في معاهدها الإِسْلامِيَّة، والتي عُضِّدَت بأموال وقفية، مثل:

مراكز التَّعليم في عليكرة، وحيدرآباد، وكراتشي، وغيرها من المراكز العِلمِيَّة، والمساجد الكبيرة التي كانت تُمَوِّلها الأوقاف الإسلامِيَّة..

۞ ـ وفي إندونيسيا:

ساهَمت المدارس الوَقْفِيَّة الإسلامِيَّة مساهمَةً حَيويَّة في المُحافظَة على الإسلام، ومحاربة سُلطات الكنيسة التي كانت تسعى لتَنْصيرهم، ومقاومَة الاستعمار الهولندي، ولا زالت هذه المدارس تقوم بهذا النَّشاط الحيَوي في المجتمع، والثَّقافة الإندونيسِيَّة..

۞ ـ وفي الجزائر:

ساهَمت الأوقاف الإسلامِيَّة والمَوارِد الوَقْفِيَّة في الإِنْفاق على مراكز التَّعْليم، والمدارس المُلْحقَة بالمساجد، والزَّوايا، والكَتاتيب، والحِفاظ على اسْتِقلالها عن سيطرة السُّلطات الفرنسية، التي كانت تسعى لطَمْس هُويَّتِه ومُقَوِّماتِه الإسلامِيَّة، وساهَم عُلَماء الدِّين من أمْثال: الثَّعالبي، والطَّاهر بن عاشور، وابن باديس، وغيرهم من العُلَماء وطلبة العلم، من أهل المغرب، أو موريتانيا، أو تونس، أو الجزائر، في التَّصَدي للاستعمار الفرنسي، ولمَساعي الكنيسة الكاثوليكية، كما فعَل إخوانهم بليبيا في مقاومة الاستعمار الإيطالي، واعْتَمدوا على أوقاف المدارس والمساجد، مثل: مدرسة تلمسان، ومدرسة سيدي بومدين، وجامعة الزَّيتونة، ومدارس فاس ومراكش، والرِّيف المغربي، والزَّوايا، والتَّكايا..

۞ ـ وفي فلسطين المحتلة:

ساهَمت الأوقاف في مقاومة الاحتلال ومَساعيه، وتَقْديم المُساعَدات والخِدْمات لأبناء المسلمين وحِمايتهم، والمُحافظَة على كِيانهم ضِدَّ الاحتلال الإنجليزي والصِّهْيوني، ولا تزال المُؤَسَّسات الوَقْفِيَّة في فلسطين خاصَّةً المؤسَّسة التَّعليمية، من أَشدِّ مراكز المقاومة للاحتلال والاستيطان الصِّهْيوني، بل أَكْثرُها فاعِليَّة بحُكْم أنَّ هذه الأراضي موقوفة، وليست مِلكًا عامًّا للدولة..



2 ـ أثر الوقف في مجال تنمية الحياة الدينية :

من الأهداف الأساسِيَّة لمؤسَّسة الوقف، الحِفاظ على مكانة الدِّين الإسلامي، وتَوْفير السُّبُل المُناسِبَة للدَّعْوة، فنظام الوقف بمعناه العام ارتبَط ابْتِداءً بدور العبادة، لأنَّ العبادات في الإسلام مدرسة للتَّربية والتَّعليم، وتَكْوين السُّلوك الرَّاقي والمُتَحضِّر فَرْدِيًّا وجَماعِيًّا، وتَعْميق الشُّعور بوحدة الأمَّة والانْتِماء إليها، لهذا خُصِّصَت لها الأموال الحَبْسِيَّة للإنفاق عليها وعلى القائمين بخدمتها. .

۞ أ ـ الأوقاف وبناء المساجد

ارْتبَط نظام الوقف الإسلامي بإِنْشاء المساجد وتَعْميرها، ونجد أن أَوَّل وقف في الإسلام هو المسجد الذي بناه رسول الله ﷺ عند دُخوله المدينة، وهو مسجد قُباء، الذي بدأ فيه المسلمون تعلُّم القرآن، وتعلُّم الكتابة والقراءة، لذلك كان الأئمةَّ والفقهاء ـ على اختلافهم ـ لا يُعارِضون وقف المساجد، بل إنَّ الإمام أبا حنيفة كان لا يرى وَقْفًا لازِمًا إلا ما كان مسجدًا . .

ولم تقتصر أحباس المسلمين على الدُّور والأرَضين اللَّازِمَة لبناء المساجد، بل شَملت كلَّ ما يتعَلَّق بصِيانتها، ودَفْع رَواتِب القائمين على شؤونها، والتَّشْجيع على الإبداع في صُنْع أجمل الطُّرز العمرانِيَّة، والسَّجاجيد للصَّلاة، وإتقان صناعة القناديل، والثُّريَّات الفائقة الجودة التي تُعَلَّق في المساجد وأماكن العبادة،

لأنَّ المسجد كان هو المدرسة الشَّعْبية المفتوحة لكافَّة المسلمين، وتَكفَّلَت على مَرِّ التَّاريخ الإسلامي بإعداد نماذج إنسانِيَّة عالية في الإيمان والعِلْم، والآداب والسُّلوك الحميد، وما تزال الأوقاف تُساهِم في تَقْوية الشُّعور الدِّيني، عن طريق المؤسَّسات الدِّينية، كما تَشْهد بذلك حُجَج أوقاف المساجد والجَوامِع، بمختلف أماكن العبادة من رُبُط وزَوايا في البلاد الإسلامِيَّة . .

ويُعَدُّ المغرب من بين البلدان التي أَولَت عِنايتَها الفائِقَة إلى بناء المساجد ودُور العبادة، فصارت في طليعة المؤسَّسات الوَقْفِيَّة الدِّينية، والاجْتِماعِيَّة، والثَّقافية، وبحسَب بعض الرِّوايات التَّاريخية، يعود بناء المساجد الأولى بالمغرب إلى أيام عقبة بن نافع الفهري[1] . .

وقد عُرِف الوقف العمومي مع وصول الفاتحين المسلمين، وازْدادَ مع ازْدِياد الحَواضِر ونمُوِّها، ومُساهَمات المُبادَرات الفَرْدِيَّة والجَماعِيَّة للمُحْسنين في رَصْد هِبات ماليَّة لها، ووَقْف رَباعٍ وعقارات عليها، كما يَزْخر المغرب بالعديد من المساجد العتيقة، التي كان لها الرِّيادَة في إِشْعاعه الحضاري، ونَقْل الحضارة العربيَّة من الأندلس إلى أوروبا . .



(1) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

ومن المساجد التي قامت على الأوقاف:

۞ ـ جامعة القرويين:

قام هذا الجامع في المجال التَّعليمي والثَّقافي بدَعْم من الأوقاف، كذلك المجالس والكراسي العلمِيَّة التي كانت تُؤَدِّي دورها التَّعليمي . .

وذكَر الدكتور عبدالهادي التازي[1]، أنَّ الكراسي العلمِيَّة المَدْعومَة بالوقف، قد بلَغت 18 كرسيًّا، منها: «كرسي المحراب» وهو مُخَصَّص لدراسة السِّيرة والتَّاريخ، و«كرسي عبدالعزيز الورياغليي» وهو مُخَصَّص لدراسة العلوم والفنون. .

و«كرسي باب الرواح الأعلى»، و«كرسي النحو»، و«كرسي باب الصالحين الأيمن»، و«كرسي باب الصالحين الأيسر»، و«كرسي الشماعين». .

و«كرسي ظهر الصومعة» وهذا الكرسي كان من أهم الكراسي العلمِيَّة من حيث الشُّيوخ المُتَعاقِبين على التَّدريس عليه، ومن بين كراسيه العلمِيَّة: «كرسي الونشريسي» الذي كان يقوم على «التفريع»، و«المُدونة». .

وقد تزايَدت أوقاف القرويين فيما بعد، فأَفاضَت منها على سائر مساجد مدينة فاس ومُنْشَآتها الاجتماعِيَّة، ووصَلت أوقافها

(1) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

الزَّائِدَة إلى المسجد الأقصى والحرَمين الشريفين، حتى أنَّه في عصر الموحِّدين كانت معظم مباني ومنشآت فاس مِلكًا لأوقاف القرويين، ولما ظهَرت السُّلطة المرينِيَّة، وجَدت أمامها نواةً خِصْبة للأوقاف فوجَّهتها لصالح القرويين، ومساجد المدينة ومُنْشآتها الاجتماعِيَّة، وأَغْدَقوا عليه من أَمْلاك قد أَنْشَؤوها، ورَباع شَيَّدوها في سائر جهات المدينة وضواحيها أيضًا، وخصَّصت السلطة القائمة أوقافًا لصالح المؤسسات الدينية والعلمية، وأغدَقت على الجوامع أوقافًا وافرةً للإنفاق على أئمَّتها وشيوخ العلم بها، وطلَبتها ومُؤَذِّنيها، فأصبَحت مدينة فاس كما قال دلفان: دار علم بالمغرب، مُشَبِّهًا إياها بأثينا في أوروبا، بفضل علمائها ومُفكِّريها، وطلَبتها، وبفضل جوامعها ومدارسها العلمية[1]..

۞ ـ جامع ابن يوسف:

لا يَقِلُّ هذا الجامع شَأْنًا عن جامع القرويين، فهما يُعْتَبران تَوْءَمين في الإِشْعاع الفِكْري والثَّقافي بالمغرب وغيره، وكانت تُدَرَّس به علوم اللغة العربيَّة، والفِقْهيَّة والأُصوليَّة، والبَلاغِيَّة، والكَلامِيَّة، والقرآنِيَّة، والحَديثِيَّة، وغيرها من العلوم، وهذان المسجدان كانا يُدَعَّمان بالأوقاف الخيرية للمحسنين، فكانت لها أبعاد تَنْمَويَّة في الثَّقافة الإنسانِيَّة بصفة عامَّة والإسلامِيَّة خاصَّة، وكان يتولَّى التَّدْريس بهما علماء كبار، عُرِفوا برَصيدهِم العِلْمي

(1) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

الواسع، وكانت تَمْنحهُم الأوقاف رَواتِب قَيِّمَة تَكْفيهم مَؤونة العَيْش، والطَّلبة كانوا يَتلقَّون مِنَحًا تساعدهم على الاغْتِراف من مَناهِل المعرفة، ويُوَفَّر لهم السَّكَن مَجَّانًا في مدارس أو في فنادق..

كما شَمل الوقف تحبيس المصاحف لخدمة القرآن الكريم، وعِمارَة المساجد والمُواظِبين على قراءة الحِزْب، وخُصِّصَت أَحْباس للشُّيوخ المُلازِمين للصَّلَوات بالمساجد تَكْريمًا لهم، ووَقفًا لمَنْ يتكلَّف بتَذْكير المُصَلِّين بقوله: «سوُّوا الصُّفوف رحِمَكم الله» بجامع القرويين[1]..

۞ ب ـ الأوقاف والمواسم الدينية:

تُعَد المَواسِم والأَعْياد الإسلامِيَّة شَعائِر تَعبُّدِية، أمَر الله تعالى بإِحْيائها وإِقامَتِها إِظْهارًا لشَعائِر الإسلام، وحَمْدًا لفَضْل الله وابْتِغاء مَرْضاتِه، ومن هذه المواسم: شهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، ويوم عاشوراء..

وقد وقَف المسلمون أوقافًا خاصَّةً لإِحْيائها، وصَرْفِ ريعِها على المُحْتاجين، والتَّوْسِعَة على أَرْباب الوَظائِف، وطلبَة العِلْم، والأَيْتام والفُقَراء والمساكين..

ومن خلال دراسة مجموعة من وثائق الأوقاف في العَصْر المَمْلوكي، تَقرَّر أنَّ اسْتِمرار كثيرٍ من العادات والتَّقاليد

(1) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

الاجتماعِيَّة، المُرْتبطَة بهذه المَواسِم يَرْجِع أَساسًا إلى أثَر نظام الأَوْقاف..

وهناك وَثائِق أخرى نَصَّت على أن يُصْرَف من ريع الوقف، مقادير من الطَّعام في كلِّ يوم من أيام رمضان، على الفقراء والمساكين، وطلاب العلم..

ومَوَّلَتْ الأوقاف مَوائِد الإِفْطار والسَّحور للصَّائمين من الفُقَراء والغُرَباء، فوضَعت بذلك لَبِنَة أساس لسُنَّة حسنة، لا تزال حيَّة في بعض البلاد الإسلامِيَّة، كما في مصر، وتُعرَف عندهم «بموائد الرحمن»، كما سَجَّلت بعض الوَثائِق الخاصَّة بتَقْديم المساعدة للمُسْتحقِّين أيام العيد، واشْترَط فيها الواقِفون أن تُصْرَف في شِراء كمِّيات من اللَّوازِم الخاصَّة بالعيد لتَوْزيعها على المُحْتاجين، وأن تُشْتَرى في عيد الأضحى من ريعها كميَّات من اللُّحوم، وعدد من الأغنام تُذبَح وتُوَزَّع لحومها[1]..

۞ ج ـ الأوقاف والشؤون الإسلامية:

إنَّ الشُّؤون الإسلامِيَّة مفهوم مُتَّسِع النِّطاق، وقد ساهَمت الأَوْقاف في إِثْراء هذا المفهوم، من خلال إِحْياء وتَخْليد المُناسَبات الدينِيَّة، كشهر رمضان، والأعياد الدينِيَّة والوطنِيَّة، وموسم الحج، وتخليد ذكريات عظماء الإسلام، مثل ما قامَت به الأوقاف بالمغرب من تكريم للإمام مالك، والقاضي عياض، إضافةً لما تقوم به من الإعداد والتَّجْهيز، والتَّأْطير لأماكن

(1) المرجع نفسه: ص 34 ـ 35.

العبادة، والإسْهام في الأعمال الخيريَّة والاجتماعِيَّة، وإِحْياء التُّراث حِمايةً للأصالة، وتَوسيع الطَّاقة الاسْتيعابِيَّة للمُؤسَّسات الدينِيَّة، وتَحْصين المُنْشآت والأماكن المُقَدَّسة..

كما ساهَمت المُمْتلكات الحَبْسِيَّة والأوقاف المغربية بالقدس الشَّريف، والمُسَجَّلة حسَب الوثائق المَوْجودَة بتَفْصيل وبيان لدى المحكمة الشَّرعية التَّابِعَة للمملكة الأُردنِيَّة الهاشِمِيَّة، وكذا تقرير سنة 1959م حول ممتلكات الأوقاف المغربية والتونسية والجزائرية بالقدس الشَّريف، والمعروفة بأوقاف «أبي مدين الغوث»، ويُعتبر العدد الخامس من السنة الثانية والعشرين من مجلة «دعوة الحق» الخاص بالقدس الشَّريف، تَقْريرًا شاملاً ووثيقةً حَيَّة عن القدس الشَّريف والأماكن المُقَدَّسَة، وكذا الجهود التي قامت بها لجنة القدس..



3 ـ أثر الوقف في مجال تنمية الحياة الثقافية:

لقد أصبَح الوقف مرادفًا للثَّقافة العربيَّة الإسلامِيَّة في المناطق التي انْتشَر فيها الإسلام، وقامت الأوقاف الإسلامِيَّة بدور جَليل في مجال العِلْم والتَّعْليم، ومن بين الصُّوَر التَّاريخية لدور الوقف في التَّنمية الثَّقافية، ما يتعَلَّق بميدان التَّعْليم وإِنْشاء المدارس، فقد أجاز الفُقَهاء الوقف على التَّعْليم والعُلَماء وطلَبة العِلْم، واعْتبَروه من وُجوهِ البِر التي تُعادِل أو تُرَجِّح النَّفقَة في

الجهاد في سبيل الله، فساهم هذا في إِنْشاء المدارس، والمراكز العِلْميَّة، والمَكْتبات في سائر البلاد الإسلامِيَّة، واسْتِمرارها على مَرِّ العصور..

وقد أكَّدَت جلُّ الدِّراسات الحديثة التي تَناولت الحضارة والحياة العلمِيَّة في الدولة الإسلامِيَّة، ودور الوقف في تحقيق التَّنْمية الاجتماعِيَّة، أنَّ أموال الوقف قد أَسْهَمت بنَصيبٍ وافِر في تنمية التَّعْليم، وازْدِهار الحركة العِلْميَّة في الحضارة الإسلامِيَّة..

وهكذا ساهَم الوقف في مجال التَّعليم إِسْهامًا شموليًّا وحاسِمًا، انْطِلاقًا من محاربة الأُمِّية، وإيجاد أماكن للتَّعْليم وتَجْهيزها، ودَفْع رَواتِب الأساتذة، وإيواء الطُّلاب المُغْتَربين، وبِناء وتَجْهيز الكَتاتيب القرآنية، لارْتِباطها بإِشاعَة التَّربية الدِّينية والعِلْميَّة بالحضَر والبادية، كما قامَت الأوقاف بمستويات التَّعْليم الابتدائي، وأَنْشَأت مُؤسَّسات وَقْفِيَّة تقوم مَقام الجامعات في الوقت الحاضر، وكانت الأوقاف أهمَّ مصدر لتَعْضيد مثل هذه الدِّراسات العُلْيا المُتَخصِّصَة..

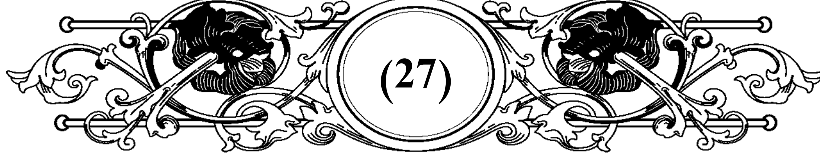
وهناك مجموعة كبيرة من النَّماذج التي تُبْرِز البُعْد العِلْمي والثَّقافي للوقف منها: الوقف على المساجد والمدارس، وتَمْويل مَراكزِها، وتَفْعيل سَيْرها، وإِمْدادها بالمَوارِد المالِيَّة الضَّرورية لسَدِّ حاجاتها، والذي امْتَدَّ إلى التَّوْجيه التَّربوي، وتَعْيين العلوم والفنون التي يجب أن تُدَرَّس، والمُؤَهِّلات العِلْمِيَّة التي يجب أن تتوفَّر في العالِم المُدَرِّس..

كذلك من أَهمِّ المَظاهِر التي يَتجلَّى فيها البُعْد العِلْمي للوقف:

إِنْشاء المكتبات العامَّة والخاصَّة، وفَتْح أبوابها في وجه طُلَّاب العِلْم، وبذلك خَلَّدت الأوقاف طابعها المُمَيَّز على مَسارِ الحضارة، ونَشْر المعرفة، ونَشْر الكِتاب العربي الإسلامي على نطاق واسِع، في وقت كانت فيه الطِّباعة غير معروفة..

هكذا ساهَم الوقف مُساهَمات جَليلة في خِدْمَة المشاريع الخَيْريَّة ذات الطَّابَع الإنساني، وقَدَّم للمسلمين خِدمات عامَّة، ومَوَّل عدَّة أَنْشِطة خَيْريَّة تُفيدهم وتعود بالنَّفْع على جميع طبقات المجتمع، تُخَفِّف من معاناتهم وتُساهِم في إِرْساء الأَمْن والاسْتِقرار، وتَقْوِيَة الرَّوابط بين أفراد المجتمع حتى يكون مجتمعًا مُتَماسِكًا مُتَضامِنًا، وقادِرًا على الوُقوف في وجه الكوارث والأزمات..

وإِنَّنا اليوم بحاجَة ماسَّة لإِحْياء رسالة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي، وإلى تَفْعيل رسالتها واسْتِخدام مداخيلها في تنمية المجتمعات، وأداء وظيفتها السَّامية في تقديم الخِدمات إلى المسلمين، بعد أن تَقلَّص دَوْرُها بسَبب عدَّة عوامل، كان من أهمها: عامِل الاستعمار الذي حاول القضاء على مؤسَّسة الوقف بوسائِل وطُرُق شَتَّى، ثم انْشِغال المسلمين عن تَنْشيط رسالة الوقف العظيمة في خدمة مجتمعاتها..



(27)

الصُّعود إلى القِمَّة

إنَّ الصُّعودَ إلى القِمَّة يُوَرِّط أهلَه الحَيْرَة، ويَرْفعهُم شَبَقُ الطُّموح فيُلْقِي بهم في عَرَصاتِ المَجْدِ ومَشارِب الخُيَلاء والتِّيه، ويُبَلِّغهُم مَنابِر الشُّهْرَة..

وكلَّما ارْتَفَعت مَنْزِلتهم وقَلَّ شُكْرهم للنِّعْمَة السَّابِغَة، نَسُوا ما أُهْدِيَ إليهم من فَضْل، وما أُسْدِل عليهم من مَعْروف، فيَكونُ عِقابهُم من جِنْسِ عمَلهِم السَّيئ، ويُذيقَهُم الواهِب المُتفَضِّل عليهم بإِحْسانِه وعَطائِه لِباسَ الجوع والخَوْف، كما أَخْبرنا الحَقُّ سُبْحانَه في قصص القرآن، يقول تعالى في قصَّة أهل سَبأ :
﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾[1]، ويقول تعالى في قصَّة أهل مكَّة: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[2]..

ولقد تَعَلَّمت مِنْ خلال تَأَمُّلاتي ومُشاهَداتِي أنَّ الصُّعودَ إلى القِمَّة طَريقٌ شاقٌّ طويل، يَحْمِل صاحِبَه على بَذْل ضِعْف طاقَتِه وحَيويَّتِه، فإنَّ للطَّمَع لذَّةً تَسْتَدعي الصَّبرَ على العَذابِ الوارِف والوَجَع العَصِي، فتَعْقِد القلوب آمالَها على ارْتِفاع المَنْزِلة، وتَحُثُّ مَطامِح النَّفس كي تَلوذ بحِياض القوَّة، ولا تنأى عن الانْدِفاع والمُغامَرة والاعْتِداد بالحَوْل والطَّوْل..

وتَعَلَّمت أنَّ الصُّعودَ إلى القِمَّة يُفْسِح لأَهْلِه اسْتِقبال أيَّامهِم بمَوْفور الثِّقَة، وانْشِغال تَفْكيرهِم بالتَّخْطيط لما هو آتٍ مُؤَمَّل، فتَجْتاحهم مُلِمَّات القَضايا وما تَدَّخِرُه المَطامِع، كاجْتِياح العَواصِف الهَوْجاء، وتُدْميهم تَأَوُّهات قلوبهم المَكْلومَة..

ولكن لا تَلْبَث أنْ تَمْتَصَّ نَشْوةُ الصُّعود مَتاعبهم، فتَخْلع عن ذاكرَتهم المُثْقَلَة ما كان يُؤَرِّقُها من الهُموم، وكلَّما بلَغوا مَبْلَغًا عَلِيًّا، أو أَدْرَكوا إِنْجازًا عظيمًا أو نَجاحًا باهِرًا، أو ارْتَقوا مَقامًا مَرْموقًا، تَذَكَّرُوا أنَّ امْتِلاكهم لكلِّ تلك النِّعَم وأَسْباب القوَّة كان بعد ضَعْف وانْهِزام، وأنَّ العِلْم لم يَأْتيهم إلا بعد تَعب وكِفاح، والاسْتِغْنَاء لم يَنْعَموا به إلا بعد احْتِيَاج..

(1) سورة سبأ.

(2) سورة النمل: الآية 112.

فمنهم من دَعاه ذلك إلى الارْتِفاع عن النَّقائِص والتَّنَزُّه عن الصَّغائِر، فيَحْتذون بأَسْلافِهِم في حِرْصِهِم على الشُّكْر المُتَّصِل، والتَّأَدُّب مع المُنْعِم بالعَطاء، ويَتعلَّمون ممَّن أَثْنى الله عليهم دُروسًا في الشُّكْر والرِّضا والاهْتِداء، كما جاء على لسان نبي الله سليمان عليه السَّلام، لمَّا سَخَّر الله له الرِّيح والجِن وعَلَّمَه مَنْطِقَ الطَّيْر والحَيَوان فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿16﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿17﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿18﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿19﴾﴾ (1) . .

ومنهم مَنْ يُمْعِن في الإقْبال على الشَّهَوات والإسْراف في المَلذَّات، فيُصِيبه ما يُصِيب المَحْموم مِنَ الهَذَيان، ولكنْ شَتَّانَ ما بين هَذَيانِ الحمَّى وهَذَيانِ الطَّمَع، وشَتَّانَ ما بين مَنْ يَدْفَعُه الصُّعود إلى القِمَّة إلى طلَبِ المَعالي والاسْتِكْثار مِنَ الفَضائِل والمكارِم، وبين مَنْ يَدْفَعُه الصُّعود إلى أَنْ يكونَ أَكْفَر النَّاس بالنِّعْمَة المُسْداة، وأَجْحَدهُم بالصَّنيعَة المُهْدَاة، وأَنْساهُم للمَعْروف، وأَشَدهم إنْكارًا للحَق وإعْلانًا للباطِل، يَطْلُب الجِدَّ في مَوْطِن الهَزْل، ويَقيسُ الفَضائِل والمَكارِم بمِقْياسِ العَدِّ

(1) سورة النمل.

والحِساب، وما يُقَوَّم بالثَّمَن ويُحَدَّد بالوزْن والمِكْيال، ويَنْشُد الغايات والأَهْداف العَظيمة بالوَسائِل الرَّخِيصَة، التي تُوَرِّثُ أَهْلَها هَدْر الكرامَة والمُروءَة، والإِمْعان في الجُحود والكُفْر.

إنَّها تَجَلِّياتٌ لبعض الصُّوَر الاجْتِماعِيَّة، الغائِرَة في عُمْق الذِّهْنِيَّة المُعاشَة، وتأَمُّلات في أَحْوال أولئك الذين نَشْهَد ظُهورَهم وأُفولَهم مِنْ ذَوي القُوَّة والبَطْش، وأَصْحابِ المَطامِع التي لا تَكَلُّ مِن البَحْث عن المَجْد الذَّاتي، وطَلبِ الزِّيادَة في رِيع الثَّروات، واسْتِغْلال المَناصِب والوَظائِف، والمُتاجَرَة بالضَّمائِر، فيُفِيضون على رُؤوسِ الخَلائِق فَضلاتِهِم المُشْتَهاة في الصَّحْو والمَنام، ويَشْهَقون بِعَذاباتِ البُؤَساء والمَحْرومين، ويَتلذَّذون بمَواقِد آلامِهم ورَماد مَجامِرهم، ومَراسِيم حِدادِهِم ووَحْشَة اغْتِرابهم، ومُعاناتِهم غَيْرِ المُحْتملَة..

وتلك حالُ مَنْ انحرفَت فِطْرتهُم وتلوَّثَت أَفْكارهم فزاغوا عن طَريقِ الهِدايَة، وانْتشَرت فَضائِحهم بين العِباد، وصارَت انْتِهاكاتهم مَبْثوثَة على صَفحاتِ تاريخِهِم القَابِع في الظَّلام، المَشْحونِ بالطُّغْيان والضَّلال والعِصْيان، وكَشْفِ العَوْرات وفَضْحِ الأَعْراض..

وتلك حالُ مَنْ يَرْكضون على أَدِيم الأرض رَكْضَ البَهائِم والدَّواب، ويَعْبُرون على الأَشْلاء ويَسْتَحِمُّون بالدِّماء، قَدْر ما يَرْوي مَطامِعَهم التي لا تَرْتَوي، ولا تَشْبَع مِنْ مَغانمِهِم المُسْتَطابَة، التي تَجاوَزت كُلَّ الْتِزام بالمَبادِئ، واخْتَرقَت

الدَّساتير والقَوانين الإِنْسانِيَّة، واغْتصَبت الحُقوق وانْتهكَت الحُرُمات..

وذلك ليس بالغَريب على أَصْحاب الشَّهَوات المَكْبوتَة والرَّغَبات المُنْحرِفَة، الذين انْسَلَخوا عن فِطْرَتهم السَّليمَة، فانْساقوا خلفَ ما يُؤَدِّي بهم إلى الهَلاك والضَّياع..

ولكنَّ حياةً كهذه الحياةِ المَشْحونَة بالمَظالم تَحْمِل دروسًا، تُظْهِر أَسرارًا خَفِيَّة خلفَ مَساقِط الضَّوء على الوَجْه الإِنْسانِي، تُفَسِّر تلك الأَحْداث التي تُقْبِل وتُدْبِر، وما تَحْمِلُه قِصَص الغابِرين من العِبَر، وتكْشِف عن مَصيرِ أَصْحاب الجاه الرَّفيع والعِزِّ المَنِيع، والسُّلطانِ الواسِع، الذين غَشِيَهم البَطْر والطُّغْيان وعاثوا في الأرضِ فسادًا، فلم يسْتَقِر بهم صُعودهم إلى القِمَّة أَمَدًا بعيدا، فَرُدُّوا إلى حياة كانت عليهم شَرًّا ونَكالاً، واضْطَرَبت الأرض مِنْ تَحْتهم وزُلْزِلوا زِلْزالاً شَديدًا، فأَصْبَحوا على ما فَعَلوا نادِمين..

وقد جاء التَّحذير والنَّذير ممَّا أصاب الأُمم السَّالفة في كثير من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةٗ وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلٗا وَأَوْلَٰدٗا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم

(1) سورة الإسراء: الآية 17.

بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿69﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿70﴾﴾[1]. .

فعلى الإنسان أَنْ يَعْتَبِر بمَصارِع الأُمَم الباغِيَة المُتَجَبِّرَة، في واقِع ما نمُرُّ به من الأَحْداث الجَسيمة والمَواقِف العَصيبَة، وأَنْ نَظْفَر بما يَبْعَث تَغْييرًا وإِصْلاحًا حَقيقيًّا على المُسْتوى الفَرْدي والجَماعي، وأَنْ نَتَعلَّم كيف نَكون قِمَّة حين نَصِل إلى القِمَّة، فنَرْتَقِي بالدِّين والأَخْلَاق، ونَسْمو بالضَّمير الإِنْسانِي عن حُطام الدُّنيا، وأنْ نَسْتَقيم على الطَّاعَة، ونُطَهِّر السَّرائِر ونُخْلِص نِيَّاتنا لله، ولا نَتَّخِذ لغاياتِنا ما يُبَرِّرُها من الوَسائِل الدَّنِيَّة، وأنْ نُفَرِّغ الذَّاكِرَة من مَخْزونِ المَطامِع السَّاقِطَة، والآمال المُعَلَّقة على حِبال مُمَزَّقة، وأَنْ نَكُفَّ عن التعلُّق بالأَهْواء والنَّشْوَة المُغْرِيَة، التي تَعْبَث بعَواطِفنا وتوقِظ الإحْساس بالظَّمأ والعَطش، ونَهم المَلذَّات المَشْبوبَة بالأَطْماع، والتَّوْق إلى السَّمَر الطَّروب على أسِرَّة التَّرف. .

فالنَّجاح الحقيقي ليسَ مَوْقوفًا على الظَّفْر بأَعْلى الدَّرجات، ولا ببُلوغ القِمَم الشَّامِخات والتربُّع على عُروشِها الفَخْمة، ولا باسْتِخدام الأَساليب القَذِرَة والتَّمَلُّق لهؤلاء ولأولئك، ولا بانْتِهاز الفُرَص تِلْوَ الفُرَص لتَحْقيق الغايات الفاسِدَة والأَهْداف المُنْحَطَّة،

(1) سورة التوبة: الآيات 68 ـ 70.

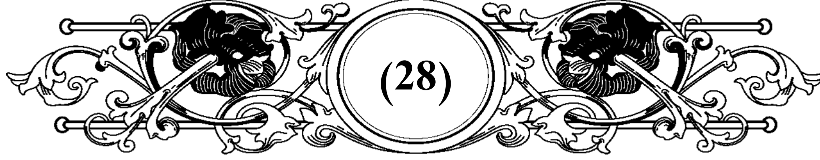
أو لإِشْباع أَطْماع مَنْ لا يَشْبَع، وإِفْعَام جُيوب لا تُفْعَم، على حِساب المُتاجَرة بالضَّمائِر، واسْتِغلال القُلوب النَّقِية والنُّفوس الطَّاهِرَة، والتَّحايُل على البُسَطاء والسُّذج..

بل النَّجاح الحقيقي يَكْمُن في العَمل الجاد، والتَّنَزُّه عن الدَّنِيَّات، وارْتِقاء القِمَم بالطُّرُق المَشْروعَة..

ولا خَيْرَ في حياةٍ ليسَ فيها للدِّينِ مِنْ حِمايَة، ولا للأَخْلاق والقِيَم مِنْ رِعاية، ولا خَيْرَ في حياةٍ ليس فيها للضَّمائِر مِنْ اسْتِقامَة، ولا للمَناصِب والوَظائِف مِنْ شَرفٍ أو كرامَة، ولا خَيْرَ في صُعودٍ يَعْقُبه السُّقوط، والنُّزول مِنَ القِمَّة إلى الهاوِيَة..

ومَهْما اشْتَدَّ سُلْطان الباطِل وارْتفَع، فلا بُدَّ لسُلْطان الحَقِّ والعَدْل أَنْ يَعْلو ويَنْتَصِر، ومَهْما تَقوَّى سُلْطان الجَوْر وتَفاخَم وتَعاظَم فلا بُدَّ له أَنْ يقَع ويَنْدَك..





حياة الغزاة وحياة الفاتحين

إنَّ حياةَ الفاتِحين تَعْتمِد على قُوَّة إرادَة الإنسان البدنيَّة، كما تَعْتمِد على قُوَّة إرادَة الإنسان الروحِيَّة، التي تَتحَكَّم بتَوْجيه العَقْل المُوَلِّد للطَّاقَة الفِكْريَّة، واستِثْمار الخَيال الأَسْمى المُنْتِج لطاقَة الابْتِكار والإبْداع..

وإنَّ حياةَ الفاتِحين تَنْبني على قواعِد الإيمان الصَّادِق، الذي يدْفَعهُم إلى بُلوغ الغايَة الأسْمى في الحياة، ومُجاهدَة النَّفس للفَوْز بالجنَّة في سِباق الطَّاعات، باسْتِنْهاض الهِمَم لصُعودِ مَدارج الصَّفاء والنَّقاء، وتَمْتين أَواصِر المَحبَّة الخالصَة ورَوابِط الأخُوَّة الصَّادِقَة، والحِرْص على هُوِيَّة الانْتِساب إلى الزُّمْرَة الأولى الفائِزَة، التي تَوحَّدت قُلوبها بوَحْدةِ الإيمان وتَدثَّرَت بدِثارِه، فمِنْه تَنْطَلِق إلى القِمَّة وبِهُداه تَسْتَبْصِر وتسْتَرْشِد، كما قال النبي ﷺ: «**لا اخْتِلافَ بينهم ولا تَباغُضَ، قلوبُهم قلبٌ واحدٌ، يُسَبِّحونُ اللهَ بكرةً وعَشِيًّا**»[1].

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (3245)، و(3246)، و(3254)، وأخرجه مسلم في صحيحه (2834).

وإنَّ حياةَ الفاتِحين هي حياةٌ عامِرَة بالصَّفَحات المُشْرِقَة بسيَرتهِم العَطِرة، التي تَلْتفِت نَحْوَها الذَّاكرة لتُسَجِّل تاريخَ حاضرهِم لأَجْيالِ المُسْتقبَل، ولتُسَجِّل تاريخَ انْتِسابهِم إلى الإسلام الذي صَهرهُم في كُتْلة واحِدَة يَضُمُّها الإحْساس الواحِد، والمَبْدأ الواحِد، والقِبْلة الواحِدَة، والمَنْهج الواحِد..

أمَّا حياة الغُزاة فهي حياةٌ مظلمة، تَسيرُ في اتِّجاه نَشْر الهَيْمنَة، والسَّيْطرة بالقُوَّة والقَهْر، والاسْتِناد إلى مَتانة الظَّهْر وشِدَّة العَضَل، وصَلابة اليَد والسَّاعِد في الضَّرْب والبَطْش، وغايتهم أنْ يُحَوِّلوا الأرض إلى مَوْطِئ لأَقْدام الطَّامِعين الطُّغاة، ومَعْقِل للخِصام والنِّصال، ونَشْرِ النِّزاع والشِّقاق..

قد طَلبوا الدُّنْيا بسُلوكِ الطَّريق الأَوْسَع في عالَم مُكْتَظ بالفِتَن، وتاهوا في زَمن أَيْنَعَت فيه رُؤوس الفَساد، واسْتَبدَّت بهم الغَفْلة كما اسْتَبدَّ جَهْلهم بالفِكْر والخَيال، فأَقْبلوا على الدُّنْيا بأَسْباب الغلبَة والظَّفْر، وتَهافتوا عليها وهم يَطْلبون النَّصْر الخَسيس في غَيْرِ ساحاتِ النِّضال، ويَنْشُدون لذَّةً فانِيَة لامْتِلاك فِتْرٍ من تُراب، أو بُقْعَة صغيرة تَمُدُّهم بقُطْب من أَقْطاب الأرض..

ولكن، أنَّى لهم أنْ يكونوا من الفُرْسان والأَبْطال الفاتِحين، وقد طَوتْهُم الدُّنْيا طَيَّ الكِتاب المَنْسِي على رَفٍّ من رُفوف الذَّاكِرَة، المَصْلوبَة على حافَةِ الانْكِسار وجدار الصَّمْت!!

وأنَّى لخامِلي الذِّكْر والأَثَر أنْ تَسْري إليهم صَحْوة الضَّمير ويَقظة العَقْل المُنْتِج، وهم يُمْسِكون بأَيْديهم مَفاتيح العَذاب،

ويُنْذِرون بالوَعيد والشَّقاء والفَناء، وأَعْمالهُم وأَقْوالهُم لا تُبَشِّر بالخَيْر أو السَّعادَة والبَقاء !!



1 ـ مَكْمَن القوَّة والسُّؤْدُد

إنَّ الإسلام هو مَصْدر قُوَّة أبناء الأمَّة، به تُحارِب وبه تَنْتَصِر، وبه تُدافِع عن مُقَوِّماتها المادِّية والمَعْنويَّة، وبه تَتغَلَّب على الأَعْداء وتَقْهَر المُتَربِّصين بها..

لهذا أَلَّف أبو الحسن علي الندوي تـ 1420هـ كتابه: «كيف يستعيد العرب مكانتهم اللَّائقة بهم؟ وكيف يحافظون عليها؟»، وهو امْتِداد للفَصْل الأخير من كتابه الذي أَلَّفه في مرحلة مُتَقدِّمَة وهو: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، وقد اسْتَرْعى انْتِباه المَعْنيين بقَضِيَّة العالم العربي ومَصيرِه ومُسْتَقبلِه، واهْتَمَّ فيه بتَصْحيح نَظْرة المسلم إلى العالم العربي، ونَبَّه إلى ذلك فقال: «لأنَّه قَلْب العالم الإسلامي النَّابِض يتَّجِه إليه روحِيًّا ودينِيًّا، ويَدينُ بحُبِّه ووَلائِه... لأنَّ فيه الأَيْدي العامِلَة، والعُقول المُفكِّرَة، والأَجْسام المُقاتِلَة، والأَسْواق التِّجارية، والأراضي الزِّراعية.. ولأنَّه محَطُّ أَنْظار الغَرْبيين ومُلْتقى مَطامعهِم، ومَيْدان تَنافُس لقِيادتهِم..»[1]..

(1) كيف يستعيد العرب مكانتهم اللَّائقة بهم؟ وكيف يحافظون عليها؟/أبو الحسن علي الندوي ـ دار عرفات للتربية والنشر ـ ط. الأولى 1411هـ =

ونظَرًا لأنَّ هذه الأَهمِّية تَسْتمِدُّ قُوَّتها من اعْتِبار النبي محمد ﷺ هو روحُ العالَم العَربي: «فعَلى المسلم أن يَنْظُر إلى العالَم العَربي بغَيْرِ العَيْن التي يَنْظُر بها الأوروبي، وبغَيْرِ العَيْن التي يَنْظُر بها الوطَني العَربي، إنَّه يَنْظُر إليه كمَهْد الإسلام، ومَشْرِق نورِه، ومَعْقِل الإنْسانِيَّة، ومَوْضِع القيادَة العالمِيَّة، ويَعْتقِد أنَّ سيِّدنا محمدا العَربي هو روحُ العالَم العَربي، وأَساسُه وعُنْوان مَجْدِه، وأنَّ العالَم العَربي ـ بما فيه من مَوارِد الثَّروة والقُوَّة، وبما فيه من خَيْرات وحسَنات ـ جِسْمٌ بلا روح، وخَطٌّ بلا وُضوح، إذا انْفَصل ـ لا سمح الله بذلك ـ عن سيِّدنا رسول الله ﷺ، وقَطْع صِلَتِه عن تَعاليمِه ودينِه»[1]..

ولأنَّه ﷺ هو الذي أَبْرَز العالَم العَربي للوجود، بعد أنْ كان عِبارَةً عن وحَدات مُفَكَّكَة، وقبائل مُتَناحِرَة وشُعوبًا مُسْتَعْبدَة، ومَواهِب ضائِعَة، وبلادًا تَتسَكَّع في الجَهْل والضَّلالات، فما لَبِث هذا العالم المُفَكَّك المُنْحَل والمَظْلوم المُضْطهَد، أنْ هَبَّت عليه نَفْحَة من نَفَحات الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، فأَدْركَه وهو ضائِعٌ هالِك، وأَخَذ بيَدِه وهو ساقِطٌ مُتَهالِك فأَحْياه بإِذْن الله، وجَعَل له نورًا يَمْشي به في النَّاس، وعَلَّمه الكِتاب والحِكْمَة وزَكَّاه، فكان هذا العالم بعد البِعْثَة المُحَمَّدية سَفيرَ الإسلام، ورَسول الأَمْن والسَّلام، ورائِد العِلْم

= ـ 1990م ـ المطبعة الندوية، مؤسسة الصحافة والنشر، ندوة العلماء لكهنو (الهند): ص 9 (بتصرف بسيط).

(1) المصدر نفسه: ص 9 ـ 10.

والحِكْمَة، ومِشْعَل الثَّقافَة والحَضارة..[1].

وإنَّ مَكْمَن القوَّة والسُّؤْدُد أنْ يَسْتَغْني الإنسان بفِكْره المُنْتِج وخَيالِه المُبْدِع، ويَرْتاد رِياضَ المَعارِف ويَرْتوي من يَنابيع الإيمان، فيَتحَرَّر من قُيود الأموال والثَّروات وحُبِّ السُّلطان والجاه، حتى يظَلَّ في حِرْزٍ من جَبروتِ المُفْسِدين وطُغْيان المُتْرَفين، ويَصون نَفْسَه من أَخْلاط الشَّوائِب المُغْرِيَة والمُرْدِيَة، ويَحْميها ممَّا يوهِمُها بالاسْتِغْناء عن كِفايَة الله ورِعايَتِه، إذْعانًا للحُكْم الإلهي والمُشَرِّع العادِل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[2]..

فقِلَّة المال مع وَفْرَة العِلْم واتِّساع المَعْرفة غَنيمةٌ وسَعادة، وكثْرَة المال مع قِلَّة العِلْم شَقاءٌ وخُسْران، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الغِنى عن كثرةِ العرَض، ولكن الغِنى غِنى النَّفس**»[3].

فالنَّفس الكريمة تَسْمو بصاحِبها عن سَفاسِف الأُمور وأَوْشالِ الحُظوظ، وأَخَسِّ الرَّغَبات وأَصاغِر الحاجات، وتَنْأى عن النَّقيصَة الدَّنِيَّة في الدِّين والدُّنْيا، وتتَجنَّب الخَصْلَة المَذْمُومَة والخُلُق السيِّء..

والنَّفس الكريمة تَضيقُ بالعالَم المادِّي وتَكْتفي بعالمِها

(1) المصدر نفسه: ص 10 ـ 11.
(2) سورة العلق.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه (6446)، وأخرجه مسلم في صحيحه (1051)...

الفَسيح، تَزْرعه بالطيِّبات وتَحْصُد سَنابِل الخَيْرات، وتَتلذَّذ برُطَبِ أَعْمالها الصَّالحات وأَعْذاقِ الطَّاعات، وتَرومُ إلى مَرام الصَّالحين من عِبادِه المؤمنين الأَتْقِياء، فتُقْبِل على الله كإِقْبالهم عليه بحُبٍّ وإِخْلاص، وتَتحَلَّل ممَّا تحَلَّلوا منه من الذُّنوب والخطايا والآثام، وتَتطهَّر ممَّا يَتطهَّرون منه من الضَّغائِن والأَحْقاد وسائر الأَسْقام..

فتَسوق النَّاس سوْقًا حَثيثًا إلى مَنابرِ النُّور، ولا تُساق إلى حيث تَتعَثَّر في مَواطِئِ الزَّلات، ولا تَغْرق مع مَنْ غَرقوا في بُحور الانْدِحار والانْسِحاق، فقد مَلكوا الدُّنْيا ولم تَمْلِكهُم وطَوَوْا النِّعَم بين حَناياهم ولم تَطْويهِم بين قُطْرَيها..



2 ـ مَكْمَن الضَّعْف والانْكِسار

إنَّ مَكْمَن الضَّعْف والانْكِسار أنْ يَسْتَغْني العَبْد المَمْلوك عن سيِّده المالِك الحَق سُبْحانه، فيَتوهَّم أنَّه المُتَفَرِّد بالسُّلْطان والجاه، والمُسْتَحْوذ على الثَّرْوَة والمال، وصاحِبُ المَكارِم والكَرامات، ومانِحُ العَطايا المُتَفَضِّل بالنِّعَم والهِبات، ويَتوهَّم أنَّ الحقَّ سَفَهاً وجَهْلاً، والجَهْلَ حَقًّا يُتَّبع، حتى يظُنَّ أنَّه قد بلغَ قمَّة القُدْرَة، وأنَّ كلَّ شَيْء طَوْع يَمينِه، ويَسيرُ بمَشيئتِه وإرادَتِه..

والاسْتِغْناء لا يكون إلا بالحَق، به يَكْشِف حَقيقة القوَّة

بالعَدْل والإنْصاف، وحَقيقة الإذْعان للمالِك سُبْحانه، وحَقيقة الافْتِقار إلى رَحْمَتِه..

قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿13﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿14﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿15﴾﴾(1)..

والاسْتِغْناء بالله يهَب العَبْد المؤمن قوَّةً يَشِعُّ نورُها إيمانًا ويَقينًا، فلا يُثْنيه عن تَحْقيق غاياته ما يُثْني سِواه ممَّن اسْتَغنوا بأَنْفسهِم، واغْتَرُّوا بقُدُراتهِم ومَلكاتهِم، واتَّكَلوا على سَواعدهِم لا على قُدْرَة الله ومَشيئتِه..

أما الاسْتِغْناء بالباطِل فيهَب العَبْد قوَّةً بالجَهْل والضَّلال، تُغْرِقه في ظُلُماتٍ بعضُها فوقَ بعض، كما أَخْبرنا جَلَّ وعَلا فقال: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿40﴾﴾(2)..

وهي قوَّةٌ غاشِمَة لها في كلِّ مَعْقِلٍ للشِّقاق والنِّزاع صَولاتٌ وجَولات، وهي تَغْزو العُقولَ فتُفْسِدُها، وتَغْزو القُلوبَ فَتُفَرِّقُها

(1) سورة فاطر.
(2) سورة النور.

إلى مَذاهِبَ شَتَّى، قد هانَت كرامَتهُم فهانوا، ولانَت شَكيمَتهُم فانْكسَروا، وفَتَرت هِمَّتهُم فانْهَزَموا، وقَلَّ زادُ إيمانهِم فجاعوا وعطشوا..

وهذا مَصيرُ مَنْ يَتحوَّل سِباقُه في الدُّنيا إلى سِباق القوَّة بالباطِل، وسِباق المَطامِع الذَّاتية والمَصالح المادِّية..

وهذا مَصيرُ مَنْ يَصِل إلى مَرْحلة من السِّباق، تَبْرُد في صُلْبِه جَذْوَةُ الحياة الكريمة، فلا يَتبقَّى من تاريخِه إلا فُصول حَيِيَّة يُخْفيها في أَدْراجِ ذاكرتِه المُظْلمة..



3 ـ طَريقُ الفاتحين مَحْفوفٌ بالمَخاطِر والمَشاق

لم تَقُم دَعْوَة رسول الله ﷺ على الدَّعَة والرَّاحَة، بل قامَت على الكَفاف والقَناعَة، والإيثار والتَّضْحِيَة، وقَهْر الشَّهَوات والحَدِّ من الطُّموح الزَّائِد، والزُّهْد في التَّرفِ الباذِخ..

ولو نَظَرْنا إلى تلك الصَّفَحات المُشْرِقَة من سيرة النبي ﷺ العَطِرة، سَنُدْرِك كيف سَلك طَريق المَشقَّة الطَّويل، وكيف خاضَ مُعْتَرك الشِّدة والامْتِحان العَسير، «وهل دخلَ عليه السَّلام أَمْرُه إلا من الباب الضَّيق والطَّريق الأَطْوَل؟!!»، يومَ صدَع باسْم الخَلَّاق الرزَّاق في مَكَّة، والشِّرْك بها ظاهِر، والمُنْكر غالِب، وبين قَوْم يبسَت نفوسهُم على التقرُّب بالنُّحور إلى خشُب مُسَنَّدَة وأصنام، وتحجَّرت قلوبهُم في عِبادَة نصُبٍ وأَحْجار.. وهل تَراهُ

دخَل أَمْرُه من الباب الواسِع؟!!، صَنع مَنْ تَعْرِف من العُظَماء يومَ قالَها في مُضَر، وهم في العَرب أَهْل البَغْي، وأَقْطَعهُم للقُرْبى والأَرْحام، وحين برَز لها وقد ائْتَمَر به أشرافُ المال، وأَمْجادُ الأَحْساب، وأَغْرَى به الشُّعَراء، وألَّب عليه الأَحْداث والسُّفَهاء، وما هو منهم ـ لولا حياطَة ربِّه ـ في جوار ولا منعَة، ولا له في شُعَبِها من الأَنْصار غير من ضعفوا من قِلَّة، أو اسْتُضْعِفوا من عيلَة، أو ذلُّوا من فِتْنَة.. ولو أنَّ نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ولَجَ المَيْدان من بابِه الواسِع المَطْروق، فاسْتَأْنى دَعْوتَه حتى تُأَزَّر بقُوَّة السَّيْف، وتُعَضَّد بسُلْطان المال، وتَعَزَّز بعَدد الأَتْباع والأَنْصار، ما كان لقِصَّة سيرتِه هذا الإِشْعاع الذي أخذَت كلَّ مُزْهِر ومُتَلألِئ في سِيَر العَباقِرَة والعُظَماء»[1]..

وكذلك شَأْنُ كلِّ مَيْدانٍ من مَيادين الحياة، الذي تَخوضُ النَّفس غِمارَه وهي حامِلَة هِمَّتها الشَّديدة وعَزيمتها القَوِيَّة، واسْتِعدادَها لسُلوكِ طَريقَيْن وسَبيلَيْن مُتبايِنَيْن، وَوُلوج بابَيْن مُخْتَلفين..

فإمَّا أنْ تَخْتار البابَ الواسِع المَسالِك، الفَسيح الجنَبات، المُعَبَّد المُنْعَرجات، الآمِن من الشُّرور والأَهْوال: «ولكنَّه بابٌ لا ينفُذُ بمَداخِلِه لغَيْرِ مُسْتَنْقَع اللَّذة وبُؤْرَة الضَّعة والهَوان»[2]..

(1) من مقال: الباب الضيق لابن اكتم ـ في مجلة رسالة المغرب ـ العدد الرابع، السنة السادسة، محرم 1367هـ موافق دجنبر 1947م: ص 209 ـ 210.

(2) من مقال: الباب الضيق لابن اكتم: ص 210.

أو أنْ تَخْتار البابَ الضَّيق: «وهو مَدْخَل العُذْريين، أولئك الذين اسْتَغْرقَتْهُم قَداسَةُ ما يَجِدون، فعَفُّوا عن المُتْعَة، وتحَرَّجوا عن النَّظْرَة، ورَأَوْا كلَّ نَعيم إِنْساني فيه سَقْطَة، بينما الهَوى مُسْتَحْكَم، وغَلباتُ الاشْتِياقِ مُحَرِّكة، والخِلُّ مَوات.. ولكنَّهم إذا حُرِموا في الحُبِّ بدُخولهِم من هذا الباب كَأْسَ لذَّةٍ عابِرَة، ومُتْعةٍ لحظَةٍ زائِلَة، فقد قادَهُم إلى يَنْبوعِ جَمالِه، واسْتَأْثَروا بالرَّشَفاتِ الدَّائِمَة من مَعينِ سُمُوِّه وكَوْثَرِ قَداسَتِه»(1).

وكذلك الشَّأْن في مَيْدان الدَّعوة، فلم تَبْلُغ دَعْوةٌ من الدَّعَوات ما بَلغَتْه دَعْوتُه ﷺ في الرَّوْعَة والجَلال، فقد أَخْرجَت للدُّنْيا أُمَّةً قويَّة، تحَمَّلت المَصاعِب والمَتاعِب في سَبيلِ الدَّعوة المُسْتَنيرة وخِدْمَة الدِّين، وفي سَبيلِ نَشْر العُلوم والمَعارف، وإِرْساء قَواعِد الفِكْر والثَّقافة المُلْتزِمَة، وتَقْوية الشَّخْصية الإِسْلامِيَّة عن طريق التفقُّه في الدِّين، وامْتِلاك عُلوم الدُّنْيا والدِّين..



4 ـ الصِّراع بين الغُزاة والفاتِحين

إنَّ الصِّراع بين الكُفْر والإيمان، والحَق والباطِل، والعَدْل والجَوْر، والغَزْو والفَتْح، صِراعٌ قَديم وطَويل، كطولِ ذاك

(1) من مقال: الباب الضيق لابن اكتم ـ في مجلة رسالة المغرب: ص 210 ـ 211.

الطَّريق الشَّاق الذي سَلكَه الدُّعاة لإِسْعاد الإِنْسانِيَّة، إلا أنَّ البَوْن بينهما شاسِعًا..

فشَتَّان بين مَنْ آثَروا رَغْد العَيْش والحياة الهَنيئَة على حياةِ المَضايِق والشَّدائد والمَصاعِب، فيَبْخَلون بأَقلِّ الزَّاد ولا يَرْغَبون لا بأَنْفُسهِم ولا بالمال، ولا يَتعرَّضون للمَخاطِر ولا المَهالك، ولا يَتقاسَمون مع غَيْرهِم حُظوظهم في التنعُّم والتمَتُّع..

وبين مَنْ يَتْعَبون ويَكْدَحون، ويُضَحُّون بالغالي والنَّفيس، ويُجاهِدون بالنَّفْس والمال والسَّاعِد، ويَنْزِلون لساحاتِ النِّضال، ويُصارِعون الخُطوبَ والأَرْزاء، ويَرُدُّون شَكيمة الأَعْداء عن أَرْضهِم وأَوْطانهِم، ولا يَتوقَّفون عن نضالهِم وكفاحهِم حتى يُحَقِّقوا النَّصْر، والفَتْح والتَّمكين للدِّين، وإِرْساء كلمة الحَق ونَشْر التَّغْيير، حتى يَسْعد العالم ويَسْتقيم حالُ البشَريَّة..

ولو سَلك الجميع مَسْلكًا وسَطًا، وصَحَّ عَملهم وسَعْيهم وقَصْدهم، واكْتمَلَت أَفْكارهم، واسْتقامَت مَناهِجهم ومَذاهِبهم، لأَمْكَنهم التَّغَلب على مَشاكلهِم كلِّها أو أَغْلبها، بواسِطَة مَعْرفة مَبْدئِها وخَبرِها ومَكْمن حَلِّها..

فلا فضْل لأحَد ولا مَزِيَّة إلا لمَنْ وافَق أُصولَ الشَّريعة الواضِحَة، ولم يُخِل برُكْنٍ من أَرْكانها الثَّابتَة، ولا تَقدُّم ولا رِيادَة إلا لمَنْ سَعى لنَفْع العِباد، وتَحرَّى حِفْظ مَصالحهِم ودَرْء المفاسِد عنهم، ودَفْع المَضار عن ساحَتهِم..

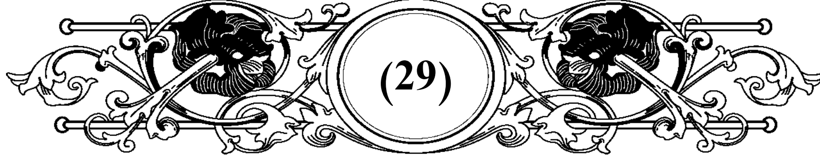
وترسيخًا لهذه المعانى العظيمة، نبَّه الشيخ المحدِّث الرَّحالي الفاروقي المغربي تـ 1405هـ، في مقاله: «محافظون

ومجددون» إلى إثارَة الدَّعوة المُسْتَنيرة، والعمَل على إثْباتِ الحَقِّ في مَوْطنِه، وإقْرارِ سُلْطَتِه وتَنْفيذِ خُطَّتِه بقُوَّة المَنْطِق ونُفوذِ الحُجَّة، مع اعْتِبار البَيِّئات والنَّظريات، ورَدِّ الشُّبهات والمُغالطات، إخْلاصًا للحَق وجِهادًا في سَبيله، فقال: «إنَّ دَعْوة الحَق هي دَعْوة الإسلام التي أَخْرجت الناس من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الجَهالات إلى العِلْم، ومن الباطِل إلى الحَق، ومن الفَوْضى إلى النِّظام، وهي التي هاجَر محمد صلوات الله عليه وسلامه من أَجْلِها، وجعَل المدينة مَرْكزًا لنَشْرها، وهي التي تُبْني على اليَقين والعمَل عَقائِدُها، وتَمْتاز بالبساطَة حَقائِقُها، وبمُوافقَة الفِطْرة أوضاعها، وبَرْفع الحرَج والمشقَّة تكاليفها، ومن دانَ بها تمَسَّك بالسَّبب الأَقْوى، وأَخذ بالعُرْوة الوُثْقى، وتقدَّم حِسًّا ومعنى، والكتاب النَّاطِق بالحَق والسُّنة المبينة للحَق، هما مُعْتمَد هذه الدَّعوة، ومُسْتندها الصَّحيح، وباعْتِمادهما تَطيبُ الحياة وتَسْعد الشُّعوب، وتَرْقى إلى المقام اللَّائق، وتسير إلى الذِّروة والسَّنام، وهذان الأصلان هما قِوامُ الدُّنْيا والدِّين وأَصْل حياة المسلمين، ففيهما النَّجاء من كل مشكلة، والمَلْجَأ من كل مُعْضِل، والله يقول الحق وهو يهدي السَّبيل»[1].

فهذه الدَّعوة هي دَعْوة الفاتِحين، الذين تُدَوِّي أَصْواتهم بصَوْت الحَق، ويَظْهرون في المَيْدان للتَّعْريف بمَذاهِبه، ونَشْره بين أَهاليهِم وعَرْضِه على إِخْوانهِم وذَويهم، يَبْتغون صالِحَ بلادهِم وإِرْضاءَ خالقهِم..

---

(1) مجلة دعوة الحق: العدد الثاني (1376هـ ـ 1957م): ص9.



(29)

الطريق الضيق

إننَّا نعيش في عَصْر سطَت عليه المطامِع والمصالح المادِّية، فانحَطَّت القِيم الأَخْلاقِيَّة وانْهَدَّت الدَّعائم الروحِيَّة، فقَلَّ المُحافِظون على حُدود الله، الرَّاشِدون في مُراعاةِ الأَحْوال القائِمَة والظُّروف الجارِيَة، وتَكاثَر المُدَّعون للالْتِزام والتديُّن الصَّحيح، وهم مِنْ دُعاة الباطِل الصَّريح، المُسْرِفون في التعصُّبِ الجامِح، والمُتَطَرِّفون المُتَشَدِّدون بالغَ التطَرُّف..

وتَكاثَر أولئك الذين قصرت هِمَّتهم عن طَلبِ الغايات العظيمة، وانْشَغلوا عن إِثْباتِ الحَقِّ في مَوْطِن جَلالِه وإِشْراقه، وتَخَلَّوا عن التمَسُّك بمُسْتَندِهم الصَّحيح، فتَجرَّعوا مَرارة الحياة ووَقعوا في شَركِ الحَرج والضِّيق..

وكيف تَطيبُ الحياة لأبناء هذه الأمَّة، وقد شاهَدوا بأَعْيُنِ الحَقيقة انْتِسافَ أَحْلامِهِم ومَطامِحهم بعد انْحِطاط قِيَمِهِم المَعْنَوِيَّة إلى أَسْفل السَّافلين..؟!

وكيف يَتنعَّمون بلذَّة العَيْش الرَّغْد الهَنِيء، وقد خَلعوا أَيْديهم

عن تلك الدَّعوة الخالِدَة، ورَفَعوا أمامهم فَوارِق الحسَب والنَّسَب، وتَفاخَروا بالسُّلْطان والجاه، والوَفْرة في المال والولد..؟!

قد نَسُوا أو تَناسَوْا أنَّ تلك الدَّعوة الخالدة، هي التي بعثَت كَوامِن العَظمة في أَبْناء سَلفِ الأمَّة وأَتْباعهِم، وهي التي أَلْبَسَتْهُم لِباسَ المَناعة والحَصانة، وأَوْثقَت رِباطَهُم وشَدَّت ساعِد قوَّتهِم، فانْمَحى من قلوبهم الشُّعور بالهَوان والضَّعف، وخارَت عَصبِيَّتهم العَمْياء فكَسروا أَعْلام الباطِل والاسْتِبداد، ورَفعوا أَعْلام الحَقِّ والعَدْل والإِنْصاف..

فعلى أَبْناء هذه الأمَّة أنْ يُخْلِصوا لرسالتهِم النَّبيلة، وأنْ يَنْهضوا بالواجِب المَنوطِ بهم، ويَخْرجوا من عُزْلتهِم واغْتِرابهم، ويُقْبِلوا على مَيْدان العمَل، ويُقَوِّموا الاعْوِجاج والفَساد من الدَّاخِل، لأنَّه أَصْل الدَّاء ومَيْدان التَّأْسيس والبِناء، وأنْ يَسْعوا لتَخْريج الأَجْيال الصَّالحة للتَّرَقي والتَّمَدن، ويَأْخُذوا بأَسْباب النِّظام ويَنْهضوا بالأَعْمال الجَليلة، التي تَسْتحِقُّ أنْ يكونَ لها الظُّهور الأَقْوى والامْتِداد الواسِع والإِشْعاع الباهِر، وأنْ يَسيروا برَكْب الأمَّة إلى الذِّرْوة والسَّنام في مُخْتلف مجالاتِ الحياة..



1 ـ طريق الهِداية تَحفُّه الشَّدائد والمِحَن:

إنَّ طريق الهِدايَة ليس بالطَّريق الفَسيح المُعَبَّد لكلِّ سالِك، ولا بالطَّريق المَفْروشِ بالورود واللَّآلئ، التي تلْتَقِطُها الأكُفُّ

المُنَعَّمة بحَياةِ الانْبِساط والرَّاحَة، بل هو طَريقُ المَشقَّة ومُعْتَرَك الشِّدة..

فهو طَريقُ الكِفاح والنِّضال الذي لا يخوضُه إلا أَرْباب الهِمَم العالِيَة، والسَّواعِد الشَّديدة التي لا تَنْكسِر أمام الخُطوب..

وهو طَريقُ الفُرْسان الأَشِدَّاء مَنْ مَلَكوا زِمامَ الإرادَة الصَّلْبَة، فعَقَدوا ميثاقَ الصِّدْق والإِخْلاص على إِمْضاءِ عَهْد الوَفاء للحَقِّ والواجِب، والنُّهوض بما تَقْصُر عن النُّهوض به الهِمَم الخائِرَة الضَّعيفَة، والتَّصَدي لما تَرْكَن إليه الأَهْواء الطَّائِشَة، وتَغْترُّ به النُّفوس الطَّامِعَة فيما لا يُشْبِع بَطْنًا واحِدَة..

فغاياتهم أَكْبَر من العَمل للحَياة الفانِيَة، وأَسْمى من الانْجِذاب إلى ما تَهْواه النَّفس وتَعْشقُه، ولا الرَّكْض خلفَ مَنْ يَرْكُضون ليُدْرِكوا تلك الحَركة الكَوْنيَّة التي لا تَنْقطِع، ولا المَيْل إلى الرَّاحَة والكسَل، والإِفْراط في النَّوْم والأَكْل والشُّرْب، والاسْتِمْتاع كما يَسْتمتِع الدَّواب والهَوام..

ولأنَّ غايتهم الاحْتِكام إلى اقْتِضاء الصِّراط المُسْتقيم والإِذْعان للأَمْر الإلهي، وقد لبُّوا نِداءَ التَّكبير وتَحَلَّلوا من مُتَعَلَّقات القلوب العَليلة، وتَذَوَّقوا لذائِذ القُرْب والطَّاعة، فأَقْبلوا على الله بأَشْواقِ القُرْب والإخلاصِ في العِبادة، مُعْتَزِّين بصَنيعِهم للآخرة ومُرْتَقى طُموحِهم أنْ يَنْعَموا بالثَّوابِ الأَوْفى ونَعيمِ

الجنَّة، وحالهُم كما وَصفهُم الحَقُّ سُبْحانَه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[1]..

أمَّا طريق المَلذَّات والشَّهوات فهو رَحيبٌ فَسيحُ الجنَبات، مَفْروشٌ بالوُرود ومُمْتَلئ بالجَداول والأَنْهار، تَتيه فيه النُّفوس الضَّعيفة حتى تَثْمَل من سَكراتِها، بقَدْرِ ما يُرْضي أَمْزِجَتها السَّاقِطَة، وبقَدْر ما يَرْوي أَرْواحَها المُتَعطِّشة الوالِهَة..

وهو طريق المُثَبِّطين والمُتَقاعِسين، الخامِلين في عالَم الرُّكود والجُمود، حيث تَقْبَع الأَجْسادُ في زاوِيَة الظِّل، بقُلوب وَجِلَة من المآلِ والخاتِمَة، وحَياتهم خالِيَة من كلِّ هَدفٍ نبيل يُغَيِّر مَجْرى خَطِّهم الثَّابِت..

إلا أنَّ هذا الطَّريق على رَحابَته واتِّساعِه، تزَلُّ فيه أَقْدام مَنْ لا يَعِفُّون أَنْفسهُم عن الرَّذائِل، ولا يَتحَرَّجون من نَظراتٍ تُحَرِّك فيهم لَواعِج الاشْتِياق، لكلِّ مَنْهيٍّ عنه أو مَكْروهٍ أو مُحَرَّم، ولا يَمْتنِعون عن الانْجِذاب إلى كلِّ هوى مُسْتَحكم، والتَّلَذذ بكلِّ شَهْوة تَخْلُف الحَسْرة والنَّدامَة..

فالنُّفوس الضَّعيفة لا يَزيدُها الطَّمَع إلا جَشَعًا، ومُنْتَهى أَحْلامها أنْ تظلَّ في سِياحَة واسْتِجمام، تُحَلِّق ما شاءَ لها التَّحْليق بلا قُيود ولا حُدود، وطُموحها أنْ تُدْرِك ما يُشْبع النَّهَم والاشْتِهاء، وما يُغْدق على أَرْواحِها من المُتَع والرَّغائِب، في لحَظات الصَّفْو ومَجالس الأُنْس غَيْرِ المُباح..

---

(1) سورة السجدة: الآية 16.

ولكنَّه شَبعٌ يَعْقُبه الجوع، ورَواءٌ يَعْقُبه العَطش، وطَمعٌ يَتحوَّل إلى إِدْمانِ الطَّلَب دونَ انْتِهاء، والإِفْراط في الاشْتِهاء الزَّائِد عن حَدِّ الاحْتِياج، وعدم الاكْتِفاء بما يَتوفَّر للنَّفس من أَسْباب الرَّاحة، وما يُهْدَى إليها من النِّعَم المُباحَة الحَلال..



2 ـ الاخْتِيار الصَّعْب:

لأنَّ طريقَ الهِداية يولَج بابُه من شِقِّه الضَّيق، وطريق الضَّلال والانْحِراف يولَج بابُه من شِقِّه الواسِع المَطْروق، كان الاخْتِيار بينهما صَعْبًا عسيرًا، إلا أنَّنا لو تتبَّعْنا سيرة نبيِّنا محمَّد ﷺ سنُدْرِك أنَّه ولجَ مَيْدانَ الضّيق، ليَنْتَقِل إلى مَيْدان السِّعَة ورَحابَة العَيْش..

ولو كان نبينا محمد ﷺ اخْتارَ طَريقًا غَيْرَ الطَّريق الذي اخْتارَه الله له، ما كان لدَعْوتِه ورِسالَتِه أن يكونَ لها كلُّ هذا التَّمْكين، وقد نشَأت في مُعْتَرك الشِّدة والامْتِحان العَسير، وما كان لخِطابه كلُّ هذا التَّأثير في صِناعَة التَّغْيير والإِصْلاح، وما كان لسيرَتِه كلُّ هذا الإِشْعاع المُمْتَد عبر العُصور والأَجْيال..

وهذا الاخْتِيار الصَّعْب يَجْعلُنا نُدْرِك أنَّنا علينا أنْ نَسْلُك الطَّريق الضَّيق، لأنَّه الموصِل إلى التَّعَقُّل والتَّفْكير المُتَمرِّس، والمُشاهَدة والتأمُّل للاعْتِبار واكْتِساب الحِكْمَة، والتَّحْقيق لبُلوغ اليَقين ودَفْعِ الشُّكوك والشُّبَه..

ولأنَّه الطَّريق الذي يوقِدُ فينا روحَ المُبادَرة والمُنافسَة والثَّوْرَة العَملِيَّة، ويُحَرِّك فينا شُعْلَة الجِدِّ والنَّشاط والمُثابرَة، ويهَبُنا الاسْتِعداد العَملي لإعْداد الأَسْباب، المُمَهِّدَة لبُلوغ الغايات السَّامِيَة والأَهْداف العَظيمة، بقُوَّة الإرادَة وعُلوِّ الهِمَّة ومَضاءِ العَزيمة..

ولأنَّه الطَّريق الذي يوقِدُ فينا شُعْلَة التَّحَدي والصُّمود، التي تَظْهر بعد أنْ نَتَعلَّم دُروسًا في مُمارسَة الإيمان والتحَرُّك بالعِلْم، والإِشْراق بنور البَصيرة التي تَفْتَح أمامنا أَنْفاق الطَّريق الضَّيق، وتُزيح أَسْتار الغُيوم المُلبَّدة، وتَفُكُّ أَقْفال الأبواب الشَّديدة..

ولأنَّه الطَّريق الذي يَغْرِس فينا روح الإنسان الجَديد على نَفْسِه وعلى مَنْ حَوْله، المُخْتَلِف في كلِّ شَيْء بقِواه المُهَذَّبة، التي تَجْعَل كلمَته نافِذَة ومَسْموعَة..

ولأنَّه الطَّريق الذي يُنْشِئ فينا الذَّوْق وحُسْنَ الفَهْم، ويَجْعَلُنا نَشْعُر بعظَمة غاياتِ وُجودِنا، ويَضع بين أيدينا من التَّجارب ما تَكْفُل لهذه الجَوارِح أنْ تَعْمَل وَفْقَ ما خُلِقَت له، وأنْ تَخْضَع لنِظام يَجْمَع ما بين العَقْل والحِس والوِجْدان، وما بين الرُّوح والمادَّة، وما بين الدِّين والعِلْم والعمَل، ويَضع التَّفكير والعاطِفَة في الميزان، فيَعْملان معًا على مَدارِ التَّمييز والاخْتِيار، والنَّقْد لأَقْوالنا وأَفْعالنا لتَقْويم السُّلوك، والخُروج من الطَّريق الضَّيق إلى الطَّريق الواسِع الرَّحيب.



3 ـ مَشارِق الأنْوار من سيرَة نبينا محمد ﷺ:

لو تتبَّعنا تلك الصَّفَحات المُشْرقة من سيرة نبينا محمد ﷺ، سنَجِد أنَّه وَلَج من الباب الضَّيق، إلا أنَّ الحَقَّ سُبْحانَه قد أَحاطَه بعِنايَتِه ورِعايَتِه، فكانت تَنْزِل عليه الآيات لتُذَكِّره بالثَّبات على الدِّين والاسْتِقامة، والصَّبْر على الأذى وتَحمُّل الشَّدائد، واقْتِفاء أَثَر أولي العَزْم من الرُّسل، الذين انْقادوا إلى أَمْر اللَّه وطاعَتِه، وتَقلَّدوا عِبْءَ الرِّسالَة والدَّعْوة، وتَحمَّلوا في سَبيلِها المَشاقَّ والمَكارِه، قال تعالى :﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(1)..

ولو نَظَرْنا إلى أَحْوالِ النبي ﷺ وسيرَتِه حتى بلَغ الأَرْبعين من حياته، سنُدْرِك كيف يَصْنع الإيمان رَجُل الرِّسالَة والدَّعْوة، وكيف يَصْنع الطَّريق الضَّيق رسالَةً خالِدَة، وهو الذي لم يَكُنْ إلا رَجُلاً من عامَّة رِجال العَرب وتُجَّارِهِم، فلم يَجِد أمامَه الطَّريق مُزْهِرًا، ولا تَوفَّرت له أَسْباب الخَطابة، ليُغْري مَنْ حَوْلَه بنَصاعَةِ بَيانِه وقُوَّةِ كلامِه، ولا رُزِق أَسْباب العِلْم والمَعْرفة لتَجْري الحِكْمَة على لسانِه، ولا كان من أَهْل التَّخَصُّص والإِتْقان، ليَتكلَّم في كلِّ فَنٍّ عن رِوايَة ودِرايَة، بل وَجَده قَوْمُه يَخْرُج عليهم من غار حِراء، وقد جَمع في خَلْوتِه ما لم يَجْمعه أولئك الذين أَقْبلوا على المَلذَّات والشَّهوات، وامْتَلك ما أَفْحَم به أَساطين الكُفْر ورُؤوسَ الضَّلال، وما أَبْهَر فُحولَ الشُّعَراء

(1) سورة الأحقاف: الآية 35.

وفُصَحاء الخُطَباء، فاتَّخَذ من صَمْتِه وعُزْلتِه في ذاك المكان الضَّيق، وُجودًا فَسيحًا جعَل لحَياتِه سعَةً وانْعِتاقًا، فصَلَه عن حَياةِ أولئك الذين تَوفَّرت لهم وَسائِل التَّمَتُّع والتَّهَتُّك، ورَفَع صَوْت دَعْوتِه مُجَلْجِلاً في الآفاق، فأَخْرس به أَصْوات الباطِل والكُفْر، وجَعَل لرسالَتِه جاذِبيَّة كجاذِبيَّة شَمائِله وحُسْنِ خِلاله، ولخِطابه آيات باهِرَة اسْتَحْوذَت على الأَذْهان وأَسَرت القلوب..

ولقد أتى وهو الأُمِّي رَبيبُ اليُتْم بما لم يَأْتِ به غَيْرُه من العُلَماء وحُذَّاق الحُكَماء، على بُعْدِ نظَرهِم ونُضْجِ تَفْكيرهِم، وخِصْب تَحْليلهِم واسْتِنتاجهِم، وعُمْق تَجاربهِم وخِبْرات حَياتهِم، وكَشَف غِطاءَ الحَقائِق والأَسْرار الخَفِيَّة عن الأَذْهان المُغْلقَة، التي لم تَكُنْ تُدْرِك من المَعارِف والعُلوم والتَّجارب إلا بقَدْر ما يَنْفعُها في دُنْياها الفانِيَة، ولقَّنهُم الدُّروسَ والأَحْكام في الدِّيانَة، وبَعَث فيهم أَخْلاق الصِّدْق والأَمانة، والشَّرَف والنّزاهَة، والنِّظام والمَدنِيَّة، وكل ما يتعَلَّق بشُؤون حَياتهِم.

ولو تتبَّعنا تلك الصَّفَحات المُشْرقة من سيرة نبينا محمد ﷺ، سنَجِد أنَّه كان مُتَواضِعًا وزاهِدًا في حُطام الدُّنْيا، يُحْسِن مُعامَلة الصَّغير والكبير، والغنيِّ والفقير، والعالِم والجاهِل، والحُرِّ والعَبْد، ويُشاطِر الجميع أَفْراحهم وأَتْراحهم، ويُقاسِمهُم اللُّقْمَة ورَغيفَ العَيْش، دونَ أنْ يَأْخُذَه الطَّمَع والجَشع فيَسْلُك مَسْلك الأَسْياد مع العَبيد في غَطْرستهِم وجَبروتهِم، ولا سارَ في مَنْحى العُظَماء في رُعونَتهِم واسْتِبدادهِم..

بل كان راغِبًا عن كلِّ ذلك وقانِعًا بعَيْشِ الفُقَراء، يَدْعو

ربَّه: «**اللهُمَّ أَحْيِني مِسْكينًا وأَمِتْني مِسْكينًا، واحْشُرني مع زُمْرَة المَساكين**»، وكانت عائشة ﵂ تَسْأله: «لم يا رسول الله؟»، فكان يجيبها ﷺ بقوله: «**إنهم يدخلون الجنةَ قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا، يا عائشةُ لا تَرُدِّي المِسْكينَ ولو بشقِّ تَمْرةٍ، يا عائشةُ أَحِبِّي المَساكينَ وقَرِّبيهم فإنَّ اللهَ يُقَرِّبُكِ يَوْمَ القيامَةِ**»[1]..

ولم يَكُنْ يَطْلُب إلا الزَّاد القَليل ويَنامُ على الحَصير، ويَرْتَدي الخَشِن من اللِّباس، ويَسْكُن في بَيْتٍ سَقْفُه من سَعف النَّخْل، وكان يَطْعَم القدِّيد، وقد تَمُرُّ عليه الأيام فلا يَجِد ما يَسُدُّ به الرَّمَق، ويَتجافى جنباه عن مَضْجعِه فيُقيم لَيْلَه عابِدًا، ويُطيل الوُقوف حتى تَتَوَرَّم قَدَماه خَشْيةً من الله..

وما كان ليُعْجِزه أنْ يَسْلُك الطَّريق الفَسيح الذي سَلكَه أَهْل الكُفْر والشِّرْك، وما كان ليَجْذِبَه ما يَجْذِب قَوْمَه وعَشيرته، أو يَأْخُذَه الشَّغَف بالمَلذَّات مَأْخذَهُم، فيُلَوِّث نَقاء سَريرتِه وصَفاء سَجِيَّتِه، ولم تَنْحَسِر بَصيرته عن مَعْرفة الحَق والعَمل بمُقْتَضاه، بل اخْتار وُلوجَ الباب الضَّيق، وسُلوكَ الطَّريق الأَطْول، راضِيًا بحَياةِ المَشَقَّة والكَدْح، لأنَّها الحياة الفُضْلى العامِرَة بغِراسِ الأَخْلاق والقِيَم، ولأنَّها الحياة العَظيمة في مَراتِب الرِّفْعَة

---

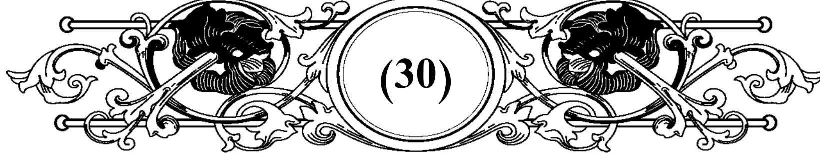
(1) أخرجه الترمذي في سننه، الرقم: (2352) من طريق أنس بن مالك، وقال: خلاصة حكم المحدث غريب، وفي «صحيح الترغيب والترهيب للمنذري»، الرقم (3192)، وقال خلاصة حكمه: حسن لغيره، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»: 1/207 وقال خلاصة حكم المحدث: رجاله ثقات.. والحديث له شواهد.

والارْتِقاء الرُّوحي عن حياة المادَّة، التي تُثْقِل الأَجْساد فتَتَهاوى على الأرض، وتَصْهَر النُّفوس في أَتونِ الإغْراء ومَوْقِد الإِبْهار للبصَر، الحَسير عن إدْراك غايَة ما تَحْمِلُه البصيرة من مَشارِق الأَنْوار، الكاشِفَة للجَوْهَر الماس والدُّر المَنْثور، والمَعْدِن النَّفيس والمَعْنى الجَليل..

كما اختار ﷺ أن يَصْدَع باسْم الخَلَّاق في مَكَّة، والشِّرْك بها ضارِبٌ أَطْنابَه والمُنْكَر فيها غالِبٌ وذائِع، في مُجْتَمع غارِق في الشَّهوات وبين قَوْم يَبسَت قُلوبهم، وتَحَجَّرت إلى حَدِّ الجُمود والتَّصَخُّر، وإلى حدِّ الرُّكون إلى الجَهْل الموصِل إلى التَّقَرُّب بالنُّحور إلى الأَصْنام والخُشُب المُسَنَّدة، وعِبادَة النُّصُب والأَحْجار، والتَّنافُس على الغَلَبَة والسُّلْطان..

كما نَجَح في أنْ يَصْنَع ما عجَز عن صُنْعِه أَشْرافُ المال وأَمْجادُ الأَحْساب، والمُنَعَّمون في حياة السِّعَة واليَسار، واسْتَطاع أنْ يُغَيِّر الأَفْكار والعادات المُنْحَرِفة، ويُقَوِّم الطَّبائِع الهمَجيَّة والمَذاهِب الفاسِدَة، وأنْ يُنْتِج أَحْسَن نِظام وأَنْضَر مَدنِيَّة وأَرْقاها، فخَرَّج العُظَماء والأَبْطال في الدِّيانَة والأَخْلاق ممَّا لا يُحْصيهم عَدٌّ أو حِساب، ومَنْ سارَت بذِكْرِهِم الرُّكْبان في مَشارِق الأرض ومَغاربها..





(30)

البسمات النازفة

صارت أيَّام العيد لا تَحْمِل إلينا تلك الفَرْحة الخافِقَة بنَبضاتِ السَّعادة، ولا تُرْسِل نِداءَها الشَّجي الصَّادِح على عَرْشِ القلوب، التي أضْناها الانْتِظار على أعتابِ الحياة المُعتَّمَة بالكُروب والأَحْزان والأيام المُلثَّمَة بالسَّواد..



فكيف للفرحة أن تشُقَّ طريقًا معبَّدًا إلى القلوب؟!!

والحُروب قد مَلأَت الأرض من أَدْناها إلى أَقْصاها، وعَجيجُ المَوْت قد قَطَّعَ أَقْرانَ السَّحاب فضَجَّت منه السَّماء، والقُلوب تَجافَت عن المَضاجِع، وتَصدَّعَت حَناياها من الأَهْوال، فرَفعَت صَوْتَها بنِداء الاسْتِغاثَة والرَّجاء، والعُيون نَزفَت هُطولَ المَدامِع، وسالَت على خَدٍّ مَشْبوب بشُواظِ الاحْتِراق، وفَرْحة الطُّفولة البائِسَة قد شاخَت، كما شاخَ على عُنْقودِها عُنْفوانُ

الشَّباب، وذَوى غُصْن الكُهولَة الغَضِّ البان، وخَرسَت الأَلْسُن وأَطْبقَت الشِّفاه، وجَثم على الصُّدورِ زَفيرُ الأنَّات..

والأَنْفاسُ لاهِثَة تَنْشُد رَواحِلَ الآمال، خَلْف أُفُقٍ تَلَبَّد بدُخَّانِ البَنادِق ولهيبِ النَّار، وحالَ بينَ القلوب جِسْرٌ طويلٌ شاق، وطريقٌ حَفَّتْه الخُطوب والرَّزايا، فما عادَ يصِلُ الشَّهَقاتِ بالزَّفَرات، ولا الأحْزانَ بالأَفْراح..

لتظَلَّ تلك الأَنْفاسُ تَسْتَجْدي من الحَياةِ شَهيقًا وزَفيرًا للخَلاص، وانْبِعاثًا لذاكرَةٍ تَزُفُّ إليها انتصارًا عظيمًا من تاريخ الأَمْجاد، يَمْسح عن أَديمِها فُصولَ الهَزائِم والانْكِسار، ويُضَمِّد جُروحَها ويُسَكِّن مَخاض الأَرْحام، ويُرَتِّق مَسام آلامها التي لا تَفْتَر تَتَّسِع كاتِّساع الأَحْداق، لتَمْتدَّ امْتِدادَ الأَوْجاع التي كُتِبَ على جَبينِها أنْ تولَد على كَفِّ المَنون بلا مسَرَّات..

وبلا قُلوب رَحيمَة تَحْتويها كقُلوبِ الرُّحَماء، وبلا أَيْدٍ حانِيَة تَضُمُّها كما تَضُمُّها الصُّدور بالأَحْضان، لتَهْدأ حَنايا الرُّوح ويَهْدأ رَفيفُ الطُّيور في الأَوْكار..

وبلا قَطْرٍ يُرَطِّب المَآقي ويَسْقي العُيونَ الكالِحَات، وبلا مِهادٍ وَثير وبلا مَلاذ هَنيء، يَحْميها من الدَّمارِ والشَّتات، الذي عَشَّش في كلِّ زَواياها والأَرْكان، وقَطَّع أَوْصالَها على خارِطَةٍ مُمَزَّقَة الأَطْراف، فأَضْحَت حَياتها خَلاءً وحُطامًا ورُفاتَ أَشْلاء، بعدما هاجَرت أَرْضَها قَسْرًا، وتَخَلَّت عن مَساكنِها والخِيام، ووَدَّعَت ذِكْرَياتها الجَميلة، ووَدَّعَت الرُّسومَ والنُّقوشَ على الحيطان، ورَحَلت بلا دِهانِ الوَرْد ولا رَوائِح البخور والمِسْك،

وبلا خِضاب الحنَّاء، حامِلَةً أسْمالها والرِّثاء إلى حيث تَحْيا غُرْبتَها ومَنْفاها خارجَ الأَوْطان..



وليْتَها وجدَت خَلاصًا أو انْعِتاقًا يهَبُها السَّلام والأمان !!

بل رحَلت وهي حَبْلى بمَتاعِبها، وغُرْبَتِها اللَّاذِعَة وشَقاوة الحياة، ومَواقِدُ المَوْت مُنْسَعِرَة، وهَدْيُ الحُروب مُعَلَّقٌ فوقَ نُحورِها..



ويستمِرُّ نِضالُها وكفاحها..

على الرَّغْم من كلِّ تلك المَذابِح العَظيمة، والشَّدائِد والمِحَن المُتَتالية، وتَأْبى أَرْواحها المُؤْمِنَة الطَّاهِرَة الخُنوعَ والاسْتِكانَة، ولا تَزيدُها تلك الشَّدائِد والمِحَن إلا قُوّةً وصَلابة، وصُمودًا وشَجاعَة، وهِمَّةً تحْفَظ في نُفوسِها الدِّينَ والكَرامة، وتَنْتَصِر للحَقِّ والعدالَة، وتَصونُ العِرْضَ والشَّرَف والأَمانة..

فتَراهم أَبْطالاً شِدادًا لا يَهابونَ المَوْت، يُواجِهون أَعْداءَهم في ساحاتِ القِتال بلا هَوادَة، وقد نَشؤوا في عَرينِ الشُّجْعان،

فصاروا أَشْبالاً وأُسودًا وسَط أَهْل البُطولَة والبَسالَة، ويَشُقُّونَ طريقَهُم الوَعْر، وأَكْفانهُم على أكتافهِم بلا مَهابَة، ولا يَخْشَوْن ما يَخْشاه سِواهُم ممَّن لَبِسوا للحياة المُنعَّمَة جِلْدًا من حَرير التَّعْظيم والفَخامَة..

وتَجِدهُم يَرْتفِعون بمَكارِم الأَخْلاق الشَّريفَة عن أَطْماع الحياة والمَلذَّات، وعن أولئك الذين هانَ عليهم الإنسان وكرامَة الإنسان، كما هانَتْ عليهم الحُرُمات والأَعْراض..

وتجِدهُم يَرْتَدون للأَعْياد لباسَ الحِداد تِلْوَ الحِداد، ويَتَجرَّعون السُّمومَ والمَوْتُ يَعْتام الأَرْواح، وأَشْواقُهم مُعَلَّقَة على مَشانِق الجُناة، وأحلامُهم مَنْصوبة على أَعْمِدَة الخُطوب والأَرْزاء..

۞ فأَيُّ سَلامٍ تبقَّى؟ !!

بعد أنْ أَضْحَت حياتهُم غُروبًا مُتَواصِلاً، والعُيون تَكْتحِل وَمضاتٍ من الشُّروق لما بَعْد الغُروب، والوُجوه تَخْطِف قَبساتٍ من النُّجوم، للَيْلٍ لا يَنْجلي عن الصُّدور ولا تَنْزاح عنه الهُموم، وتَطْمع أنْ يَنْسكِب من نورِها البَياض، لتَسْتحِمَّ الأَجْسادُ والأَرْواح التي كُتِبَ على فُصولِها أنْ تَحْيا فَصْلاً واحِدًا مُكَرَّرًا بلا رَبيع ولا أَلْوان، كما كُتِبَ على زُهورِ بَساتينِها الصُّفْرَة والذُّبول في كلِّ فُصولِ العام..

فكيف للزُّهور أنْ تَتفتَّح في الأَعْياد، والقُلوب قد جَفَّت عُروقها من الحُروبِ والثَّورات؟ !!

وكيف للبَراعم أنْ تَنْمو وتُزْهِر في الأَعْياد، وقد نَضَبتْ مَجاريها وانْحَبسَ عَنْها الغَيْث وهطل الأمطار، وجَفَّت قُطارَة الحُبِّ من السَّلام؟ !!..

۞ وأيُّ سَلامٍ تبقَّى؟ !!

بعد كلِّ هذا المَخاض وهذه الحُروبِ الطِّحان، التي قَصَمت ظُهورَ الخَلائِق والعِباد، ولَوَتْ أَعْناقَهُم وطَوتْهُم طَيَّ السَّحاب، وسَوَّدَتْ صَحائِفَهُم بالخَطايا والآثام، فما عادَ للأَقْلام حِبْرٌ أو مِداد، ولا للفَصاحَة لِسانٌ أو بَيان، ولا مَنْطِقٌ أو حُروفٌ أو كلمات..

ليست إلا طَقْطَقات أَعْوادٍ تَئِنُّ من المَواجع تِلْوَ المَواجِع، وأَكْبادٌ تَفَتَّقَتْ فتَفجَّرت من يَنابيعِها الدِّماء، ونَشرتْ أَخْبارَها على قَشٍّ ورَماد..

وليس إلا نِفايَة قِيَم قد خَلَت من كلِّ مَعْنى يَسُرُّ أو يَجْبر الخاطِر، وأَطْماعٌ اسْتَبدَّت بالذَّوات العارِيَة من كلِّ قيمَة وفضيلَة إِنْسانِيَّة..

۞ وأيُّ سَلامٍ تبقَّى؟ !!

والحياة قد تعَكَّر صَفْوُها وصارت تَلْفِظ أَنْفاسَها كلَّ يوم، وتَخْلعُ عن الإنسان أَغْلى ما يَمْتلِكُه وما يَعْتزُّ به ويَفْتخِر، وتَسْتَنْزِفُ ثَرواتِه والقوى والطَّاقات، وتَشُدُّ وِثاقَ الأَحْرار بالقُيود

والأَغْلال، وتُذيقَهم الذُّل والخِزْيَ والعار، لتُخَلِّف هَيْكل إنسانٍ قد شَقِى بالحُروب، ومُسِخَ مَسْخًا مُشَوَّهًا لا يَنْتسِب للكرامَة الإِنْسانِيَّة بأَيِّ انْتِسابٍ أو فَخار..

۞ وأيُّ سَلامٍ تبقَّى؟ !!

وأَعْيادُنا ما عادَت أَعْيادًا، ولا أَفْراحُنا ظَلَّت أَفْراحًا، ومَسرَّاتُنا تَخْتبِئ خَلْفَ حُجُبِ الظَّلام وسُجُفِ الأَحْزان الكِثاف، ومَدامِعُنا بُحورٌ من الجِراح، تَغْرِفُ من نَزيفِها الأَرْواح مُدودًا تِلْوَ المُدود..

حتى لا يَظْهَر من أَعْيادِنا وُجوهٌ ضاحِكاتٌ مُسْتَبْشِرات، وحتى لا يُشْرِق من أَفْراحِنا إلا مَسَرَّاتٌ تَخْتفي خَلْفَ بُرْقعِ الحِداد، وسُطورٌ قد مَزَّقَتْها القُروح وأَذابَها حَرُّ العَويل والآه..

وحتى تخْبو نَضارةُ الوُجوه، وتَفْقِد ما كان لها من بَريقٍ في سالِف الأيام الزَّاهِرَة في الأَعْياد، حين كان للأَفْراح بسَماتٌ ومسَرَّات، وكان لنا فُصولٌ ورَبيعٌ وسِقاءٌ من أَفانينِ الوُرود، وغِراسُ أَزْهار مُتفَتِّحات، وكان للمَواسِم أَعْيادٌ وللشَّرَف حُرماتٌ تُصان..



لائحة المصادر والمراجع

1 ـ **أثر الوقف في تنمية المجتمع**: نعمت عبداللطيف مشهور، مركز صالح عبدالله كامل للاقتصاد الإسلامي، جامعة الأزهر 1997م.

2 ـ **أدب الدنيا والدين**: أبي الحسن الماوردي ـ شرح وتعليق: محمد كريم راجح ـ دار اقرأ، الطبعة الرابعة (1405هـ ـ 1985م).

3 ـ **اشتراكية الإسلام**: د. مصطفى السباعي ـ طبعة القاهرة.

4 ـ **الأسس الجمالية في النقد العربي**: د. عز الدين إسماعيل ـ دار الفكر العربي، (ط الأولى: 1992م).

5 ـ **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ: 1250 ـ 1517م)**: د. محمد محمد أمين، دار النهضة العربية ـ القاهرة، (ط الأولى 1980م).

6 ـ **اللغة والتفسير والتواصل**: د. مصطفى ناصف ـ سلسلة عالم المعرفة، الكويت ـ (العدد 193 يناير 1995م).

7 ـ **المُدهِش**: للحافظ أبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي ـ دار الآثار، ط الأولى (1422هـ ـ 2003م).

8 ـ **الممارسة النقدية ـ كاثرين بيلسي**: ترجمة: سعيد الغامدي ـ منشورات دار المدى، سورية ـ دمشق، ط. 2001م.

9 ـ **الوقف في الفكر الإسلامي**: محمد بن عبدالعزيز بن عبدالله ـ منشورات وزارة الأوقاف المغربية.

10 ـ **بين يدي الشباب**: أبو الأعلى المودودي ـ الدار السعودية للنشر: (ط. 1407هـ ـ 1987م).

11 ـ **تاريخ تطوان**: محمد داود ـ مراجعة وإضافات: حسناء محمد داود، جمعية تطاون أسمير ـ مطبعة الخليج العربي ـ تطوان، (الطبعة الأولى 2009م).

12 ـ **تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت**: د.عبدالمجيد النجار ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير(2) ـ (الطبعة الثانية 1415هـ: 1995م).

13 ـ **حاجتنا إلى انسجام ثقافي**: الأستاذ الطاهر زنيبر ـ مجلة دعوة الحق: العدد الثاني (1376ه ـ 1957م).

14 ـ **خطاب الحجوي في حفلة تفريق الجوائز في المدرسة الثانوية الرباطية سنة ١٣٤٩ هـ، مخطوط ضمن مجموع بالخزانة الوطنية المغربية بالرباط.**

15 ـ **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**: ابن القيم الجوزية ـ دار الفجر، ط. (1426هـ ـ 2005م).

16 ـ **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب**: محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ـ مؤسسة قرطبة: ط الثانية (1414هـ: 1993م).

17 ـ **فقه الواقع (أصول وضوابط)**: أحمد بوعود ـ ضمن سلسلة الكتب التي يصدرها مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر.

18 ـ **كيف يستعيد العرب مكانتهم اللَّائقة بهم؟ وكيف يحافظون عليها؟**: أبو الحسن علي النَّدَوي ـ دار عرفات للتربية والنشر ـ ط. الأولى (1411هـ ـ 1990م).

19 ـ **مجموع الفتاوى**: لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، ط. الأوقاف السعودية(1425ه ـ 2004م) ـ ج 12.

20 ـ **محاضرات الأدباء وتحاورات الشعراء والبلغاء**: لأبي القاسم حسين بن محمد الراغب الاصفهاني ـ منشورات دار مكتبة الحياة (الجزء الأول).
21 ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: للإمام ابن القيم الجوزية ـ دار التقوى.
22 ـ **مشكل الثقافة**: مالك بن نبي ـ دار الفكر بدمشق، (ط الرابعة 1984م).
23 ـ **موسوعة أعلام المغرب**: تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي ـ (ط. الأولى 1417هـ ـ 1996م) ـ ج التاسع.
24 ـ **موسيقى الشعر العربي**: عباد شكري، مشروع تأصيل ـ دار المعرفة، القاهرة ـ ط. 1978م.

۞ المجلات والصحف:

25 ـ **مجلة رسالة المغرب**: العدد الرابع، السنة السادسة، (محرم 1367هـ موافق دجنبر 1947م).
26 ـ **مجلة عالم الفكر** ـ الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت: العدد 4: المجلد 44 (أبريل ـ يونيو 2016م).
27 ـ **مجلة المناهل**: الصادرة عن وزارة الشؤون الثقافية الرباط ـ المغرب: العدد 26 السنة العاشرة (1403هـ ـ 1983م).
28 ـ **في ظل الذاكرة**،: حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»: العدد 100، (فبراير 2016م).
29 ـ **مجلة دعوة الحق**: العدد الثاني (1376هـ ـ 1957م)، والعدد 363 ـ 365، (السنة 2002م).
30 ـ **مجلة أوقاف: العدد ٤، (السنة ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م).**
31 ـ **جريدة العلم بتاريخ ١٨** : 7 : 2011م.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

